رواية
انتقام المرايا
سارة عبد المنعم
أكاديمية الكاتب

انتقام المرايا

رواية

سارة عبد المنعم

دار اكاديمية الكاتب للنشر الالكتروني

رئيس مجلس الإدارة: محمود كمال

المدير العام: محمد حسن

الطبعة الأولى

الكتاب: انتقام المرايا

المؤلف: سارة عبد المنعم

تصنيف الكتاب: رواية

تنسيق وإخراج داخلي وتصميم غلاف: محمود كمال

المقاس١٤* ٢٠

الترقيم الالكتروني EBIN : 60-11-1-260104

التليفون : ٠١١١٢٣٥٧٤٧٣

Email:alkatebacademyforpublishing@gmail.com

موقعنا على فيس بوك: دار اكاديمية الكاتب للنشر الالكتروني

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف، يمنع منعًا باتًا النسخ أو الاقتباس، دون إذن خطي من الكاتب وإلا ستتعرض للمسائلة القانونية.

إهداء

إلى والداي (المسراج المنير) الذي أهتدي به في الظلمات.

الأشخاص الحقيقيين الذين لا تُغيرهم مواقف أو تُبدلهم ظروف.

كل من علمني حرفًا وساندني خلال الطريق.

إليكم أنتم..

المقدمة

إياك والاقتراب يا عزيزي، فإن فعلت سيكون من الصعب عليك العودة، ولن تستطيع المواصلة بعد قرأتك لما سُطر خلف تلك الصفحات، قد تكون حقيقة، وقد لا تتجاوز خيال كاتب موهوم، لديه رسالة، ويرغب في إيصالها، فلا تنسى بأنني حذرتك، فلو جُلت بعينيك إلى السطر التالي، وها أنت ذا تقرأه، حافظ على هدوئك حتى النهاية، وهذه ليست بنصيحة أبدًا؛ بل مفتاحك لتنجو من ذلك الشر المستطير الذي بانتظارك.

-١-

الحلم المزعج

ـ هل تظن بأنني سأدعك في حالك بعد ما سلبت مني الحياة؟

انتفض كريم فزعًا من نومه، وفرائصه ترتعد من الخوف، لقد تجاوز الوجه الذي رآه الأشكال التي يتفنن مصممو الرعب في رسمها؛ لإرهاب المُشاهد وبث الرَوع داخل نفسه، فيهلع ولا يُفارقه الشعور لفترة، يلحق به أينما ذهب كظله، أو لعل تلك الروح الشريرة قد تلبست به.

ـ ما بك يا كريم؟، هل أنت بخير؟

ذرات العرق تتدفق من جبينه، ولا يقوى على النطق، فَأَثار القلق في صدر عمر، الذي كرر عليه السؤال أكثر من مرة، ولا يعرف حقًا ما أصابه؟، ليُطوقه بذراعيه من الخلف، يُشعره بقربه، فما لبث أن تفوه بعبارة، أوجست في نفسه خيفة، وانكمش بدوره هو الآخر، وصدحت بها الأرجاء كالتالي:

ـ ما كان يجب علينا ترك سلمى يا عمر...

حاول عمر أن يصم أذنه، وهو يصرخ به قائلًا:

ـ لا تتفوه باسمها، لا تقل أي شيء.

كريم، والندم يفوح من بين كلماته:

ـ لمَّ يا عمر؟، أ ليست تلك الحادثة هي ما نغصت علينا حياتنا؟، ولم يعد أي شيء كما كان منذ ذلك اليوم.

ساد الصمت بينهما للحظات، وأومضت في حافظتهم مشاهد مرت عليهم من قبل، ليُصبح الزمان غير الزمان، والأمر ذاته مع المكان، ليعود بهم إلى ذلك اليوم المشئوم، الذي حُفر بداخل ذاكرتهم بقسوة، وحاصرهم الذنب رغم أنهم لم يُخطئوا أبدًا.

ـ سلمى، إلى أين أنتِ ذاهبة؟

ـ عمر! ماذا تفعل هنا؟

ثم انتبهت إلى كريم، الذي اقترب بدوره هو الآخر، وكررت السؤال إليه؛ ليُجاوبونها في نفس واحد:

ـ ماذا تفعلين أنتِ هنا؟

فحدجتهم بنظرة نارية، وهي تقول في حدة:

ـ وما دخلكم أنتم؟! لقد وصلتني دعوة كما وصلتكما.

ـ ولكن تعلمين بأن رضوى لا تُحبك، فكيف تُخاطرين بالقدوم إلى بيت عمها؟، لقد قبلنا الدعوة لكونه المشرف على مشروع التخرج الخاص بنا، ولكننا لم نتوقع رؤيتك هنا، فمن الأفضل لكِ عدم الدخول.

لم تكن الصداقة وحدها من جمعت بين كريم وعمر، فقد كان قلبيهما ينبضان لأجل فتاة واحدة، ورغم محاولة كلا منهم لإخفاء الشعور عن الآخر، لم يكن خفيًا على رضوى، التي أكلت الغيرة قلبها، وتوعدتها بالانتقام وخاصةً بعد ما رفضها كريم، وقرأت الشعور ذاته في عين عمر، حتى وإن لم تكن له الحب يومًا، جُرحت كرامتها، فمَن تكون سلمى كي تخسر أمامها؟، وتسرق لُب الشباب حولها.

ـ ولكن أين تُريدون مني أن أذهب؟، تأخر الوقت، ولا أعرف هنا أحدًا.

لانت ملامح سلمى بعد ما قالوه، وقرأت الصدق في أعينهم قبل الشفاه، فقد جاءت منذ البداية لأجل كريم، استطاعت رضوى أن تُسمم عقلها عنه، فالحفلة ستحضرها الكثير من الفتيات، وقد تسرقه إحداهن منها.

ـ تعالي للجلوس في سيارتي، وسأثبت حضوري أمام الدكتور عماد، ثم سأتحجج له بأي شيء، وأعود إليكِ سريعًا كي أُوصلك إلى بيتك.

استجابت سلمى لطلب كريم، وأوصلها عمر إلى السيارة، بينما دخل كريم، وأعين تتبعه في غضب، فقد شاهدت ما حدث بالخارج، لم تكن تنوي الخير أبدًا، ولكن لن تسمح له أن يُفسد مخططها، ابتسامة صفراء ارتسمت على شفتيها، وعَلَت نظراتها التحدي، فإن لم يكن كريم لها، لن تسمح لأي فتاة مهما كانت أن تظفر به.

(واحسرتاه على سلمى، فقد كان ذنبها الوحيد أن ظهرت بطريقه، وقع في شباكها، وترك من تهيم به عشقًا، والآن حان وقت الاقتصاص منها)

هواجس بل وساوس شيطانية، وشرور لا قبل لإنسان على احتمالها، فثارت رضوى من داخلها، وتحركت بفعل الأهواء كرياح عاصفة هوجاء، تُلقي بكل شيء في طريقها، وما من شيء للاحتماء به.

ـ سلمى، أنتِ هنا؟

تفاجئت برضوى أمامها، وكأنما ظهرت من العدم، فكيف عرفت مكانها؟، ارتبكت سلمى، وتلجلجت في الحديث؛ لتتولى عنها رضوى التفسير، تُتقن دورها ببراعة، وهي تقول:

ـ أعلم بأنك الآن تتساءلين كيف لي أن أعرف مكانك؟، وأنا لم أعرف بقدومك.

ثم صمتت لهنيهة، تُريد أن ترى تعابير وجهها، وأصاب حديثها الهدف مباشرة، فأردفت:

ـ لقد أخبرني كريم وعمر بعد إلحاح شديد مني، فقد قالوا عنكِ بأنك متوترة للغاية، ولا تُجيدين التعامل في مثل هذه الأمور، وحين طلبت منهم المجيء لإحضارك، رفضا، فهل ستظلين هنا مكانك؟، وتبقى لديهم تلك النظرة السيئة عنكِ.

التهبت أنفاس سلمى من الغضب، إذن كانا يخدعانها، واصطنعوا الخوف عليها، ذهبت معها إلى الداخل بإرادتها، غير واعية بالمصير المجهول الذي ينتظرها خلف تلك الكلمات المعسولة.

داخل الفيلا..

بدأت حفلة عيد الميلاد التي تم التخطيط لها منذ شهور، عيد ميلاد رضوى، تلك الفتاة المدللة التي لا يرفض لها عمها طلبًا، يأتيها كل شيء بإشارة واحدة من يدها، حيث زوجته عقيم، وفقدت رضوى والدايها في حادث، لم يمهلها اليُتم، وباغت القدر الدكتور عماد بفقدان أخوه الوحيد، فأحبها حبًا كبيرًا، وامتلكت مكانة عظيمة في قلبه، وعوضت شعور النقص في نفس زوجته، فمَثل مجيئها الغيث يروي أرضهم الجدباء، إلا أنهم بالغوا في تذليل الأشياء طوعًا لها، فأصابها ذلك بالكبر، وتحكم فيها الغرور، فأبت عليها كرامتها تقبل الشعور بالرفض، وأعدت خطة شيطانية لا يتصورها العقل، واجتمعت فيها النفس والهوى.

ـ عيد ميلاد سعيد عزيزتي رضوى، عيد ميلاد سعيد حبيبتي الغالية.

يطبع الدكتور عماد قبلة حانية على خدها، وهو يُردد تلك الكلمات، ثم أظهر من خلف ظهره هدية، جعلت رضوى تصيح، وطار عقلها من الفرح، ودببت على الأرض بقدميها، وهي تهتف:

ـ أووه لاا.. كم أنت عظيم يا أبي! لا يُمكنني التصديق بأنك أحضرت لي أخيرًا السيارة التي أُريد، الآن يُمكنني السفر إلى أي مكان بسهولة.

ـ كم رضوى عندي كي أتأخر عن تنفيذ طلبها؟ يكفيكِ فقط أن تُشيري باصبعك، فآتيك بكل ما تتمنين في غمضة عين.

قبلته رضوى في فرح، وعينيها مُعلقة بأحدهم، وتتمنى أن تشير لأبيها نحوه، كي يجعله ملكًا لها ككل الأشياء التي تمنتها من قبل، وأحضرها الدكتور عماد لها دون جدال، ولكن اختلف الأمر هذه المرة حيث قررت الاعتماد على نفسها، ولن تتراجع أبدًا حتى تُحقق مبتغاها.

ـ وماذا عن قبلة ماما؟ هل ستعطي كل الحب لبابا عماد؟

تحتضنها السيدة نوران من الخلف، وتنظر نظرة استعلاء إلى الحضور، فقد أصبح لديها ابنة، ولطالما وجدت من البعض منهم الاستهزاء والسخرية، عقدة النقص لديها ما زالت حاضرة، جاء جل تركيزها على إخفاء ذلك، فلم ترفض لها طلبًا، وعملت على تلبية كل رغباتها كي تفوز بحبها، وتطرب أذنها بكلمة (ماما) تلقيها على مسامعها أمام الآخرين، الذين شككوا في غريزة الأمومة لديها، ورأوها غير جديرة بتلك الصفة.

ـ ماما حبيبتي.. كل الحب لكِ يا أطيب وأحن أم في الوجود.

جعلتها تلك الكلمات تشعر بالانتشاء، هي أم الآن ولديها ابنة رغم أنوفهم، فاقتربت إحدى السيدات منها تدعى (منال) وعبرت عن شعورها، تشاركها إياه:

ـ كل سنة ورضوى طيبة يا حبيبتي، لا تعلمين حقًا مقدار السعادة في قلبي، وأنا أرى الحب الكبير الذي جمع بينكم، وتلك العلاقة الوطيدة بين الأم وابنتها.

وجاءت سيدة أخرى، وأكدت على قولها:

ـ وأنا أيضًا والله يا نوران يا حبيبتي، فرحةً للغاية وقد استجاب الله دعوتي لأجلكِ.

وناولوا رضوى الهدايا، وهم يطبعون القبلات بدورهم، أخذتها منهم على عجل، ثم انفلتت من بينهم تبحث عنه، فقد اختفى من أمام ناظرها، ضحكت السيدة منال من فعلها:

ـ هههه.. كم أن شباب هذه الأيام على عجلة من أمرهم!

ـ معك حق يا منال حتى ابنك محمود رأيته يذهب خلف رضوى، ويبدو بأنه على عجلة من أمره هو الآخر.

تفوهت بتلك الكلمات السيدة رُقية، فهي تشعر بالغيرة لكونها تعلم بمخطط منال، وتتمنى لو كان هي التي لديها الابن، فتُزوجه لرضوى، ويُصبح طوع إرادتهم كل تلك الأملاك، فقد فازوا بالجائزة الكبرى، الابنة الوحيدة لوالدين ثريين للغاية، اقترب منها زوجها (وليد)، وهمس لها بخفوت:

ـ هيا بنا لنعود إلى البيت يا رُقية، لقد تأخرنا كثيرًا على والدتي، وقلبي ليس بمطمئن عليها.

تأففت رُقية، وزفرت في ضيق:

ـ أمر قلبك هذا غريب يا وليد والله، والدتك ليست بصغيرة.

سكتت لبرهة، ثم تنهدت، وهي تُكمل:

ـ لم يرزقنا الله بالأطفال، ولكن الدكتورة جيهان تُفيد حريتنا، وكأننا الصغار بين يديها، وعلى الرغم من اعتراضي على بقائها لدينا، لم تُبال بي ولا بتوسلاتي حتى، أريد أن أصبح أمًا، وكلما رأيت كيف تُعاملك والدتك، شعرت بالعجز، أمرٌ ما يُنقصني، وإن لم يكن العيب بي، فلمَ لا ترحمني يا وليد؟

نظر إليها وليد بحزن، وردد بانكسار:

ـ قضاء الله وقدره يا رُقية، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

احمرت عيناها من الغضب، إلا أنها كبحت جماحه أمام الحضور، أخذت نفسًا عميقًا، وببطء أخرجته لعلها تُبخر قليلًا من وهج النيران المتأججة في صدرها، لا تطيق ذرعًا بسلبية زوجها، بل استسلامه لعجزه، وكأن منافذ الحياة كلها قد أُغلقت في وجههم، تطور الطب كثيرًا، وقد تكون هناك

وسيلة تروى شوقها للأمومة الذي لا ينطفئ، بل يعلو منسوبه حين ترى أم وابنتها، تفتقد ذلك الشعور الذي زهده زوجها، لم يعد يتمنى أن يُرزق بالأبناء، وكأنه قد زهد في أبوته.

ـ لمَّ أنتِ صامتة يا رُقية؟ لمَّ لا تتحدثين؟

صعدت رقية السيارة جوار زوجها، وحافظت على صمتها طوال الطريق على عكس عادتها، فسألها زوجها في هدوء، إلا أن إجابتها لم تُشبه ذلك، وهي تصرخ به:

ـ لم أعد أحتمل يا وليد، أريد أن أُصبح أمًا، أما أنت فلا يفرق الأمر معك.

ـ مَن الذي قال ذلك يا رُقية؟ الله وحده يعلم حقيقة الشعور المضطرب داخلي، ولكن ما الذي يُمكنني أن أفعله؟

نظرت له رُقية في استنكار، وصاحت:

ـ من يسمع حديثك هذا يظن بأنك تعيش في العصر الجاهلي لا عصر التطور والذكاء الاصطناعي، الذي أثر كثيرًا على واقعنا، وحدثت طفرة في علم الطب وغيره من العلوم، لم يعد هناك من مستحيل يا وليد صدقني، لعله يوجد هناك ما توصلوا إليه من الوسائل، ويُخفي علينا، دعنا نزور الطبيب ثانية، لا أعلم حقًا لمَّ تبدل حالك منذ الزيارة الأخيرة؟

ارتبك وليد، وزاغ بصره، يتحاشى النظر إليه، يخشى أن يَنكشف المستور من خلال عينيه، أَثر أن يُخفي عنها الحقيقة، واحتمل سوء المعاملة التي يجدها منها في رضا، فقد بلغت محبتها في قلبه حدًا عظيمًا، فلا بأس من الافتداء بنفسه لأجلها.

ـ لعله خير يا زوجتي الحبيبة، فصبر جميل.

انهارت رُقية في البكاء حين لم تجد منه ردًا يُرضيها، وخاصةً حين تذكرت الثروة التي كانت لتكون طوع إرادتها لو كانت هي التي لديها الابن، وليست منال، فيتزوج رضوى، وبتلك الزيجة تهطل السماء بالأموال فوق رأسها، زوجها حاله ميسورًا، إلا أنه بالكاد يكفيها، فهي من الطبقة الراقية، وترى راتبه بضع ملاليم، على الرغم بأنه قد يُرضي عائلات كاملة لا عائلة واحدة، فهو يعمل كمدير في أحد البنوك إلى جانب استثماراته في مشاريع أخرى، ويعطيها كل ما يأتيه، لا يحرمها من شيء.

ـ حرام عليك تظلمني معك يا وليد، فأنا أشتهي الأمومة، ولا ذنب لي بعقمك.

كانت كلماتها كالسيف الحاد، غُرست سهامه المدببة في شغاف قلبه، فكان جرحه غائرًا، أُختبر في أصعب ما قد يشق على رجل، ولم يتفوه بكلمة واحدة، صبر على قسوتها، ولم يقو على الإساءة إليها.

****

لم تنته الحفلة بعد، الحضور مسرور للغاية بفقراتها، وإن غابت عنهم ضيفتها، حيث غابت رضوى عن المشهد، لا يُلمح لها أثر، وكأنها قد ذهبت لغير المكان، اتخذت الحفلة تمويهًا للحدث الجلل، الذي تشيب له العقول قبل الأبدان، وتسمر محمود في مكانه، حيث صُعق من المشهد الذي رآه حين ذهب خلفها، ولم تشعر رضوى بوجوده، فقد اختبأ خلف أحد الأبواب، لتتحرك الأحداث وفق تخطيطها.

-كريم، عمر، لمَّ تفعلان ذلك بي؟، ما دهاكم؟! توقفا أرجوكم، فأنا لم أخطئ في شيء.

تصرخ سلمى بأعلى صوت في محاولة منها لتُعيدهم إلى صوابهما، حيث أنهم بدوا كأشخاص آخرين، ضحكات سخرية واستهزاء ترج المكان عن بكرة أبيه، تخترق آذانها، وتهز أركانها، تتوسط الغرفة دائرة يسحبانها نحوها بقوة، ويجتمع حولها الحضور بملابس غريبة، وأقنعة مخيفة يرتدونها على وجوههم، فلا ترى من يكونون؟، واختفت رضوى، وكأنه لم يكن لها وجودًا، وبدأت شفاههم تلهج بترانيم، لا قوة لها على فهمها، ولا تفسير ما يقصدون؟، ليُقيد عمر يداها على امتداد الدائرة، وفعل كريم المثل في القدمين، واقترب آخر يغرس في داخل جسدها المسامير، تسيل دمائها عبر مجرى حفروه جانبها، كما الأنهار تسير، ولكنها مُخضبة بدمائها، حيث خلفت مختلف الجروح، وصرخاتها تتوالى، وما من مُغيث.

-كريم! ساعدني أرجوك، أين ذهب حبك لي؟، لطالما ظننت بأن الشعور بيننا متبادلًا، وأحتقر الآن قلبي الذي نبض لأجلك في أحد الأيام...

توقفها شهقات الدموع، فلم تكن عيناها فقط التي تذرفان، حتى تلك الجروح التي أصابوا بها جسدها، لم تكن بشيء أمام نياط القلب، الذي تكسر إلى شذرات، فهناك آلام لا تندمل، وإن مضى عليها غبار السنين.

-سأن..ق..م، أق..س..م لك..م بأن..ني لن أرحم..كم، وستل..حق بك..م روح..ي، أين..ما كن..تم.

آخر عبارة تفوهت بها سلمى، قبل أن تشعر بشيء يسحبها للأعلى، وقد عظم الألم داخلها، فلم تعد تقوى على احتماله، ثم خفتت الصرخات تدريجيًا، حتى توقف الصوت عند سقوطها بقوة إلى الأرض، بعدما بلغت سقف الغرفة، وانفصلت الرأس عن الجسد، بذلك المنشار الذي وُضع لأجلها، وكأن يد خفية تحمله، وشُطرت الأجزاء بواسطتها، فغاب النور عن عينيها في تلك المرأة التي لطالما شهدت جمالهما، والكحل يرتسم ببراعة داخل ذلك الليل السرمدي، الذي هو لون عينها، لم تُفارقها المرآة قط وسقطت بدورها الآن معها، لتُصبح لها جسرًا، تعود من خلاله؛ كي تأخذ بثأرها.

ظل كريم يتأوه في محاولة منه لإخراج تلك الذكرى السيئة من عقله، وهو يدفع برأسه نحو الحائط، يضربها بأقصى قوته، والدم يسيل في الأرجاء، ففزع عمر، وانتبه إلى جنونه، حيث كان شاردًا بدوره، أخذته الذاكرة بعيدًا هو الآخر، وعاد إليه رشده عند سماع صرخات كريم مع صوت نداء بالخارج، مَيزه على الفور عند سماعه.

ـ كريم، عمر، أين أنتم يا أولاد؟، لمَّ لا تُجيبونني؟، افتحوا لي الباب في الحال، لم تعد قدماي تقوى على الوقوف أكثر، يا أولاد، أين أنتم؟

طرق خفيف على باب الغرفة مع صوت ملائكي، يُعيدهم بحنانه من قسوة ذلك الكابوس المُفزع الذي يأتيهم، بل لا يدعهم يهنأون، ما بين نزف القلب، ووجع الجسد مما يأتيه، فقد تجاوزت آلامهم حد الاحتمال، مع فراق الحبيب بغتة، بل رحيله عن الحياة بطريقة غير قابلة للنسيان، وقعت عليهم كالصاعقة، وحُفظت القضية بالسجلات، فما حدث مع سلمى، يصعب التصديق بأنه من فعل إنسان، نظن بالجن شرًا، أما نحن فمصطفون، ما أحقرك بني الإنسان! ألمَّ تكن أنت منذ البداية الذي انصاعت لوسوسة الشيطان؟، بل تفوقت عليه بسيرك خلف الأهواء.

يُحاول عمر أن يعيد كريم إلى صوابه، وهو يقول:

ـ كريم .. يا كريم أفق يا أخي أرجوك.. العمة كريمة بالخارج، وانظر ماذا فعلت بنفسك؟، الدم يسيل من جبهتك كالسيل لا يتوقف ... هيا تعال معي، وساعدني لإيجاد شيئًا لوقف ذلك النزف، وسوف أمسح آثار الدماء كي لا تراها العمة.

ـ وأخيرًا فُتح الباب، وكأنكم كنتم نائمون تحت الأرض، بُح صوتي وتعبت مفاصلي من انتظاركم بلا إجابة واحدة، تُريح لبي بأنكم بخير.

-أهلا بكِ يا عمتي كريمة، افتقدت رؤياكِ والله، فهل الجميع في القرية يا بخير؟

رحب بها عمر بتوجس، فكريم ما زال مصدومًا، ويخشى عمر أن تنتبه العمة، ويتسلل إلى داخلها الريبة، فمنذ تلك الليلة الملعونة لم يريا عائلاتهما قط، يعطونهم مختلف الحجج؛ كي لا يفتضح أمرهم إن ذهبوا، يرون سلمى في كل مكان، ولا يقويان على مشاركة أحد ما حدث، سيتدمر مستقبلهما، ولا حيلة لهم للدفاع عن أنفسهم، فهناك الكثير من الحلقات المفقودة، ويستعصى عليهما التذكر، كأن العقول كانت مُنفصلة عن الذاكرة، فلا تُسعفها في شيء، وإن أبت نسيان منظر سلمى.

ـ ماذا هناك يا عمر؟ قلبي يُحدثني بأن هناك أمر مريب يحدث معكما؟

ارتبك عُمر، وتصبب العرق من جبينه بغزارة، وأخذ يفرك في أصابعه، أولاها ظهره، وهو يردد في نفي:

ـ ما من شيء يا عمتي، أظن بأنه حبك الشديد لنا جعلك تتوهمين بما هو ليس بحقيقة.

وبينما هي توشك أن تُجيبه، شهقت في قوة حين وقعت عيناه عليه، والعَصبة التي يربطها فوق رأسه، وهيئته المضطربة، هرولت نحوه، وسألته في خوف:

ـ كريم ... ماذا حدث؟ ولمَّ تضع تلك القماشة فوق رأسك؟ وكأن هناك جرحًا تُخفيه أسفلها، دعني أرى، لعل الأمر خطيرًا، ويستدعي الذهاب إلى المستشفى.

يمسك كريم بيديها الممتدة نحو رأسه في ضعف، وعينه غائرة بالدمع، اشتاق للمستها الحانية، التي كان يراها دومًا كالبلسم الشافي تُطيب جراحه، إلا أنه الآن قد بطل مفعولها، فاستاءت العمة كريمة من فعله، وعصف بها الحزن، وهي تلومه:

ـ أ لهذه الدرجة كبرت على عمتك؟ بل أُمك التي أحبتك أكثر من نفسها، وإن لم يحملك رحمها.

ـ ليس الأمر كذلك... فلا تظلميَّني أرجوكِ.

همس لها بخفوت، بينما هي أكملت في ألم:

ـ أقسى شعور قد يفتك بقلب الأم أن ترى ولدها موجوعًا، وهي تقف أمامه عاجزة، لا يُمكنها المساعدة، فلا تفعل بي ذلك يا كريم أرجوك، وأخبرني يا بني ما بك؟ أتوسل إليك.

سقطت أرضًا، وهي منهارة في البكاء أمامه، لطالما ارتشف هو وعمر من نهر حنانها، فهي ليس لديها أبناءً، وكانوا هم صغارها، كبروا في عنايتها، وتربعوا على عرش فؤادها، فما الذي تغير الآن؟ لتجد منه تلك المعاملة الفظة، وكأنها شخصًا غريبًا عنه.

ألقى كريم بنفسه أسفل قدميها، يعتذر منها في ندم شديد، والألم يعتصر داخل قلبه، قائلًا:

ـ سامحيني يا كريمتي أرجوكِ، تعلمين بأنك أقرب إنسانة إلى قلبي، ولم يسبق لي أن أخفيت عنكِ شيئًا، أنتِ مستودع أسراري، وبئر أمنياتي، فلا ألبث أن أشاركك بكل حلم، إلا أن الأمر ليس بيدي هذه المرة.

لم يُريحها حديثه، بل زاد قلقها أكثر، لتحتضن وجهه بين كفوفها الرقيقة، وهي ترجوه من بين دموعها:

ـ ما الذي يمنعك من إخباري يا كريم؟ هل هناك من يُهددك بشيء؟ لا تخشى عليَّ، فأنا سأكون بخير طالما أنت بجانبي يا حبيبي، أرح قلب أمك أرجوك، وأخبرها الحقيقة.

يهز رأسه في نفي، وهو يُجيب بصدمة:

ـ أي حقيقة تقصدين؟ أنا برئ أقسم لكِ لم أفعل شيئًا.

اعترى الخوف ملامحه، واصفر وجهه، ضم ركبتيه لصدره، وأخفى وجهه بينهما، ثم صاح في انفعال:

ـ أنا والله لم أفعل شيئًا ... ويا ليتني أستطيع معرفة ما حدث، التساؤلات تتأجج داخل رأسي كالبركان الثائر لا تخمد نيرانه، وهي أيضًا لا ترحمني.

ـ اهدأ يا كريم .. اهدأ يا بني أرجوك.

ساءت حالة كريم أمامها، وهي تُحاول أن تهون عليه، ليتكرر المشهد ثانية على مرأى عمر قبل قدومها، فأخذ يتلو عليه آيات من القرآن الكريم، لعل الطمأنينة تغشاه، ويسكن قليلًا، وبالفعل غشيه

النعاس بغتةً بعد مرور لحظات، فاستسلم له على الفور، ليتنهد عمر في أسى، وهو يزفر بتلك الكلمات:

ـ لا أدري حقًا أي ذنب ارتكبناه كي نُعاقب بهذه الطريقة؟

ربتت العمة كريمة على كتفه في حنان، ثم قالت بحكمة:

ـ أقدار الله نافذة يا حبيبي، ومع ذلك يجب علينا دومًا التشبث بالأمل، ورؤية الخير في كل ما يحدث لنا، ما زال هناك نصف كوب ممتلئ، ويا ليتني أعلم ما بكما؟ فأحمل عنكما كل ذلك الضرر، أنا فداءٌ لكم يا أبنائي الأعزاء.

ارتمى عمر في أحضانها، يلتمس منها الدفء، وهي تضمه بحنان، ثم مسحت على رأسه كما كانت تفعل في الصغر، ليسقط عن عقله كل ما يؤرقه، ويهدأ ضجيج الأفكار الذي يقض مضجعه، يا ليته ما كبر، بل لعل ذلك الحلم لم يتحقق، ولم يلتحقا بتلك الجامعة التي بدأت منها الحكاية برمتها، واستدعت لهم كل ذلك الألم، الذي لا حد له، ولا أحد يعلم حقًا متى ستكون نهايته؟

ـ سيكون كل شيء بخير يا بني، لا تقلق.

شددت العمة كريمة على يد عمر، وهي تهمس في أذنيه بتلك الكلمات، فهي لن تتراجع حتى تكتشف ذلك اللغز الذي يُخفونه عنها، بقلب أم ستبحث ورائهم، وبعقل عمة سوف تُجيد التصرف، كيف لها أن تتخلى عنهم؟!

*** * * ***

في إحدى المصحات النفسية..

الليل كالنهار، لا فارق بينهما بالنسبة للمقيمين هناك، بل على أصدق تعبير قد تكون العتمة هي ما يلاحظونه، وكأن ليل سرمدي قد أطبق بجناحيه على الأرجاء، فلا يسمح بنفاذ النور إلى قلوبهم، صراخ إحداهن يهز الأركان، ينطلق الرعب من بين نظراتها، لا تهدأ ثورتها أو يكف أنينها، تلفظ بكلمات غير مفهومة تبدو كالطلاسم أو الترانيم من لغة ما، وكأنما تستدعي مخلوقًا من عالم آخر، فتضرب رأسها في الجدار بقوة، وتسيل الدماء كالنهر الجاري، تتخضب بها الأرض من أسفلها، وتتشكل قطراتها على هيئة غريبة المنظر، ثم تسحبها قوة عجيبة نحو المرآة التي ظهرت من العدم، وإذ بدخان كثيف يخرج منها ثم تمثل أمامها شبحها، يُحرك الأشياء من مكانها، وتدفعها أرضًا في غضب وهكذا دواليك حتى تتكسر الأشياء عند ارتطامها، تُنثر شذراتها في الأرجاء، وشرار كالنيران ينطلق من سهام عيني الشبح، أحرقت قدميها، ففقدت اتزانها، وارتطمت بالأسفل عنوة، فتأوهَ الجسد قبل أن تُصرح بذلك الشفاه، وصُمت الآذان لوهلة حيث لم تحتمل وقع ذلك الصوت، وذَرفت مآقيها الدم عوضًا عن الدمعات، تتدفق بغزارة من المقلتين، ولا تستطيع إخماد تلك النيران الملتهبة، لن تخمد حتى تأخذ بثأرها.

ـ سامحيني يا سلمى .. ارحميني أرجوكِ، فأنا لم أعد أحتمل.

خرجت الكلمات منها في ضعف يشوبه الندم، فصاحت بها قوى الشر الحاضرة في المكان، وصدى وعيدها يُزلزل الأرجاء عند ترددِه:

ـ أرحمك! وهل أنتِ رحمتني؟ أقسم بأنني سأجعلك تشتهين الموت ولا يأتيكِ، ومهما فعلت بكِ فأنتِ تستحقينه، لم ترِ شيئًا بعد، وما هو قادم حقًا لن يصل بكِ المكر إلى تخيله، فتلك الحفرة التي أوقعتيني بها، لا بد وأن تشهدي ما حولتني إليه، وتتذوقي بعض من مرارها، لم أظن بأن الحقد موجودٌ حتى غدرك بي بتلك الوحشية، التي لا يحملها إنسان طبيعي، فاقبلي ما استحضرتيه بيديكِ، وجلبتِ به الهلاك لي ولكِ.

سكن الصوت شيئًا فشيئًا حتى اختفى، وكأنه لم يكن له وجودًا بعد ما صم ذلك التهديد آذانها، فأطبقت رضوى جفونها في استسلام، وغابت عن وعيها، تأتيها تلك اللحظات رأفةً بها حيث تفقد اتصالها بالحياة، فلا تستطيع قوى الشر من اللحاق بها، وإن كان الشعور بداخلها لا يرحمها، ويا ليتها ما انساقت خلفه من البداية.

جاءت الممرضة (سهام) من الخارج، ففوجئت بشذرات الزجاج في كل مكان، والأرض مُخضبة باللون الأحمر، وما من شيء في مكانه، انقلب شأن الغرفة رأسًا على عقب، وكأنه كانت هناك معركة دامية، فأشفقت عند رؤياها مُضرجة بدمائها، والجروح تكسو ملامحها، فما من جزء سليم في وجهها مع أجزاء مُتفرقة من جسدها، فروَّعتها وازداد رجيف قلبها، وظهرت بغتةً أمامها المرآة، وحين نظرت إليها، اتسع بؤبؤ عينيها في فزع، لم تر انعكاسها فيها، بل شهدت وجهًا مشوهًا نُزع اللحم منه، فبرزت عظامه، وأُقتلعت المقلتين من محجرهما، لتظهر التجاويف فارغة، وأُجتثت منه باقي الأجزاء، توشي بها بقاياها، كأنما تصرخ ببشاعة الأمر الذي حدث معها، وإذ بها تلتئم الأجزاء، ويكتسي اللحم ثانية، والتصقت العينين بحَجَاجُها، وبدأت معالم ذلك الوجه في الظهور شيئًا فشيئًا قبل تشوهه، صرخت سهام في مكانها حتى بح صوتها، فلا يسمعها أي إنسان، وكأنما ذهبت لغير المكان، سحبتها يد ما لداخل المرآة، وقد تعرفت على نفسها، كانت تلك صورتها القادمة.

ـ لا.. لا.. غير معقول.. هذه ليست أنا.. أنا لم أُخطئ بشيء، ولم أؤذي أي إنسان كي أُعاقب بهذا الشكل.

تهدج صوتها، وكانت آخر كلمات تلفظت بها:

ـ قولوا لي بأنها مزحة، ارحموني أرجوكم، آه .. آه .. قلبي..

لم تحتمل الصدمة، وكان الخوف كفيلًا لزهق روحها، فهي مريضة قلب، حمل قلبها حنان العالم كله، ولكنه كان ضعيفًا هشًا، عاشت طوال عمرها تُطيب الخواطر، وتداوي المرضى، خير نموذج بل أبهى مثال لملاك الرحمة يُحتذى به، فجاء رحيلها مُفجعًا، وجدوا جثتها مُعلقة أمام باب غرفة رضوى، وأمارات الخوف تحتل قسمات وجهها، وينطلق من عينيها، موشومة على جبهتها بكلمات، أفزعت قارئيها حيث جاءت تحمل لهم تحذيرًا، ورددها أحدهم بصوت عالٍ:

(إياكم والاقتراب من هذه الغرفة، سيلقى كل من يدخلها المصير ذاته، سأحصد أرواحكم الواحدة تلو الأخرى، فقد ألقيت لعنتي عليها).

قاموا بإنزال الجثة، واكتشفوا الطامة الكبرى، قلبها ليس بموضعه، وشُوه تجويف الصدر، حيث أُنتزع من داخله بوحشية، ولم يلحظوا ذلك وهي بالأعلى، حتى ليس هناك من آثار للدماء أسفلها، فشهقوا في استنكار، وأعينهم تتلاقى في هلع، المشْهَدُ مُّهِيبٌ، بل فوق مقدرة أي إنسان طبيعي على استيعابه، حتى وإن كان المكان الذي هم فيه، يُبصرون بداخله كل ما هو مريبٌ.

ـ ما زلت لا أُصدق ما حدث مع زميلتنا سهام ـ رحمة الله عليها ـ فوالله لقد كانت من خيرة الناس، أحبها الصغير والكبير، كانت آية من آيات الله في الرحمة، لم يسبق لها قط أن أساءت إلى أي مخلوق، لا يقتصر لطفها على بني الإنسان، كنت أراها تُطعم القطط والكلاب، تُشاركهم في طعامها بل أحيانًا تؤثرهم على نفسها، فمَن ذا الذي غدر بها بهذه القسوة؟

تفوه بتلك الكلمات الممرض سعيد في حزن، حيث قررت الإدارة التكتيم على الخبر، كي لا يؤثر ذلك على سمعة المستشفى، لترحل الممرضة سهام في صمت كما جاءت إلى تلك الحياة، ولكنه لم يكن بسلام، بل حُفر في أذهانهم، وكم كان وقعه قاسيًا! فزفر زميله (وحيد) في ضيق، وردد في أسى:

ـ والله يا أخي، عقلي يكاد يَجن، على الرغم من المواقف العصيبة التي تمر بنا في تعاملنا مع المرضى هنا، إلا أن ما تعرضت له سهام شنيعٌ للغاية، قلبي كاد ينخلع من بين ضلوعه عند رؤيتها بذلك الشكل، لا أطبق جفوني للنوم إلا وأشهده على مرأيَ، فأنتفض فزعًا، ولا يكف ذلك عن التكرار حتى زهدت الرُقاد، أتناول المنبهات طوال الليل كي أظل مُستيقظًا، فلا يدلف إلي ذلك المشهد المُريع ثانية.

السواد احتل تحت الجفون مع انتفاخ أحاط بهما، وأطل الاحمرار من بياض العين، وبرزت التجاعيد على امتداد وجهه، واصفر لونه وكأنما تجمد الدم في عروقه، ولم يكن سعيد بأقل حالًا منه، إلا أنه كان أقرب إلى الصدمة من الخوف.

قبل اليوم المشئوم بأسبوع..

تسير الممرضة سهام في خفة، وتلقي سلامها على الصغير قبل الكبير، تعامل الجميع بلطف، لا تُفارق الابتسامة محياها إلا أن العبرات ما لبثت أن ترقرقت في مقلتيها عند رؤياها، فتاة في ريعان شبابها، إلا أنها اكتسبت عمرًا فوق عمرها، وكأن الزهرة حين أوشكت أن تتفتح لم يمهلها الخريف، فأسقط كل الأغصان على الشجرة التي تحملها، لتَذبل قبل أوانها، تجلس قبالتها بالساعات، وتزفر في ألم:

-كم أنتِ مسكينة يا ابنتي! فوالله إنه ليصلني ألم الشعور بقلب والدتك، لطالما تمنيت أن يرزقني الله بالأبناء، وذرفت من الدمع الكثير، ولكن زوجي إبراهيم ظل يُواسيني ويخفف عني، حتى سبقني إلى الدار الآخرة منذ سنوات، أسأل الله أن يجمعني به عن قريب، وأشكره الآن على منعه، قلبي لم يكن

ليقوى على رؤية قطعة مني تعاني بهذا الشكل، وأقف أنا عاجزة كما يحدث الآن، ويا ليتني أعرف سبيلًا لمساعدتكِ، فقد احتار الأطباء للغاية في أمرك.

تُمشط شعرها الكستنائي، وتعيد ترتيب هيئتها، فقد كانت أقرب إلى الأشباح في طلتها، رضوى صاحبة البشرة المخملية ذات الوجه الممتلئ، والعيون الواسعة التي تَرى فيهما زُرقة السماء، وقد توشحت بلونها، مع شفاه رقيقة كانت لتمتد على اتساعها عند الابتسامة، وشابهها الأنف في دقته، فبدت ذات وجه طفولي، ولكن كَذبت تصرفاتها ذلك، صرخت في وجه الممرضة حين أحضرت لها المرآة، أرادت أن تجعلها ترى كم هي جميلة! ولا يليق بها الاستسلام لذلك التعب المجهول، فلا يستطيع الأطباء تشخيصه، وأخذت رضوى تُهذي بكلمات غير مفهومة، وما لبثت أن ضربت رأسها في الجدار خلفها حتى شجت رأسها بقوة، سقطت والدماء تسيل منها، فزعت الممرضة سهام من ردة فعلها، حيث باغتتها رضوى، وفي ثوانٍ قامت بإيذاء نفسها أثناء وجودها، فصدحت الممرضة بدورها كي تستغيث بزملائها في الخارج، وتم استدعاء الطبيب، الذي تعجب مما سمعه، فما علاقة تعبها بالمرآة؟ ولمَّ تهابها بذلك الشكل؟ كانت هادئة للغاية قبل إحضار الممرضة لها، فقال في حيرة:

-ضعي تلك المرأة جانبًا، لا تظهريها أمامها ثانية حتى أكون موجودًا، فأنا أريد أن أرى ما يحدث بمرأى عيني.

هزت الممرضة سهام رأسها في إيجاب، واستجابت لأمر الطبيب على الفور، وقامت بوضعها في الدولاب، صَعُب عليها حملها، فلم تنقلها إلى غرفة أخرى، وبدت علامات التعجب جلية على وجهها، كانت خفيفة للغاية حين وضعتها أمامها، فلمَّ حدث العكس الآن؟ وإذ بأحدهم يُناديها من الخارج، لتنشغل في مهامها، ولا تُلق بالًا لتلك الخواطر الغريبة، وكذلك الطبيب تعبت والدته فجأة، فغاب عن المستشفى باقي الأسبوع؛ لتنجح المرآة في نيل مرادها، وأهلكت القلب الذي تعاطف مع غريمتها.

طار الخبر المشئوم إلى الطبيب مسعود، صُعق عند سماعه وخاصةً بأنه وجد والدته بخير، ليست بمريضة أو أي شيء من هذا القبيل، وأنكرت اتصالها به حين سألها، قائلة:

ـ أنا لم أتصل بك يا بني، على الرغم من شدة شوقي إليك، إلا أنني أُقدر مدى انشغالك واحتياج المرضى إليك.

ثم استدعت الخادمة وحارس المنزل، ووجد منهم الإجابة ذاتها، فتعجب من الأمر، وكأن ذهابه بعيدًا عن المستشفى كان مُتعمدًا، تزاحمت الهواجس داخل صدره مع مختلف الأحداث، التي لا يجد لها تفسيرًا منطقيًا، وما لبث أن تذكر قول الممرضة عن المرآة، فعزم على الرحيل في الحال، لا يستدعي الموقف تأخيرًا، يخشى أن تكون هناك ضحية جديدة، يُحدق الخطر بالعاملين داخل المستشفى، إلا أن والدته حاولت ثنيه عن المغادرة قائلة في لوم:

ـ بهذه السرعة ستذهب وتتركني يا دكتور مسعود، لم ألبث أن رأيتك، لتَغيب عني في اللحظة ذاتها.

اقترب منها، وضم يديها بين كفوفه، يُقبلها، وهو يُردد في لطف:

ـ أعلم يا حبيبتي بأن الأيام التي قضيتها معكِ ليست بالكثيرة، ولكن لا حيلة أمامي، فالأمر جلل أقسم لكِ، جئت إليكِ على جناح السرعة عند تصديقي بأمر مرضك، وسعدت كثيرًا عند رؤية العكس، وأدركت حينها مدى تقصيري في حقك، وقولت في نفسي ما الضرر إن أخذت أجازة؟ أظل بها جانبك، إلا أن دوري كطبيب يا أمي وذلك القسم الذي عاهدت به يُحتم علي ألا أضع محبتي لكِ فوق احتياجات الآخرين لي.

ضمته إلى صدرها بحب، ثم ربتت على كتفه، وهي تنظر في عينيه أثناء تفوهها بتلك الكلمات:

ـ اذهب يا بني.. وقم بدورك، دعواتي معك، ويشهد الله بأنني راضية تمام الرضا عنك يا دكتوري الرحيم.

حضر شنطته، ولم ينتظر حتى الصباح، فودعته والدمع يترقرق في المقلتين، لا تقوى على فراقه، ولكن تصطبر على ذلك لأجله، لا تُريد أن تَشعره محبتها له بالقيد، لم تعترض منذ البداية على اختياره، وقفت خلفه تُشجعه وتعينه على تحقيق أحلامه، وكان غيابه عنها الثمن الذي اضطرت إلى دفعه كغيرها من الأمهات، التي تأخذ الأمنيات فلذات أكبادهم بعيدًا عن أنظارهم، وإلا شَكل وجودهم عائقًا عند الرفض.

ـ أريد جميع من كان حاضرًا وقت العثور على جثمان الممرضة سهام، وهل تم تشريحه أم لا؟

بنبرة حادة أمر الطبيب مسعود ضابط الأمن (إسلام) بالمصحة النفسية، فقد كان يُسارع الزمن للعودة مُسرعًا إلى مكان عمله، يقود سيارته على أقصى سرعة، وكأنه في سباق مع السيارات الأخرى، من دمياط الجديدة إلى القاهرة، وما أن وطأت قدماه داخل المستشفى، توجه على الفور إلى مكتبه، وما هي إلا لحظات، وكان الممرضان (سعيد ووحيد) أمامه، وعلامات القلق بادية على وجوههم، ثم سأله أحدهم في وجل:

ـ ماذا هناك يا دكتور مسعود؟ لقد أخبرنا زميلنا إسلام بأنك تُريد رؤيتنا في الحال.

ـ تفضلا بالجلوس.

أجابهم باقتضاب، وهو متمسك بهدوئه، لا يُريد أن يثير الرعب بين طاقم العمل، تلك الهواجس والتساؤلات المثيرة التي تعتمل داخل رأسه، مجرد شكوك حتى الآن، ولا بد له من التحقق جيدًا قبل التصريح بأي شيء، أطرق برأسه إلى الأسفل، يُفكر قبل التفوه بالكلمات، ويعمل جاهدًا على اختيارها بعناية، فسألهم في ثبات:

ـ كيف ماتت الممرضة سهام؟ لقد وصلني خبر وفاتها، وتعجبت كثيرًا، فقد كانت في خير حال.

نظرا لبعضهم البعض في ارتباك، غير معقول، حتى الأطباء أخفت عنهم إدارة المستشفى ما حدث مع الممرضة سهام، فأطبق الصمت على المكان، لم يتفوه أي منهم بأي رد، قد يُريح لبه، فأعاد عليهم السؤال بطريقة أخرى، فانتفض سعيد من مكانه، وهو يصرخ في استنكار:

ـ لا والله يا دكتور مسعود، كم كانت الممرضة سهام غالية علينا، وما كنا لنقبل أن يصيبها مكروهًا قط في وجودنا.

وأردف وحيد قائلًا:

ـ لقد وقع الأمر علينا كالصاعقة، فالممرضة سهام كانت سيدة مخمومة القلب، لم تؤذي حتى ولو نملة صغيرة، لتكون نهايتها مُفجعة بذلك الشكل.

ـ إذن فقد حدث الأمر في غيابكم، صحيح؟

تعمد الدكتور مسعود توجيه ذلك السؤال إليهم، ليُشعرهم بمدى تعاطفه معهم، وأنه يُقدر ما يقولون، يلعب على أعصابهم، فجاءت الإجابة التي انتظرها:

ـ كاد قلبي أن ينخلع من مكانه، وأنا أراها أمامي مبعثرة الأجزاء، كأن هناك من مَثَل بجسدها، وتجويف القلب فارغًا، انتزع أحن قطعة منها، لطالما أحب قلبها الجميع دون استثناء.

أجابه وحيد في انهيار، بينما قال سعيد في آسف:

ـ وعلى الرغم من كل ذلك، كتمت إرادة المستشفى على الخبر، ولم تسعَ خلف ذلك المجرم، الذي ارتكب تلك الجريمة الشنعاء في حق أكفأ العاملين لديها، ولم تتذكر لها أي فعل حسن قط...

ـ ولكنه ليس بإنسان طبيعي قط، لا بد وأن يكون وحشًا، بل أقرب إلى شيطان ماجن.

قاطعه وحيد، وهو يصرخ بتلك الكلمات، أخذ صدى صوته يتردد داخل الغرفة، يهز أرجائها، فوضع سعيد يديه على فم وحيد، الحيطان لها آذان، ثم جال ببصره يرقب المكان خشيةً من أن يسمع عليهم أحد، وتقوم إدارة المستشفى بعمل تحقيق معهم، وينتهي الأمر بهم مفصولين عن العمل كما توعدوهم بذلك من قبل.

ـ اصمت يا وحيد، ولا تقل شيئًا، لقد حدث الأمر وانتهى، وليس بإمكاننا أن نغير ذلك مهما حاولنا.

ـ ولكن بإمكاننا اكتشاف الحقيقة، وإنقاذ العديد من الأرواح الأخرى، فلا تُكرر مثل تلك الحادثة بينما نحن نتحدث.

صرح الدكتور مسعود بحقيقة مخاوفه أمامهم، وخاصةً بعد ما استشعر رغبتهم في التراجع، سينسحبون قبل كشف ملابسات الجريمة، التي أخفوها عن أعين الشرطة، فلم يصل إليهم بها خبرًا، ليتولى الدكتور مسعود ذلك الدور مع الممرضان (سعيد ووحيد) بعد ما أكد لهم مدى خطورة الأمر، فقد يكون أي منهما التالي.

بعد مرور ثلاث ساعات..

انتصف الليل، تدق الساعة الثانية عشرة صباحًا، فانتبه الدكتور مسعود إلى مرور الوقت، حيث كان مُنكبًا على الدفاتر، يراجع سجل المرضى داخل المستشفى، وكذلك الزائرين على الرغم من أنهم

يُعدون على الأصابع، فالمستشفى لا تسمح بدخول الأشخاص غير المرضى إلا في أضيق الظروف، يكونوا أقرباء من الدرجة الأولى كالأم والأب، فضرب الدكتور مسعود رأسه بكفه، وهو يقول في استنكار:

ـ غير معقول .. لا يوجد في تلك الدفاتر أي شيء مريب، مَن الذي قتلها إذن؟

ثم تذكر قولها ثانية، هب من مكانه واقفًا، وعينيه لامعة وكأنما عرف الجاني، لم يتوان لثوانٍ، وعلى الفور توجه نحو غرفتها، تأخر كثيرًا، الحادثة وقعت داخلها، ويظن بأن الأمر مرتبطًا بها، لم يشك للحظة بأن رضوى الفاعلة، الأمر يفوق مقدرتها، وحالتها يُرثى لها، وقف أمام الباب، ولم يستطع الدخول، دفعه شيْ ما كالرياح بعيدًا، أخذ المكان يدور ويدور من حوله، حتى اختلف المنظر، وشاهد انعكاسه عبر المرآة يبكي بانهيار، بينما ينظر إلى جثمانها القابع أمامه، ويصرخ باسمها في غير تصديق:

ـ أمي .. أجيبيني أرجوكِ، لمَّ تركتني بهذا الشكل؟ ومَن الذي تجرأ على فعل ذلك بكِ؟

يهز جسدها كالنائمة، لظنه بأنها ستستيقظ عند فعله ذلك، ولكن ما أن اقترب شهق في صدمة، الوصف الذي قاله أحد العاملين عن جثمان الممرضة سهام، يراه الآن رأي عين مع جسد والدته، وقد رحلت بنفس الطريقة هي الأخرى، وبدا ذلك كتهديد صريح له من المرآة للابتعاد عن طريقها، فهي لن ترحم أحدًا كما توعدتهم بتلك الرسالة التي وجدوها جوار جثمان الممرضة سهام، وحذرتهم من الاقتراب من غرفة رضوى.

ـ أمي.. أمي.. جاوبيني يا حبيبتي أرجوكِ، عودي إلى يا نوال، فمَن لي سواكِ يا نور حياتي.

أخذ يُهذي باسمها، ويُناديها من غير انقطاع حتى فزع من بالمستشفى، وجدوه في حالة هستيرية، لم يستطيعوا تهدئته أو السيطرة عليه، فما كان منهم إلا أن حقنوه بالمهدأ، فداعبت عينيه أشعة الشمس على استحياء من نافذة الغرفة التي قبع فيها لساعات، ولم يشعر بمرور الوقت، وسمع صوت ضجيج بالخارج، فقد اختفى الممرضان (سعيد ووحيد)، وليس لهم من أي أثر بين جدران المستشفى، فسأل عنهم في قلق:

ـ هل هما بخير حقًا أم قررت إدارة المستشفى التستر عن أمر مقتلهما؟

ـ ماذا تقصد يا دكتور مسعود؟ أنا لا أفهم شيئًا.

جاوبته الممرضة سهير في استنكار، ثم قالت في ارتباك:

ـ دكتور مسعود كيف هو حالك الآن؟، أخبرني أرجوك هل أنت بخير؟

نظر لها بشرود، وقال في تيه:

ـ كيف جئت إلى هذه الغرفة؟ ما الذي حدث لي؟، فأنا لا أذكر شيئًا على الإطلاق.

قصت عليه الممرضة سهير الحديث، ثم همست له:

ـ ارحل من هنا يا دكتور مسعود، أنت تبحث خلف جدار مسدود، لن تصل لشيء صدقني، بل ستجلب لنفسك المتاعب، والشر الذي ستستدعيه، لن تقوى حقًا على احتماله، فإن كان العلم نور، الجهل يُصبح أكبر نعمة مع أشياء تفوق استيعابنا، فمَن نحن لنتدخل في المكتوب؟ ونقف أمام إرادة القدر.

بدت وكأنها تتحدث بالألغاز، بل تُخفي خلف حديثها الكثير من الأسرار، فإن كانت تعلم الحقيقة، لمَّ لا تُصرح بها أمامه؟ فيطمئن لبه، ويرتاح ضميرها، إلا أن الأمر كان أبعد بكثير مما يتصور، كادت أن تخسر حياتها هي الأخرى، واقترب المشهد في عينيها بينما هو يسألها، وحدث ذلك عند دخولها الغرفة في اليوم التالي لمقتل الممرضة سهام، دخان كثيف يملأ الأرجاء مع سهام حارقة تنزل على جسدها، وصرخات كالصيحة الشديدة تدب الفزع في نفوس سامعيها، بل تكاد تخلع قلبها من مكانه، وشعرت باحتراق أنفاسها، تقترب منها، وهي ترفعها عاليًا، تُقربها منها، وتتوعدها في غضب شديد:

ـ إن اقتربتِ من تلك الفتاة ثانية سوف تنالين نفس مصير زميلتك، فإياكِ والاقتراب من هذه الغرفة.

ـ ارحمينى .. أ.. ر.. جو..كِ .. أنا لم .. أفعل شيئًا..

تتوسلها الممرضة سهير بصوت مرتعش، أوصالها ترتجف من شدة الخوف، ونبضات قلبها يعلو صوتها، وكأنما في سباق، تعدو بأقصى سرعة، فأخذت تلهث لالتقاط أنفاسها، وتحشرجت الكلمات داخل حلقها، لا يُسعفها أي رد فعل على الرغم من تدفق الأدرينالين بغزارة في جسدها، لم تستطع الهرب أو التحرك من مكانها قيد أنملة حتى، فلم تُصدق نجاتها، ومنذ هذه اللحظة أقسمت على عدم التدخل في تلك القصة ثانية، وإبعاد أي شخص تعرفه، كي لا ينل نفس مصير الممرضة سهام، فقد كانت الممرضة سهير هي من طلبت من الممرضان (سعيد ووحيد) الذهاب بعيدًا عن المستشفى دون إخبار أي أحد، والنجاة بحياتهم، وخاصةً بعد ما ذهبت لتلك الساحرة، التي حذرتها من الروح الشريرة التي تسعى خلف رضوى، لن ترحم أي مخلوق قد يقف في طريقها، وأعطتها تعويذة تُخفيها عن أنظارها، فكانت هي الوحيدة التي يُمكنها الدخول لرضوى دون أن يُصيبها مكروهًا، وأعطتها إدارة المستشفى راتبًا أكبر، بينما سافر الدكتور مسعود مع والدته إلى الخارج، كي يُكمل دراسته، جاءته رسالة القبول على المنحة التي لطالما انتظرها، فطار بها فرحًا، ولكن لم يستطع تجاوز تلك الرؤيا، تركت بداخله أثرًا لا يُمحى، كان قاسيًا عليه للغاية تحمل ذنب مقتل والدته بسبب فضوله، وهي أغلى إنسانة على قلبه ـ لن يُفارقها ثانية ـ فمرت اللحظات التي شهدها كدهور في ثقلها.

ـ إلى اللقاء يا دكتور مسعود... أسأل الله أن يرزقك بداية جديدة من هناك.

ودعته الممرضة سهير بتلك الكلمات، وهي تلوح له، فقد لحقت به إلى المطار، كي تتأكد بنفسها من ذهابه بعيدًا، فلا يفتح قط الحديث ثانية في تلك الواقعة، ولا يسعى لكشف الغموض خلف تفاصيلها، بينما استسلمت هي لقدرها مع الروح الشريرة داخل الغرفة.

-٢-

انطلاق الشرارة

أطبق الظلام بجناحيه، واستحي القمر من الظهور بتلك الليلة، يُمهد لها السُبل، وكأنه قرر الانتماء إلى صفها، فما شهدته تألم له أهل السماء، ولم يقو على احتماله ساكني الأرض، كريم يجلس في مكانه شاردًا، وناء به الذنب إذ أثقله، لم يتنبه لمرور الوقت، وبينما كان مشغولًا بها، جاءته وشرار الغضب يتطاير من عينيها، وكأنه استحضرها بأفكاره، فزلزت أركانه في حنق يُشوبه اللوم:

-لماذا يا كريم؟ لمَّ فعلت ذلك بي؟ وقد أحببتك، قبل أن أعرفك خشيت الحب، ولكن ما أن رأيتك لم أنج من سحر عينيك، فتغير مذهبي، وذهبت مخاوفي طي النسيان.

انسلت العبرات من عينيه، ولم تتحرك شفاهه، لا تسعفه الكلمات لقول شيء، فجعه رحيلها بعيدًا عنه، وما زالت حادثة موتها تُمثل لغزًا غامضًا، لا يهديه عقله لفك شيفرته، ولا يقوى على النظر إلى الحال التي وصلت إليها بسببه، ما أسوأه من حال حين تكون أنت الساطور الذي يشطر القلب الذي أحبك إلى نصفين.

-انظر إلي هنا.. تحدث معي أيها المخادع.

نهرته في انفعال، ثم دفعته في قوة على وجهه، فسالت من جبهته الدماء، ونزف أنفه، كانت كالبركان حين يثور، يلتهم في طريقه كل ما يجده، فلا يُبقي على شيء الأخضر واليابس أمامه سواء، تأججت النيران داخل فؤادها المبتور، فأكلت ما كان جميلًا، وخلفت الدمار والخراب، تفحم عن بكرة أبيه، فتشعب السواد كالسرطان في جميع أجزائه؛ لتتحكم بها قوى الشر، فهي ضحيتها منذ البداية.

ردد في ضعف:

-يا ليتني أنا الذي مُت يا وردتي .. بائس هو حظي حين كدت أن أظفر بحبك، فقدتك إلى الأبد..

هدأت العاصفة، وسكنت الأصوات من حوله، فارقت روحها المكان من فورها، كما غادر جسدها دون سابق إنذار، وإن كان حاضرًا لسَارت به قشعريرة عند سماع تلك الكلمة، التي لطالما طربت أُذنيها، تشدو بها فرحًا، فارتد الألم في صدره من وقع الذكريات الأليمة، التي أومضت في حافظته، تعود به إلى اللقاء الأول الذي جمعه بها، وانطلقت شرارة الحب.

قبل ثلاث سنوات..

تشتد الظهيرة فتلتهب الرمضاء، وتلتحف الأرض بتلك الحقول الزراعية التي تتحدث ببهاء عن جمال الطبيعة وروعة إبداع الخالق، على الرغم من جفاف المناخ وسطوع الشمس طوال العام، حيث يَطبع على ذلك المكان الجو الحار الصحراوي، إلا أن ذلك لم يقف ذلك حائلًا أمام زيادة الرقعة الخضراء، التي تُعد متنفسًا حيويًا، فطبيعة جنوب الوادي هي مزيج متناغم بين الصحراء

والزراعة الخضراء، بين الجبال الشاهقة ونهر النيل الخالد، تميزت بجمال فطري فريد مع وجود العديد من الواحات الصغيرة التي تُضفي سحرًا خاصًا على المناظر الطبيعية إلى جانب الكثبان الرملية والتضاريس الصخرية المثيرة، تسير سلمى مشدوهة بروعة التفاصيل، فتخيلت نفسها، وقد وصلت إلى ذلك الحلم، الذي قطعت لأجله كل تلك المسافة، تحمل الكاميرا الخاصة بها، وتلتقط بها بعض المشاهد الخلابة، التي ترى بها الدنيا وكأنها تتراقص أمام عينيها من بهاء المنظر، وهي ترنو إلى الأفق الجميل، لم تنتبه إلى السيارة القادمة من خلفها، وكذلك كان هو مشغولًا في الحديث عبر هاتفه، وما أن التقت الأعين خرجت منها صرخة قوية، بينما اتسع بؤبؤ عينيه في ذعر، يُحاول تفاديها قدر استطاعته، ولكن الوقت لم يمهله، وتم الاصطدام.

ـ هل أنتِ بخير؟

تُباعد سلمى بين جفونها بصعوبة، والرؤية ليست بواضحة بعد أمام عينيها، لا يبدو الصوت مألوفًا بالنسبة إليها، ولا تتذكر الكثير، لم تشعر بشيء إلا وهي تسقط أرضًا، والكاميرا بين يديها انفصلت أجزائها وتكسرت رغم محاولاتها المستميتة كي تُحافظ عليها، إلا أنها ما لبثت أن فقدت وعيها كليةً، والآن هي في مكان غريب لا تعرفه، ليُصبح أول يوم لها في الغربة لا يُنسى.

عيون تترقبها في خوف، ونبرة تُقطر أسى وندمًا:

ـ أنا آسف .. سامحيني أرجوكِ.

بدأت الغشاوة على عينيها تنجلي، اقتربت الصورة، وتبينت ملامحه، شاب ذو بشرة بيضاء لوجه مستدير، يعلو جبهته شعر أسود ناعم تتدلى بعض خصلاته على إحدى الجانبين مع العرق الذي يتصبب بغزارة من الجبين، تكحلت عيونه الواسعة بسواد الليل، خدوده ممتلئة، ونما بعض الشعر في ذقنه الدائرية، فزاده جمالًا وبهاءً، تفرست في ملامحه، والصمت يسود بينهما، ليفعل هو الآخر مثلها بدوره.

(يا تُرى ما هو اسمك؟ ولمَ أشعر نحوك بانجذاب غريب؟)

تدور الهواجس في خاطره، تشتعل الأسئلة، وقد سحرته الفتاة التي على مرأى من عينيه، أسيلة الخدين، جميلة المحيا، دقيقة الجسم، كانت تبدو في خفة الفراشة حين حملها، وهرول بها إلى المستشفى، لا يعلم حقًا ما أصابه ما أن التقى بها، وما زالت هي مستأثرة بالصمت، فيجهل الكثير عنها، ولا يعرف كيف يعتذر منها؟

ـ أين أنا؟

سألته سلمى بتوجس، فنظر لها بلهفة، وقد انطلقت الكلمات من ثغرها، للمرة الأولى يسمع صوتها، احمرت وجنتيها خجلًا، لا يُخفى عليها رهافة حسه، علقت نظرها بالأرض، بينما أجابها في لطف:

ـ الحمد لله على سلامتك أنستي.. أنتِ هنا في المستشفى.

ـ المستشفى! ما الذي حدث معي؟ أنا لا أتذكر شيئًا.

اعتذر منها في رفق بالغ، وما كاد يختم حديثه حتى أخرجت المرآة من جيبها في هلع، تتفحص معالم وجهها من خلالها، وقالت بصوت يفيض حزنًا ولوعة:

- والله لم أقصد إلحاق الضرر بكِ يا عمتي نور، أردت أن أعد لكِ مفاجأة لعيد ميلادك، كيكة الشوكولاتة التي تُفضلين، وعلمتني أمي كيف أُحضرها، فدلفت للداخل، خلطت كل المكونات، ثم ذهبت لأنادي أمي لتُشعل الفرن لي، إلا أنني تركت الغاز مفتوحًا، وفي تلك اللحظة وكأن الجوع قد استدعاكِ، وما أن هممتِ بإشعال الموقد، انفجر في وجهك، فأصبحتِ فتاةً مشوهةً، يشمئز من هيئتها كل من يراها، حتى الشخص الذي أحبته، وكادت أن تُزف إليه بعد أيام، صَدَّ عنها.

بكت سلمى بهستيرية، وهي تُردد من بين شهقات الدموع:

- ما زلت أعيش تحت وطأة الذنب يا عمتي نور، رغم كوني حينها لم أتجاوز العشر سنوات، إلا أن ذلك المشهد والله لا أنساه، وأتذكر كيف هشمتِ تلك المرآة التي أبصرتِ من خلالها الحقيقة، وبشذراتها أظلمت شمس الحياة.

كان وقع الكلمات قاسيًا عليه، فكيف بمن عايشته وسيطر عليها بشدة حتى الآن، تمنى لو بإمكانه أن يخفيها في صدره، فيحمل عنها كل تلك الهموم والأحزان، ويتوارى ذلك المشهد عن مخيلتها، فلا يصل قط إلى عقلها.

جاء الطبيب، ومن خلفه الممرضات للاطمئنان عليها، هالهم الموقف، تحتضن المرآة بين كفوفها، وتلصق وجهها بها، نحيبها في ازدياد، تصرخ في هياج شديد، وتقاطعها شهقات البكاء:

- لا تشوهيني يا عمتي أرجوكِ .. لا ذنب لي فيما حدث.. أقسم لكِ..

يحاول كريم في حذر أن يفلتها من بين يديها، التي ترتعش في خوف، ومن شدة ضغطها على المرآة، تكاد أن تتكسر فتُغرس شذراتها في عظام الوجه، ليكن ما تخشاه.

-اهدأي يا أنستي أرجوكِ.

ما زال يجهل اسمها، على الرغم من أن شعوره يُحدثه بأنه يعرفها، وكأنه التقى بها من قبل، همس لها في حنان، ذكرتها طريقته بوالدها، لم تلبث أن غادرت بعيدًا عنه، حتى رزءتها المصائب من كل اتجاه، وعاد لها الماضي بكل عنفوانه.

- لا تتحركي أرجوكِ .. كل شيء سيكون بخير، فأنا جوارِكِ.

غَربُ الرَّوْعُ عنها، وانقشعت غمامة الخوف، فتكفف الدمع، وهي تُشاهد غرة الحب في عينيه، لتنطلق الشرارة الأولى، وهتف الحب بنبض القلب.

-سلمى! هل يُمكنني أن أطرح عليكِ سؤالًا؟

يسألها الطبيب بعد ما أخبرته باسمها، وهو يفحصها، فأجابته بتردد:

-تفضل.

لم يُخف عليه قلقها، إلا أنه أراد حقًا أن يُساعدها، هناك أمر ما غير طبيعي، وتسللت الريبة إلى قلبه عند رؤيته لمدى تعلقها بالمرآة، فمزح قائلًا:

- أعلم بأن الفتيات مهوسات بجمالهن، ويُشعرن بسعادة بالغة عند النظر إلى المرآة، ولكن ما رأيته اليوم غريبًا عليَّ للغاية، وكأن هناك شبح مُخيف تُبصرينه خلالها، فلا يسمح لكِ أن تنعمي بسلام، لقد كدتِ اليوم تؤذين نفسك لولا تدخل هذا الشاب.

نظرت حيث أشار بيديه، فارتدت إليها نظرات الخوف المنعكسة في عينيه، لا تدري حقًا هل تشعر بالحنق عليه أم الامتنان؟ ولكن، ما لبثت أن انفعلت عند تذكرها:

- كاميرتي .. أين هي كاميرتي؟ لقد كانت آخر شيء أحمله في يدي، ورأيتها تسقط أرضًا.

ثم شهقت في قوة، وهي تضع يدها على فاهها:

- غير معقول .. لقد ذهب حلمي هباءً، وضاع كل ما التقطته سدى.

وجدتها على الكرسي جوار سريرها، ولم يبق أي جزء منها على حاله، تلك الهدية الغالية التي أحضرها لها والدها بعد عناء، وعادت بها الذاكرة إلى الوراء، تستعرض أمامها كيف وصلت إليها، واقترب المشهد كثيرًا كأنه يحدث الآن.

- سلمى .. يا سلمى .. أين أنتِ يا حبيبتي؟

تجلس سلمى في غرفتها حزينة، عيد مولدها اليوم، ويبدو بأن جميع من بالبيت ينسونه، لم يُعايدها أحدٌ، ويرتجف قلبها خوفًا من ظهور النتيجة، تحمل صورة لإحداهن في يدها، وهي تُردد في ثقة مملوءة باليقين:

- بالغد سأصير نسخة عنكِ يا بطلتي الجسورة، كم أتحرى شوقًا لتلك اللحظة التي أصل بها إلى حلمي! وأقف كما فعلتِ جوار الحق، لا تخافين في الله لومة الله.

ثم انسلت دمعة من عينيها، وهي تُردد اسمها في تأثر:

- شيرين أبو عاقلة .. رحمة الله عليكِ يا فخر النساء.

شعرت بحرارة أنفاس بجانبها، هناك شيء ما ينظر إليها من المرآة في غرفتها، ما زال شبحها يلحق بها، تُريد الانتقام، فلا تغفر لها خطؤها في الماضي، كانت صغيرة للغاية، بعض الآثام لا يخف جُرمها رغم مرور السنوات، تسمرت سلمى في مكانها، لم تتحرك قيد أنملة، تتحاشى النظر في المرآة، ولا تُلقي بالًا لما يدور حولها كما أوصاها الطبيب، حيث أنها كانت على حافة الجنون، ترى وجهًا مشوهًا عبر المرآة، وصراخ قهري ينفذ من خلالها، يكاد أن يُصيبها بالصمم، لينتشلها من سطوة تلك الهواجس صوتها الحنون، تُناديها مرة ثانية، وقد اقتربت:

ـ سلمى، حبيبة ماما، لمَّ لا تُجاوبينَّي؟

انتبهت إليها سلمى، وهي تحتضنها مع طبع قبلة حانية على خدها في حب قائلة:

ـ قلب ماما، كل عيد وأنتِ عيدي يا مُهجة القلب ونور العين.

صاحت سلمى في فرح:

ـ إذن أنتِ تتذكرين يا أمي.

ـ وكيف لي أن أنسى عيد ميلاد ابنتي الحبيبة؟!

نظرت لها بنصف عين، وهي تُردد بلؤم:

ـ كنتِ تتلاعبين بي إذن يا أمي، ماذا عن أبي وأخي؟

لم تُكمل سؤالها حتى وجدتهم بالغرفة، يُحيطون بها من الجانبين، وذراعهم يضعونها بالخلف، أعدوا لها مفاجأة سارة، لم تتخيلها قط، ألقى عبدالله بجسده عليها، يُقبل خديها، وهو يهتف في سعادة بالغة:

ـ أختي الرائعة كل عام وأنتِ حبيبتي وأختي وصديقتي، أحبك يا ماما.

لامست جملته الأخيرة أوتار قلبها، فعزفت أنغامًا وألحانًا، تُطرب سمعها، جاءها بعد طول انتظار، بقيت وحدها لأعوام حتى قُرت عيناها برؤياه، تولت رعايته مع والدتها، وربته كابن صغير لها، فكل فتاة هي مشروع أم قادمة، وفُطرت على ذلك منذ نعومة أظافرها، ضمته في حنان، ثم جاء دور والدها، الذي قبل رأسها بحب، ظهر جليًا في نبرته:

ـ عيد ميلاد سعيد يا ابنتي الحبيبة، بارك الله لي فيكِ ورزقكِ بأعوام عديدة.

ـ بابا حبيبي، أدامك الله لي يا نور حياتي.

التف ثلاثتهم حولها، حضن عائلي مُدهش يغمره الحب والحنان، وما أن انفتحت الدائرة، فرغت فاهها في ذهول، وهي ترى والدها يحملها بين يديه، بينما حملت والدتها التورتة، وأحضر عبد الله الشمعات، يضع الواحدة تلو الأخرى في كيكة عيد الميلاد، ثم جمع عددهم في فُكَاهَة:

ـ ثمانية عشر شمعة يا سلمى، كم شمعة أخرى سنضيفها حتى نراكِ عروسًا؟

وكزته في ذراعه، ولوت شفتيها في لوم، فداعب وجنتيها ممازحًا:

ـ لا تخجلي يا أختي، فأنا على استعداد لأتزوجك أنا ما لم يأت ذلك البطل كي يظفر بكِ.

ركضت سلمى خلفه، فطار مسرعًا من أمامها حتى توارى عن أنظارها، أخذت تلهث لالتقاط أنفاسها، وقد لحقت به إلى أسفل السلالم، ووصلت إلى الباب الخلفي للفرن الخاص بوالدها، حيث افتتحه في الدور الأرضي، ولكن، ما أن دلفت داخله صرخت بأعلى صوتها، حيث اندلعت النيران بين الجدران، وثارت كالبركان، تلتهم كل شيء في طريقها، وصوت غليظ من خلفها يتوعدها بأنها

ستنال المصير نفسه، وأبصرت وجهها مشتعلًا من خلال المرآة، أخرستها الصدمة، فلم تخرج كلمات الاستغاثة من حلقها، وسقطت مغشيًا عليها في مكانها.

ـ هل أنتِ بخير يا سلمى؟ لمَ أنتِ واجمة بذلك الشكل؟

تنظر لوالدها في استنكار، وقد أظلمت الدنيا من حولها، مرت ساعات عدة، لم تشعر فيها بأي شيء، فقد كاد أن يحتفلا في وضح النهار، والآن أطبق الليل، فرددت في ضعف:

ـ لقد أحرقتني النيران يا أبي، وتشوه وجهي، فابعدوا كل المرايا عن ناظري، لا أريد أن أموت كما رحلت عمتي نور.

نظر والديها لبعضهم البعض في استغراب، فكم كانت سلمى صغيرة عند تلك الحادثة! ولمَ تتفوه بذلك الآن؟ والطبيب أخبرهم من قبل بأنه مع الأيام ستُمحى تلك الواقعة الأليمة عن ذاكرتها، أخذ يُعالجها لسنوات منذ ذلك اليوم، طرقت باب الأطباء النفسيين دون أن تفهم حقًا ما يحمله ذلك المصطلح، بينما كان الأطفال في سنها يمرحون ويلعبون، كانت صرخاتها لا تهدأ، ولا تتوقف عيناها عن ذرف الدموع.

ـ حبيبتي سلمى .. أنتِ بخير يا فتاتي.. لم يحدث لكِ شيء.

تهز سلمى رأسها في نفي، ويُخالط نبرتها البكاء، وهي تُجيب:

ـ لا تكذبي علي يا أمي، أنا أعلم الحقيقة، عمتي لن ترحمني حتى أصير مثلها.

ملست على شعرها في حنو، وهي تتلو عليها آيات من كتاب الله، فذهب الانزعاج عن قسمات وجهها، ارتخت وهدأت أعصابها، ثم تسلل النوم إليها، وقد غشيتها السكينة، وحلقت فوق سمائها الطمأنينة، وما أن استيقظت في اليوم التالي وجدت تلك المفاجأة السارة، التي أدهشتها، وجوارها خطاب إليها، فتحته فكان كالتالي:

(ابنتنا العزيزة سلمى .. حبيبة الفؤاد، وأول ما رأت العين، يعلم الله مكانتكِ الغالية لدينا، وكم فكرت كثيرًا أنا ووالدك ماذا نهديكِ؟ وقد كان مجيئك بمثابة الجائزة الكبرى، بل رزق عظيم تفضل به الله علينا، فكان في فرحك سعادتنا، وإن اقترب الحزن منكِ شقوتنا وألمنا، ولذلك لا نعرف الشعور إلا من خلالك يا أغلى ما في حياتنا، لقد ادخرت أنا وأبيكِ المال لسنوات حتى استطعنا شراء تلك الكاميرا لأجلك، ولا ننسى مساعدة أخيكِ عبدالله، نعلم بأنه لا يكف عن مداعبتكِ، إلا أنه كان صاحب الفكرة من الأساس، من اقترحها علينا، ونرجو الله أن تعجبك يا مراسلتنا الرائعة).

ترقرقت العبرات في عينيها أثناء القراءة، وما أن انتهت فوجئت بعبدالله يَمُد لها منديلًا كي تُجفف دمعها، ثم وضع الكاميرا بين يديها في زهو قائلًا:

ـ لعل الآن تعلمين كم أنا أخيكِ رائعًا! وأن الكِبر لا يُقاس بالسنوات، فكم احتار أبي وأمي في هديتك، وكنت أنا من اقترحت هذه الفكرة، وكسرنا الحصالة التي حفظت لنا ما وضعناه داخلها منذ أعوام.

تبسمت سلمى في سعادة بالغة، وطبعت قبلة على جبينه، وهي تشكره:

ـ بارك الله لي فيك يا أخي الغالي الحبيب، رغم كونك تصغرني بأعوام عديدة، إلا أنني في مواقف كثيرة أراك أكبر مني يا ذو العشر سنوات، أدامك الله سندًا لي حتى آخر العمر يا عبدالله.

التقطت سلمى مع أخيها العديد من الصور بوضعيات مختلفة، فهي مهووسة بكل ما له علاقة بسرد الحكايات ونقلها، حيث تُخلد ذكرانا فيما بعد، ولأجل ذلك تمنت من شغاف قلبها أن تلتحق بكلية الإعلام، فكانت تدعو الله في كل سكنة وحركة أن يجعل لها نصيبًا بها، ويأتي المجموع في صفها، كانت تخشى ألا يُنصفها، فهو كالسلاح ذو حدين، يجبر البعض منا، بينما يكسر بخواطر الكثيرين، لتتشكل أحلامًا وتُقتل أخرى في مهدها، بالإضافة إلى خوف والديها المُبالغ فيه، أحبونها حُبًا جمًا، فأفرطوا في التعلق بها حتى ضيقوا عليها الأنفاس، لا تبتعد عن ناظريهم قط، فكيف سيسمحون لها بالذهاب بعيدًا عنهم؟، بل بالإقامة في بلد غريب، إلا أنها أخذت تدعو الله على أمل أن يلطف بقلوبهم، فينجلى عنهم ذلك الخوف، ويتغير المشهد كليةً لأجلها.

ـ سأنزل لمساعدة أبي في المخبز يا سلمى، هل تُريدين شيئًا أحضره لكِ من هناك؟

ـ أريد سلامتك يا أخي، بضع دقائق وسألحق بك إن شاء الله.

نزل عبدالله السلالم على عجل، كي يقف جوار والده في مكان عمله، يُساعده في إعداد المخبوزات، فقد ورث منه ذلك الشغف، يقضي ساعات طوال واقفًا على قدميه دون كلل أو ملل، وكل يوم يُبدع بوصفة جديدة من اختراعه، فيزداد تدفق الأشخاص من كل حدب وصوب لأجل شراء المعجنات الشهية المميزة، التي تخترق رائحتها الأنفاس، وتسرق الألباب من مكانها، حيث تُعيد إليها أصوات الذكريات السعيدة، والجدات تخبز في الماضي العجين ببنانها الرقيقة، وتضيف إليه نكهة مميزة بطعم الحب.

ـ كم هي شهية يا أبي! أكاد أكل أصابعي من شدة طعامتها.

صاح عبد الله في حماس، فألقى والده عليه دُعابة مازحًا:

ـ بل الفم الذي تذوقها هو الرائع يا حبيبي، ويحمل أقوى مكون، من دونه لن تكتمل الوصفة، وتخرج مضبوطة بهذا الشكل الذي تراه الآن.

نظر له عبد الله في غير فهم، وسأله في استغراب:

ـ ماذا تقصد يا أبي؟ أي مكون قد أحمله داخل فمي؟

عَلَت الابتسامة ثغر والده، وأجابه في لطف:

ـ يبدو بأن دعابتي أثارت لديك العديد من التساؤلات يا عبدالله.

هز عبدالله رأسه في إيجاب، بينما أكمل والده في ثقة:

ـ هذا هو سر تميزنا يا بني، فكل وصفة تحمل جزءًا من داخلنا، تمتزج مع حالتنا الشعورية وإحساسنا، وتختلط كل تلك المكونات كي تُعبر عنا، فتجد مكانها داخل القلوب مباشرة.

بدا والده وكأنه يقول أحاجي، لا يستطيع عبدالله حلها، ولكن والده أكد له بأنه سيكتشف كل شيء في الوقت المناسب، ولكن ذلك لم يُرض فضوله، وهمَ بطرح سؤال آخر على والده، إلا أن سمير صديقه قاطعه بدخوله، وهو يصرخ به قائلًا:

ـ عبدالله .. أنت ما زلت هنا.. لمَّ لم تأت في ميعادنا؟ لقد انتظرتك أنا وزملائنا لساعة كاملة في الملعب، ولم تظهر قط، فما الذي أخرك بذلك الشكل؟

نظر له عبدالله في آسف، ظهر في نبرته:

ـ سامحني يا سمير.. لم أقصد التأخير عنكم يا صديقي، ولكنني حقًا أحب تواجدي كثيرًا داخل المخبز، فلا أشعر بمرور الوقت.

ربت سمير على كتفه، وقال متفهمًا:

ـ لا بأس يا صديقي.. يبدو بأن حب الطهي يجري كالدماء في عروقكم، وسوف يكون هناك شيف جديد في العائلة.

ضحك الأستاذ منير عند سماعه، وتدخل في زهو قائلًا:

ـ معك حق يا سمير، فتاريخنا في الطهي عريق للغاية، ولنا بصمة مميزة تختلف عن أي خباز أو طباخ، فقد جمع أفراد عائلتنا الشغف ذاته، وصرنا نفعل الأشياء بحب.

ـ وأنا أيضًا يا عمي أُحب كرة القدم كثيرًا، وأتمنى أن أصير لاعبًا مشهورًا.

ـ جميل هو الحب، فهو الوقود الذي يُحركنا ويجعلنا نسعى للوصول إلى أحلامنا.

اختتم عبدالله الحديث بعبارته، وتعجب من تأخر سلمى عليه، قالت بأنها ستلحق به، إلا أنها لم تُغادر غرفتها، فقد انغمست في تفحص مشتملات الكاميرا، وشُدهت حين وجدت بها خاصية لطباعة الصور على الفور، فضغطت على الزر المخصص لذلك في لهفة، تتشوق لرؤية ما صنعته الكاميرا لها من ذكريات مع أخيها، ستُفاجئه دون شك، إلا أن عكس الشعور كان من نصيبها، حيث فُزعت مما رأت، يهز صراخها الأرجاء، فانتفض لنجدتها من في البيت.

ـ لا .. لا.. لا تُشوهيني يا عمتي نور، كم كنت أُحبك! فلا تُعاقبينِّي أرجوكِ بذلك الشكل.

وجدوا سلمى في حالة يُرثى لها، متقوقعة على ذاتها خلف سريرها، تُخفي وجهها بين كفوفها، تُعيد تلك الكلمات في هستيرية، مما أوجع فؤادهم، وكان لوقع اسم العمة عظيم التأثير عليهم، وبالأخص والدها الذي لم يجد أمامه من سبيل سوى الاستعانة بذلك الطبيب، وأخذ صدى كلماته يتردد في أذنيه:

"ابنتك سلمى بحاجة إلى مصحة نفسية، فتلك الهواجس والهلاوس النفسية قد تودي بها إلى إيذاء نفسها في أحد الأحيان، ويحدث ما لا يُحمد عقباه".

يهز رأسه في نفي، بينما هو ذاهب للاتصال به، سيفعل أي شيء لمساعدتها باستثناء ذلك، لا يحتمل فراقها للحظة، فكيف بتركها في مثل هذا المكان، وما له من سطوة في النفس عند سماعه، انسلت العبرات من مقلتيه، لم يقو على حبسها، لتُخالط نبراته البكاء عند الحديث:

ـ ابنتى سلمى انتكست ثانية، من فضلك تعال إلى هنا في أقرب وقت.

أغلق معه الخط، ثم عاد إلى غرفتها ثانية، فما لبث أن استجاب الطبيب لندائه، ما بين طرفة عين وانتباهتها كان أمامه، فهو يقطن في العمارة المجاورة، أخرج المهدأ من حقيبته، حقنها به، ثم لحق به للخارج، فقال والدها في صوت مؤثر، وكأنما تستعطفه نَبرته:

ـ أ ليس هناك من حل آخر؟ حرام عليَّ أن أُضيع شباب ابنتي بذلك الشكل، كالوردة المتفتحة في ربيعها، فلمَّ تُريد مني استدعاء الخريف على عجل؟ وتسقط كل الأوراق بلا رحمة.

أجابه الطبيب بنفس النبرة، فقد لامسته الكلمات:

ـ صدقني يا أستاذ منير، أنا أشعر بك، وأعلم كم هو قاسيًا على أب حنون مثلك فعل ذلك! إلا أنني والله لا أريد سوى مصلحتها، ولعل تدخلنا الآن بذلك الشكل، يحفظ عليها الباقي من شبابها.

أطرق الأستاذ منير برأسه إلى الأسفل، صمت لبرهة يُفكر فيما قاله، ليهز رأسه في استسلام، وكلماته تُقطر حزنًا وألمًا:

ـ لتكن إذن مشيئة القدر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

استأذن منه الطبيب، ورحل تاركا إياه بادي الوجوم، يسير بخطوات متثاقلة، دخل عليها وهو حزين متألم، تَصَببت المياة المؤلمة من نبعها، علها تغسل عنه بعض همومه، ولامست وجنتيها، فشعرت بأنينه بينما هو يُفضي إليها:

ـ ابنتي العزيزة سلمى، لا أستطيع حقًا أن أصف لكِ مقدار سعادتي عند رؤيتك يا حبيبتي، ولم ألبث أن حملتك بين يداي حتى دُرت عليَّ الخيرات من كل اتجاه، كنتِ وش السعد على أبيكِ كما يقولون، فكم ضاق بنا الحال قبل مجيئكِ، وما أن أذن الله بقدومك، استبشرنا خيرًا، وقد كان، فلمَّ تبدل الحال الآن بقسوة؟ ذبلتِ أمام عيني، بينما أقف عاجزًا، يُمزق الأسى نياط قلبي، ولا أحتمل رؤية معاناتك، فيا ليتني كنت مكانك.

أخذ يسعل دون توقف، اشتد عليه البكاء، وشعر بالاختناق، وكأنما أطبقت فوق صدره جدران الغرفة، فجاءت زوجته من الخارج عند سماع صوته، تربت برفق على ظهره، وتحاول أن تُخفف عنه ما يُكابده، فقالت مواسية:

ـ هون عليك يا أبو سلمى، لا بد وأن تراك سلمى ثابتًا، كي تستمد منكِ القوة، ستنجلي هذه الشدة كغيرها، وكلها أقدار الله، لن يُصيبنا إلا ما كُتب لنا، فاللهم رحمتك نرجو يا رب، لا تحوجنا لأحد سواك.

تُجاهد سلمى لفتح عينيها، أَلمها كونها السبب في عذاب والديها، فاتخذت على نفسها عهدًا، وطلبت من الله العون في محنتها، منذ اليوم لن تنساق خلف ما تلقاه، ولن يشعر أحد بمعاناتها، ذلك الوجه المشوه الذي يلحق بها جراء خطؤها في الماضي، ولا ذنب لهم في تكبد العناء معها، مرت الليلة بسلام بعد ذلك القسم، لتفتح الشمس جفناها الناعس، وفي هدوء يستقبلون يومًا جديدًا على غير العادة، فَدعت السيدة فاطمة لابنتها، وهي تُمسد جبهتها:

ـ اللهم رب الناس، أَذهِبِ البَاسَ، واشفِ ابنتي، أَنتَ الشافي، لا شِفاءَ إلا شِفَاؤُك، شِفَاءً لا يُغادِرُ سَقَمًا.

كررت ذلك عدة مرات، وبداخلها اليقين بلطف الله ورحمته بهم، لم يُخبرها زوجها، يعلم بأنها ستقف له بالمرصاد إن علمت، ستظن بذلك مثله أنها تحمي ابنتها، بل تدفع عنها الضرر، إلا أن كلاهما تفاجأ بقرارها، الذي نقلته إليهما في ثبات، وكان ذلك عند استيقاظها، فطلبت السيدة فاطمة من زوجها الحضور بناءً على طلب سلمى، ترك عبدالله في المخبز ثم صعد إليهم من فوره.

استقبلته سلمى ببشاشة، تُطفئ نيران الخوف، فأشرق وجهه، استمدت من ذلك الشجاعة، وبعد فترة صمت قالت:

ـ أبي الحبيب .. أمي الحبيبة .. أعلم بأن الأجواء توترت كثيرًا بسببي الفترة الماضية، ولكن ذلك كان بالأمس، أما اليوم فقد جئت أزف إليكم خبرًا سعيدًا، بل تلك البشرى التي تلهف قلبي لقدومها منذ زمن.

تعجب والديها، ونظرا لبعضهم البعض في غير استيعاب، حتى كشفت الغموض عنهم، وأردفت:

ـ لقد ظهرت نتيجتي، ونجحت الحمد لله، والآن لم يعد يفصلني عن ذلك الحلم سوى بعض المسافات.

هَش والدايها لذلك، وفرحا أينما فرح، أطلقت والدتها الزغاريد، وهي تحتضنها في سعادة بالغة، وتنهد والدها في ارتياح، فسبحان مُغير الأحوال، وكأن الله استجاب لدعوته، ثم ما لبث أن انتبه لجملتها الأخيرة، فسألها في استغراب:

ـ ماذا تقصدين بقولك بعض المسافات يا سلمى؟

ارتبكت سلمى، وتصبب العرق من جبينها بغزارة، فأخذت تُفرك في أصابعها في توتر، ليتولى هو الإجابة عنها:

ـ إذن ما زلتِ تُريدين الالتحاق بكلية الإعلام، ويا تُرى أين سيذهب بكِ مجموعك يا ابنتي الحبيبة؟

ردد كلمته الأخيرة بلوم، وكأنما يُعاتبها، لم يتخيل قط بأنها قد تختار الاغتراب بعيدًا عنه بإرادتها، ولكنه عند مقارنة الأمر هدأ، وجاء قبوله كمعجزة، لم يكن ليُوافق قط لولا مرورها بتلك الصعاب، فأصبحت المحنة منحة، حققت لها كل المستحيلات، تأتيها طواعية دون عناء.

ـ جامعة جنوب الوادي يا سلمى! ألم يكن هناك من مكان أقرب أمامك؟

رددت والدتها ذلك في استنكار، بينما استقبل والدها الخبر في ثبات، كم تألمت عصفورته داخل القفص! وعليه أن يُطلق سراحها الآن، يرجو الله ألا تفجعها نوائب الدهر، ويحميها من النكبات، فلو كان الأمر بيديه لخبأها بين ضلوعه، يدفع عنها كل الشرور والآلام.

ـ أ أنت موافق يا أبو سلمى؟ أ لهذه الدرجة طاوعك قلبك لفراقها عنا؟

هز رأسه في إيجاب، وهو يشكر الله في داخله كون ذلك الاغتراب سيحدث الآن، فهو أرحم من ذلك الذي أوشك على مجاراة الطبيب فيه، فماذا كانت لتفعل معه زوجته؟ لم تكن لتُسامحه، وقد يخسر كلتاهما إلى الأبد، فإن كان من مصلحة سلمى الابتعاد عن موطن الذكريات المؤلمة، لا بأس من ذلك طالما إلى مكان تُحبه، ولعله يكون لها عونًا في تحسين حالتها.

ـ لا تخافي يا أمي، فأنا لن أُفارقك ما حييت، سأبتعد عنك فقط خلال فترة الدراسة ثم أعود إلى أحضانك ثانية، وكلي شوق متلهفة للقائكِ.

تطوقها سلمى بذراعيها في حنان، وتختار من الكلمات ما يُربت على قلبها، ويبدل خوفها سكينةً وأمنًا، فما كان من الأم سوى الانصياع لهم، وقلبها يرتجف قلقًا، ماذا ستفعل ابنتها في بلد غريب؟ ليس لهم فيه قريب أو صديق، أخذ لسانها يلهج في تلقائية بالدعوات، رد فعل طبيعي يصدر منها بكل الأزمات، الله هو حولها وقوتها، ولا سند لهم غيره، تستودعه ابنتها، وأرادت أن تُخلص سلمى من عقدة الذنب بينما ذهبت معها، تُعد لها مختلف الأصناف، تُحضر لها ما تشتهيه، فهي بارعة في الطهو كزوجها، ويأتي الكثيرون لشراء الوجبات منهم، هتفت في حماس:

ـ أ تريدين يا سلمى معرفة كيف التقيت بوالدك؟

انتقل الحماس إلى ابنتها عند سماع سؤالها، واتسعت حدقتي عينيها في اهتمام، وهي تستمع إليها، فتشجعت والدتها على نقل الحكاية لها كاملة، شردت بعيدًا، تستدعي الذكريات من زمن فات، وأكملت:

ـ منذ نعومة أظافري وأنا أسمعهم يتحدثون عن الجدة منيرة ومطبخها الشهيرة في الحي، سيدة ودودة صدرها رحب، يجد الجميع مبتغاه بين وصفاتها، التف حولها الأطفال، حيث كانت توزع عليهم الحلوى، وتأوي اليتامي في بيتها، كنت أراها امرأة فريدة، لا شبيه لها كتلك النوادر، فتعلق قلبي بذكرها، وتمنيت أن أصير مثلها في أحد الأيام، كان لأمي خمسة أبناء غيري، وما أن توفى أبي ضاق بنا الحال، فلم أجد سبيلًا سوى اللجوء إليها، كي أُخفف الحمل على أمي، بل وأساعدها أيضًا، لم تُخيب الجدة حينها رجائي، استقبلتني في بيتها بذراع حانية، وأهدت إليَّ الكثير من

وصفاتها، وشربت الطهي منها حتى باغتها المرض، فانتقلت المسئولية حينها إلى ولدها الوحيد، وأوصته ألا يَنغلق مطبخها، وكم كانت بنيته صغيرة! فيُهيأ للناظر إليه أنه أقرب إلى الأطفال من المراهقين، وليس شابًا على وشك الالتحاق للجامعة، على الرغم من اجتهاده ترك الدراسة ما أن احتار الأطباء في علاج أمه، تمنى أن يُصبح مثلهم في أحد الأيام، فَصَدمه عجزهم، وتفرغ للبحث بين الأعشاب والوصفات عما قد يُخفف ألمها، إلا أنه قد تأخر كثيرًا، فأثقله الهم برحيلها ...

في تلك اللحظة لم تتمالك نفسها، وأغشيت الدموع عينيها، تؤلمنا الذكريات أحيانًا عند استحضارها، فاحتضنتها سلمى، وطبعت على خديها قبلة، تُشجعها على المواصلة، فنظرت لها والدتها بامتنان، لامسته في نبرتها أيضًا:

ـ كان منير شابًا رائعًا، لا أُخفي عليكِ قد وقعت أسيرةً لحبه منذ أن رأيته، جذبني بره على والدته، فكم كان حنونًا عليها، رأيت الفتيات يتأففن من مساعدة والدتهن وهن في تمام الصحة، أما هو فوالله احتمل مرض والدته دون شكوى أو تذمر، رفض إحضار إحداهن لرعايتها، حين ساءت حالتها لازمت الفراش، ولم تعد تقوى على القيام بأبسط احتياجاتها، فكان لها خير معين، سمعًا وطاعةً لها في كل ما تطلبه ...

ـ وكيف أَحبك أبي يا أمي؟

قاطعتها سلمى في لهفة، تُريد أن يصل بها الحديث إلى حيث انطلقت شرارة الحب بين والديها، فاحمرت وجنتي والدتها، وهي تُكمل في خجل:

ـ يا لكِ من فتاة عَجولٌ يا سلمى، يبدو بأنكِ قد كبرتِ كثيرًا، وأصبح يُشغلك الحديث عن أمور الحب.

توردت وجنتي سلمى بدورها، وتحاشت النظر إلى عينيها، فضحكت والدتها منها، ولم تُرد أن تجعلها تنتظر أكثر، لتسرح سلمى بعيدًا عند سماع باقي حديثها:

ـ القلب عجيب حقًا يا سلمى، ويُدهشك بما يأتي منه، إلا أنه لا قوة لكِ ولا سلطان عليه، حين وقف والدك وحده، وقد أعجزه الهم مددت إليه يدي، فما لبث أن تلقفها، يرى فيها نجاته، حينها رأيت نظرة، لا أنساها قط، ارتدت سهامها في قلبينا، ومن هنا بدأت حكايتنا، وكُللت بالفرح بعد مجيء عمتك نور.

ارتعبت سلمى عند ذكر اسمها، وتوارى الهدوء عنها، لاحظت والدتها ارتباكها، فشددت على يديها، وأصرت على المواصلة:

ـ كم كان حضورها بهيجًا! عادت من الخارج حيث كانت تُقيم مع خالتها، فقد تفاجئت جدتك بحملها في مثل هذه السن، وقد بلغ بها الكبر عتيًا، إلا أن أختها سعدت بذلك، وطلبت منها أن تعطيها إياها، تروي شوقها للأمومة، فقد حالت الأسباب دون ذلك، أخبرها الطبيب بأنها عقيمٌ، فكيف لها أن تُنجب؟!

لتوافق جدتك على الفور، وصبرت على تعب الحمل لأجلها، رأت فيه استجابة دعوة الخالة هدى.

ـ لقد كان لأبي خالة، هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها عنها، فأين هي الآن يا أمي، ولمَّ لا تزورنا؟

قاطعتها سلمى في استغراب، فصمتت والدتها قليلًا، ثم أجابتها في حزن:

ـ لقد رحلت عن العالم يا عزيزتي في نفس العام، لم تقو الخالة هدى على فراق الجدة، لتنتقل مسئولية عمتك إلى أبيك، وجاء لقائهم الأول بعد ما بلغت من العمر عشرة أعوام، فكبرت في كنف أبيكِ، وفرحت بها أينما فرح، أسقيتها من حناني، وجربت معها شعور الأمومة لأول مرة، حتى قر الله أعيننا بقدومك، وكبرت هي قليلًا، فساعدتني في تربيتك، واهتمت بكِ رغم دقة بنانها، أحبتكِ حبًا عظيمًا، فكانت تجلس بالساعات جوارك وأنتِ نائمة كحارسكِ الأمين، ولا تجرؤ أي حشرة ولو صغيرة على الاقتراب منكِ في حضورها.

ـ وأنا أيضًا أحببتها كثيرًا يا أمي، وكان ما حدث والله دون قصد مني.

غشيت الدموع عينيها من شدة تأثرها، وزفرت في حرارة، وصرحت بألمها بين يدي والدتها، فقد لامست الكلمات شغاف قلبها، وأحيت الذكريات الجميلة، فكم كانت العلاقة وطيدة بين العمة وابنة أخيها، حتى يكاد يظن للناظر أنها ابنتها، بل قطعة منها، وجاء ذلك اليوم المشئوم ليهدم كل ذلك، وانهدم العش الجميل فوق روؤسهم، وبطش الخوف والهلع بما حملته القلوب دومًا من الهدوء والسكينة، فأصبح ذكر العمة يستدعي الألم لابنة أخيها.

فقالت والدتها مواسية، وهي تضم وجه سلمى بأناملها الرقيقة:

ـ أعلم ذلك يا حبيبتي وكذلك العمة نور، لا يُمكنها أن تظن بكِ السوء قط، لطالما حملت الضرر عنك، ولا أُصدق بأنك قد تؤذيكِ يا نور عيني، فاستعيذي بالله من الشيطان الرجيم يا عزيزتي، واطردي تلك الوساوس من خاطرك.

اختبأت سلمى بين أحضان والدتها تبكي، تتمنى أن تكون محقة، لعلها تتحرر من تلك المخاوف، التي تُنغص عليها حياتها، فالحب هو شعلة النور في دجى العتمة، ومن نهره لطالما ارتوت من فيض حنان عمتها، فكيف تسيء إليها بعد الرحيل بتلك الظنون الخاطئة؟!

*** * * ***

-٣-

نيران الغيرة

قد تنتقل المَثالِب كالمَناقب أيضًا من شخص إلى آخر، ورغم كونها ليست أمها الحقيقيَّة إلا أنها ورثت عنها العديد من الصفات، غرست بداخلها الغرور والكِبر، وعودتها على التعلق بالأشياء، كلما أرادت أمرًا ظفرت به، حتى وإن كلفها ذلك البطش بغيرها، ومن هنا حدثت الفاجعة، ابتسمت لها ابتسامة المنتصر، وهي تُردد في زهو:

ـ كنت أعلم بأنه سيكون لكِ نصيبًا بتلك الجامعة، وأكاد أجزم لكِ بأن الأمر حدث بإشارة من يداي.

وضعت قبلة على خدها، وطوقت رقبتها بذراعها، وهي تهتف في حب:

ـ هذه هي أمي، هذه هي بطلتي، لا يستطيع أي صعب أن يقف في طريقها مهما كان.

فرحت السيدة نوران، وتملكها السرور، ورضوى تُطرب أذنيها بتلك الإطراءات، فالسيدة نوران وشبيهاتها يُفضلن التفخيم، لمن يُفرط في الإشادة بهن، فقد عرفت مفاتيحهن إن أعطيتهن قدرًا فوق قدرهم، وكذلك كان تأثيرها أقوى على زوجها (الدكتور عماد)، تستطيع السيطرة عليه بكلامها المعسول، ووقف موت أخيه في صفها، رضوى هي قطعة من حبيبه، وكيف له ألا يُبالي بمستقبلها؟! لم ترِ نفسها مقصرة قط في عدم نبوغها، أفرطت في تدليلها، فلم تُبال بدراستها، وخُسف بمجموعها الأرض، لم تكن لتقبلها أي جامعة، حتى فتحت لها واسطة الدكتور عماد باب كلية الإعلام جامعة جنوب الوادي، التي يُحاضر فيها، لتُصبح معه في نفس المكان.

ـ هل أنتِ سعيدة يا رضوى؟

تسألها السيدة نوران في تباهٍ، لعل رضوى تُقدر الآن قيمة كونها ابنة السيدة نوران، التي تتجلى المرء العظمة عند الاقتراب منها، ولم تلبث النجاحات أن حلقت فوق سماء رضوى، تُمحي لها ما كان من فشل بنفوذها، وما تدفعه السيدة نوران في سبيل ذلك من الرشاوي.

ـ بالطبع يا أمي، فأنا ابنة السيدة نوران، كيف لي أن أكون عادية؟!

أجابتها رضوى في ثقة بما تمنت سماعه، بل وعزفت على أوتار قلبها الألحان، كانت بعيدة كل البعد عن الأمومة حتى ذلك الحادث، فجاءتها ابنة على طبق من فضة، ومن يدري لعلها من دبرت لما كان، أومضت في ذاكرتها أحداثًا من مشهد بعيد، حاولت قدر الإمكان أن تُذهب بها طي النسيان، إلا انها لا تلبث أن تعود إليها كما الآن.

ـ ما الذي غَيَرك يا أخي؟ لمَّ أراك أمامي وكأنك أصبحت شخصًا آخر؟

صاح به فؤاد في حدة، إلا أن الآخر عامله باستخفاف:

ـ لقد عَقِلتُ يا فؤاد، لم نأخذ من العواطف سوى الحرمان.

نظر له في استنكار، وهو يُردد في غير تصديق:

ـ أنت عماد أخي المرهف الحس، لا يحتمل بكاء أي أليف أمامه، فكيف ببني الإنسان؟ ما أسوأه من حال تستعمل فيه نفوذك لاستغلال خلق الله، وتعطيل مصالحهم ما لم يأتونك بما تُطلبه، تحصد على إثر ذلك الكثير من الأموال، وما هي إلا نارًا وسعيرًا، فانجِ بنفسك يا أخي أرجوك.

بدأت الكلمات تهز دواخله شيئًا فشيئًا، فخشيت مَن بالخارج مِن عاقبة التأثير، وكذلك كانت تحقد على زوجته، على الرغم من كونها دون المستوى، إلا أنها لا تلبث أن تظفر بالألباب، يحترمها الجميع، ويُقدرونها، ولها مُثل ومُبادئ عليا تتمسك بها، فلا تبالي بتلك المظاهر والأشكال الزائفة، واصطدمت بها هي الأخرى:

ـ حرام عليكِ يا نوران، لا تُفرقي بين الإخوة بلك الشكل، وما تلك المظاهر إلا تُرهات كاذبة، فلا تجعليها تفصل بينهم، كلنا عباد الله، ولا فرق بيننا إلا بالتقوى.

حدجتها بنظرة نارية، وهي تنهرها في انفعال:

ـ ومَن أنتِ لتتحدثين معي هكذا؟ لقد نسيت نفسك، بل وتماديت في التعامل معي، فوالله لولا زوجي لما أدخلت مثلكِ قط.

ترقرقت العبرات في عيني إيناس، وأجابتها في أسى:

ـ أعلم بأنني لست مثلك، إلا أنني بعد أن تعاملت معكِ أشكر الله أنه لم يخلقني من تلك الطبقة الراقية، وجعلني كما أنا، فأشعر بغيري وأنظر بتواضع إلى نفسي، العظمة لله، وكلنا فقراء مهما بلغ حجم المال الذي نمتلكه، وفي كثير من الأحيان يكون وبالًا علينا كما فعل بكِ.

انتفخت أوداجها من الغضب، ورفعت كفها عاليًا ثم أنزلته بقوة على وجهها، فطُبعت علامات أصابعها على خدها، وتردد صدى صوت الضربة في الأرجاء، جاء فؤاد في ذهول، لا يُصدق بأن زوجته تعرضت للإهانة في بيت أخيه، ولطالما اعتبره في مقام والده، ولكنه أصبح يسير خلف نوران، التي لم يكن لها من اسمها نصيبًا، حيث أُظلمت القلوب بتلك الضغينة التي غرستها بأفعالها.

ـ هيا بنا يا إيناس من هنا، لم يعد لنا من عودة إلى ذلك المكان ثانية.

ردد فؤاد عبارته بصوت يُقطر أسى وألمًا، فلحقت به زوجته في صمت، لم تنبس ببنت شفه، أو تطلب منه أخذ حقها، غادرا معًا، وقد تغير شيئًا داخلهما، ونسيا أغلى ما لهما هناك، فانتهزت نوران الفرصة، ونفذت خطتها على الفور، اتصلت بأحدهم، وما هي إلا دقائق معدودة، وطار إلى زوجها الخبر الأليم، توفى أخيه وزوجته في حادث أليم، حيث اصطدمت بسيارتهم شاحنة كبيرة، فانقلبت بهم، وتفحما داخلها، فاحتضن عماد الطفلة، وهو يزفر في ندم:

ـ سامحيني يا صغيرتي أرجوكِ، لقد أخطأت بشدة في حق والديكِ، فاستحققت ذلك العذاب القاسي، وحرمت من أخي العزيز الغالي دون وداع أو طلب للمغفرة، وكأنني كنت السبب في موته.

ارتبكت نوران، وأخذت تفرك بأصابعها في توتر، وهي تسأله:

ـ كيف تقول ذلك يا عماد؟ هذا قضاء وقدر يا زوجي الحبيب، لا دخل لنا به.

ـ ولكنه خرج من عندي محزونًا غاضبًا، كيف لي أن أسامح نفسي على ما حدث؟

رد عليها في انفعال، فادعت التأثر أمامه، وهي تواسيه:

ـ ادعِ له يا حبيبي، وأسأل الله أن يُرزقك الصبر والسلوان، ويُثبتك كي تُكرمي مثواه، وتتولى رعاية ابنته من بعده.

سكتت لبرهة كأنما تُفكر، ثم ضمت الصغيرة لأحضانها، وهي تقول في تشفٍ:

ـ الآن سوف أعلمها ما جهلت به والدتها، وسأجعلك تزدري تلك الطبقة التي جاءت منها تلك الحقيرة البائسة.

كان زوجها قد غادر، وذهب إلى مكان الحادث، فاضطرت إلى اللحاق به، كي تُبعد الشبهات عنها، وهناك فزعت مما رأته، شاهدت انعكاس وجهها المشوه في المرآة التي تحطمت عند اصطدام السيارة، وانفلتت بعيدًا عنها، ورأت من خلالها المشهد، وكأنها كانت حاضرة.

قبل الحادثة بدقائق..

ـ انتظر يا فؤاد .. لقد نسينا بأن رضوى نائمة بالأعلى .. قف هنا حتى أصعد وأُحضرها.

كان غاضبًا للغاية، فلم يستمع إليها، احتارت في أمرها، تذهب إلى حيث توجد ابنتها أم تلحق به، إلا أنها قد عزمت قرارها عند سماعها، وصعدت جوار زوجها في السيارة، كي تلقى معه المصير نفسه، وقد ضاعت كل محاولاتها سدى كي توقفه، انتفضت نوران، وشهقت بقوة، ورددت في استنكار:

ـ لقد سمعت إيناس حديثي مع ذلك الرجل، إذن فقد علمت بمُخططي.

ـ نعم، لقد علمت، وكوني على يقين بأنني لن أرحمكِ.

حدثها صوت غليظ من المرآة، وكأن روح الزوجة المغدورة رفضت الرحيل، حتى تأخذ بثأرها، وتنتقم لأجل زوجها، ارتعبت نوران، وأخذ صوت صراخها يُزلزل الأرجاء، وشاع الخبر في الأرجاء بأن مسٌ من الجنون قد أصابها، وكان ذلك جزءًا من عقابها، تلهث خلف انطباعات الناس، وتهتم بكل ما يُقال عنها، واستمرت معاناتها لشهور عديدة حتى مرضت رضوى، لم تعد ترى ذلك الوجه المُشوه في المرآة، فما لبثت أن انقشعت الغمة ما أن اعتنيت بالصغيرة واهتمت بها، فانخلع رداء المرض عنها، ترعاها، وتُشبع بوجودها غريزة الأمومة المتأججة داخلها، فهدأ اضطرابها، ولم تعد تشعر بالنقص.

ـ أمي .. أمي .. لقد أحضرت لكِ المرآة المفضلة لدي كهدية، سترين صورتك بشكل أفضل من خلالها، فأتمنى أن تنال إعجابك يا عزيزتي.

نظرت السيدة نوران للمرآة بين يدي رضوى بارتياب، لا تعتقد بأنها تراها لأول مرة، هناك بعض العلامات داخلها تُذكرها بمشهد الماضي، فهل من المعقول بأنها المرآة ذاتها؟ جالت ببصرها في هلع، لا تُصدق بأن تلك الأشياء حقيقية، ولكون الشر داخلها غَلب على الخير، لم تلجأ هذه المرة لطبيب، وساقتها قدماها إلى من يلعبون بالبيضة والحجر، لم تُخف عليهم سيئاتها، واعترفت بذنوبها على الملأ، فاستقبلوها بحفاوة وترحاب، ينتشون للغاية حين يلتقون بأشباههم، وإن اختلفت المسميات بينهم.

تلفظ أحدهم بترانيم وكلمات غريبة، لم تفهمها أو تسمع بها من قبل، فانتفضت في مكانها وخاصةً عند تردد أصوات أخرى داخل الغرفة، لا ترى أصحابها، ولا تعرف من يكونون؟ الخطأ الواحد يتدرج بالمرء إلى أبشع وأفظع منه، زهقت روحين في الماضي، ولم يرتد لها طرفٌ أو يرمش لها جفنٌ، فلا يُتوقع بأنها قد تتراجع الآن، وقد أخبرها ذلك المشعوذ بما يجب عليها فعله، بعد ما نقل إليها الحقيقة:

ـ لقد تعلقت روح إيناس بالمرآة، رفضت الذهاب إلى العالم الآخر، وأقسمت ألا تذهب من دونكِ، وجهها المشوه على إثر الحادث هو من يظهر لكِ انعكاسه، ولأجل ذلك إن أردت حبسها داخلها، فلا ترينها ثانية قط، عليكِ بتنفيذ ما أقوله.

هزت نوران رأسها في إيجاب، وهي تُردد:

ـ سمعًا وطاعةً يا سيدي، فانهِ عذابي أرجوك، خلصني من تلك المعاناة، التي لم يعد لي من قوة على احتمالها، فأنا صرت على حافة الجنون.

ابتسم لها بخبث، ونظر لها بمكر، وهو يطلب منها في دهاء:

ـ انتظري حتى يكتمل القمر بدرًا في وجه السماء، تعالي إليَّ في حلة العروس، وهذه الورقة أحضري كل ما يوجد بها، ثم دعي الأمر لي.

فضحته النظرات قبل الكلمات، وكانت السيدة نوران امرأة فائقة الجمال، حتى بدت تأخذ العين بسحرها، فأذهلها قوله، وعقل لسانها، أحست بضيق شديد، إلا أنها حين قلبت الأمر في ذهنها، لم تجد أمامها مفرًا سوى الانصياع لأمره، دفعت الثمن غاليًا، آثام تجر الأخرى، حضر تعويذة ما وعلقها على المرآة، ثم أخفاها في السرداب، حيث حبس روح إيناس داخلها، وحذرها من أن ينفذ النور إليها أو يراها أي إنسان.

*** * * ***

لا تُبنى البيوت باالطوب والأسمنت فقط، هناك خلطة سحرية مكونة من الأمان والحب، مع المودة والرحمة بين الزوجين، تلك الركائز الأساسية التي لا يكتمل دونها الإنشاء، حدوتة جميلة جمعت

بين قلبين، رفرف طائر الحب فوق سمائهما، الدكتورة الصيدلانية كانت مهووسة بالرياضيات، حيث تُستخدم لتصميم الأدوية، وتحديد الجرعات الأمثل والتحاليل الفارماكولوجية لتقليل الأعراض الجانبية وزيادة فعالية العلاج، بينما كان هو عمله مع المعادلات، مدرس الرياضيات ذائع الصيت في العمارة التي يوجد به معملها، فلم تكن صدفة وجودهما في المكان ذاته، تلجأ إليه كلما استعصى عليها أمرًا، ويفتح لها آفاقًا جديدة في صنع مستحضرات التجميل، كم كان نابغًا! ومن هنا التقت طرقهما، وتطورت علاقة العمل شيئًا فشيئًا، حتى تربعت ملكةً على عرش بيته، قامت ببنائه معه لبنة لبنة، فكان عشًا هانئًا جميلًا، لا يُعكر صفوه شائبة، ومرت بهم السنون على عجل، حتى توشّى الشّيب في الرأس، وأصبح لهم أحفادًا، فاستعرضت الدكتورة سميحة مع زوجها (فريد) الذكريات الجميلة، تأخذه إلى لحظات من ماضيهما، وهي تسأله في مزح:

ـ هل تتذكر يا فريد كيف كان لقائنا الأول؟

تبسم الأستاذ فريد عند سماعها، ونظر لها بُحب، انتقل إلى نبرته، فأجابها:

ـ وكيف لي أن أنسى؟!

صمت لبرهة، وكأنما يستدعي ذلك المشهد، ثم أردف:

ـ هناك لحظات لا تُنسى يا حبيبتي مهما غشيها غبار الأيام، وخاصةً إن كان للقلب حضورًا فيها، عَرف فيها الحب لأول مرة، فأصبحت أنتِ وتينه، كل دقة من دقاته تنبض باسمك يا خليلة الفؤاد.

ترقرقت العبرات في عينيها تأثرًا، ولامستها رهافة حسه وصدق شعوره، فصرحت له هي الأخرى بما تردد في وجدانها عند أول مناقشة دارت بينهما، علقت بصرها بعينيه، تنظر فيهما مطولًا، وهي تتحدث كي يصله إحساسها.

ـ كنت حينها مولعة بمستحضرات التجميل والتركيبات الصيدلانية، إلا أنني لا أصل للنتيجة المرغوبة، كأنني تناسيت إضافة شيئًا أو اختلط عليَّ الفهم في خطوة ما، حيث تُرهقني المعادلات، فوجدتهم يشيدون بك، وكان لوقع اسمك عليَّ تأثيرًا غريبًا، وصلت حتى عتبة بابك ثم تراجعت، لم أكن لأدخل إلى أن سمعت صوتك الشجي، وأَسرتني طريقتك اللطيفة في التعامل مع طلابك على اختلاف مستوياتهم، وقفت أستمع إليك في إعجاب شديد، ولم أتحرك قيد أنملة، اشتدت بي اللهفة لأراك، يا تُرى كيف ستكون هيئتك؟ ولم أتخيل قط بأن قصتي ستكون مُدهشة معك بذلك الشكل.

وبينما هم يتحدثان، دلف عمر وكريم لداخل الغرفة، ونفذ إلى أذنيهما جملتها الأخيرة، فأطلق عمر صَفيرًا بينما صفق كريم بكلتا يديه في زهو وإعجاب بقصة أجدادهم الرائعة، وكان الجد قد احتضن الجدة حين اختتمت حديثها، فلم يشعرا بقدومهما، حتى انتبها لردة فعلهما، لتكسو الحمرة وجنتي الجدة، بينما داعبهم زوجها:

ـ يا أهلًا ومرحبًا بسارقي اللحظات الجميلة.

غمز له كريم بعينيه، وهمس بخفوت:

ـ يبدو بأن الحبيب يُريد الاختلاء بحبيبته أكثر، لا يُفرق جمعهم أينا كان بحضوره.

جذبه الجد من أذنه، وهو يُردد:

ـ غدًا ستعرف الحب أيها الشقي، وحينها ستفهم كيف يكون حال الأحبة، فوالله إني لأتحرق شوقًا لرؤيتك في ذلك اليوم.

تبسم كريم من قوله، ثم سأله في تعجب:

ـ وهل الحب جميل يا جدي؟ لمَّ أرى العكس إذن مع أمي وأبي؟

لاح الحزن بين عيني جده، وهو يتفكر في أمر أبنائه، اختلف الأمر كثيرًا معهم، حيث تباينت السمات داخل كل منهم مع زوجه، فكبرت الفجوة بينهم، ولده الأول طبيبًا اسمه محمد، خلوقٌ للغاية، ذو قلب رحيم، فنال محبة عظيمة في قلوب الكثيرين، بينما زوجته فادية شخصية أنانية، تعمل في إحدى المصالح الحكومية، ويبغضها الصغير قبل الكبير، لا تلبث أن تُعطل مصالحهم، ولا تُقدم قط يد العون لأحد، وابنه الآخر عقيدًا في الجيش، مُتعجرف للغاية، يستخدم النفوذ وفقًا لأهوائه، في حين لديه زوجة متواضعة للغاية، امتلكت من الحنان ما يؤهلها للعمل مع الصغار، فكانت تسقيهم من فيض عطائها، حيث تعمل كمدرسة في روضة الأطفال، تنسى قسوة زوجها بينهم، وتكتب لهم مختلف القصص وتعيشها معهم، شتان بين كلا الزوجين، وكأن كل منهم قد أخذ نصيب الآخر بالخطأ.

ربت الجد فريد على كتف حفيده، ولسانه يلهج بالدعوات لأجل والديه، وألقى على مسامعه كلمات، ما لبثت أن أحضرت إليه السكينة:

ـ لكل منا نصيبه من الغرام يا بني، وقد تختلف أشكاله، فلا تقلق مما تراه بين والديك، ولا تتخذه مقياسًا، ما زال الحب ينبض بقلوبنا، حتى وإن غشيت المشاكل أعيننا، سيجد طريقه دون شك، ويكلل حياتهم بالفرح ثانية.

احتضنه كريم في تأثر، فقد أصبح الآن متلهفًا لتجربة ذلك الشعور الرائع، لن يسمح للأزمات التي تمر بجانبه، أن تقف حائلًا بينه وبين كل ما هو جميل، يستلهم الأمل من قصة الجد مع الجدة، فمنسوب الحب في ازدياد بينهما، وكأنهم ما زالوا في ريعان الشباب، لا يشيخ أو يتأثر قط بانقضاء الأعوام.

صاح عمر في لوم:

ـ هل الحب كله من نصيب كريم فقط يا جدي؟ أ ليس لحفيدك عمر جزءًا منه؟

فرد الجد ذراعيه على اتساعهما، وهتف في حب:

ـ تعال في حضني أنت الآخر يا حبيبي، يعلم الله بأن المعزة واحدة، فأنتم أحفادي الأعزاء، وأعز الولد ولد الولد يا أحبائي كما يقولون.

صوت حنون من الخلف يأتيهم، سعدت الجدة بتلك المشاعر الجياشة بينهم، وشاركتهم بقولها:

ـ بارك الله لي فيكم ووفقكم يا أولادي لما تتمنون.

التفتوا إليها، احتضنوها بدورها، وطبع عمر وكريم القبلات على وجنتيها، وهم يهتفون بحب:

ـ أدامك الله لنا يا جدتنا الحنونة، ورزقك بتمام الصحة والعافية.

صاح عمر في حماس:

ـ جئنا إليكم يا جدتي اليوم كي نزف إليكم الخبر السعيد.

الجدة في لهفة:

ـ إنها لبشرى إذن، فأخبرني بها على الفور يا عزيزي.

ـ ليس بهذه السهولة يا جدتي.

تدخل كريم يُمازحها، فوكزه الجد في ذراعه بلؤم، أوشت به نبرته:

ـ إذن تُريد المساومة يا حفيدي المشاكس، قل لي ماذا أعطيك لتُخبرنا؟

طرق كريم بأصابعه على جبهته، يُفكر فيما قد يطلبه، حتى لمعت عيناه، وكأنما وجد ضالته، فتفوه بها دون تردد:

ـ أريد ساعتك الرولكس يا جدي.

كان الجد فريد يرتديها، حيث يعتز بها كثيرًا، ولا ينزعها من يده، أهداها له والد كريم من أول راتب حصل عليه، وكان لذلك فرحة لا تُنسى، خلفت من بعدها ذكرى جميلة، وتمنى كريم أن يحصل على شيء من والده، على الرغم من شدة حنانه، إلا أن الوقت لا يمهله من كثرة المسئوليات على كاهله، فهو أستاذ في الجامعة إلى جانب دوره كطبيب جراحة أورام في المستشفى العام بمدينة السنبلاوين إضافة إلى متابعته للحالات في العيادات الخيرية، وله عيادته الخاصة أيضًا، فيعطي لكريم المال، ويطلب منه إحضار ما يرغب به.

بطيب خاطر وسماحة نفس ألبسه إياه، وبنبرة حانية:

ـ ليست بغالية عليك يا حبيبي، فكل ما لي بعد انقضاء الأجل سيعود إليكم يا حبايب قلبي.

ووجه بصره تجاه عمر، لا يُريد أن يترك للغيرة بينهم سبيلًا، فتبسم عمر، وعبر كريم عن سعادته في امتنان:

ـ كم أنا فخور للغاية لأن لي جد حنونٌ مثلك، شكرًا لك يا حبيبي على كل شيء، أنا ...

قاطعه عمر قبل أن يُكمل، وهو يُضفي حضوره بينهم:

ـ الآن وقد حصلت على ما تُريد يا كريم، جاء دوري كي أخبرهم بتلك المفاجأة.

ـ كلنا آذان صاغية يا بني.

شجعته الجدة في حماس، فانطلقت الكلمات من ثغره مُسرعة، لا يُريد أن يجعلها تنتظر أكثر:

ـ لقد نجحت أنا وكريم، والحمد لله لقد مَنَ الله علينا، وسوف نلتحق بنفس الجامعة، ذلك التخصص الذي ملأ حبه كياننا.

أطلقت الجدة الزغاريد، وتركت على خديهم آثار القبلات، وهنأتهم في سعادة غامرة:

ـ مبارك يا أبنائي، الحمد لله على جميل فضله وكرمه، أسأل الله أن يرزقكم من فيض عطاياه، ويصبح لكم مكانًا مرموقًا كوالديكم يا أعزائي.

تمر اللحظات الجميلة كثوانٍ خاطفة، لا تلبث أن تُسعدنا ثم تنجلي مسرعةً، فنتمنى حينها لو كان بإمكاننا أن نأسرها إلى الأبد، لا تُغادرنا أو تنفلت بعيدًا عنا، صُدم كريم بردة فعل والدته، بينما طار عمر فرحًا باستقبال والدته للخبر، سعُدت به للغاية:

ـ الحمد لله الذي مَنَ عليك ببلوغ حلمك يا حبيبي، أرجو الله أن يقر عينك به، وتصل لكل ما تُريده.

ارتمى عمر في أحضانها بامتنان، فهو يُدرك الفارق بين أمه وزوجة عمه، وعَلَم بأن كريم هو الطارق على الباب، لا يجد العطف عند أمه، فيأتي لينهال من نبع حنان أم عمر، التي تُعامله كابنها، لا تُفرق بينهما قط، وكأنه خُلق في رحمها هي، ليُشكل وجودها السلام بالنسبة إليه، تغشاه السكينة، وتهدأ ثورة صدره، حيث كبر أمام ناظرها، وأولته برعايتها، هشت لقدومه، وناداته في حبور:

ـ أهلًا بك يا كريم، مبارك لك يا حبيبي ذلك الإنجاز الرائع، الآن وقد أثلجتم صدري جاء دوري لأفعل المثل معكم، فهيا أغمضا أعينكم، ولا تفتحونها قط حتى أطلب منكما.

نظرا لبعضهم البعض في استغراب، والعديد من التساؤلات تدور بلبهم، فبأي شيء قد تُفاجئهم؟ إلا أنهما استجابا لقولها، وما أن وقفت قبالتهم، شدهوا من جمالها، أعدت لهم كيكة الشوكولاتة بنكهة الفانيليا مع الفراولة، وحفرت اسميهم عليها، مع وضع صورهم وهم صغارٌ، تصنع معهم ذكرى جديدة، فقضيا معها وقت رائع قبل أن يستعدا للسفر معها، فقد أذهب بهم المجموع إلى جامعة جنوب الوادي، ليُصبح الاغتراب من نصيبهم.

دلف كريم إلى غرفته حين عاد من عند عمر، تفاجأ بوالده في انتظاره، فسأله في قلق:

ـ أبي .. ماذا هناك؟ هل أنت بخير أم أن أمرٌ يُزعجك؟

ربت على كتفه، وطمأنه:

ـ لا تخف يا حبيبي، الأمور بخير الحمد لله.

صمت للحظات، ثم زفر في ضيق، وكلماته تسيل ندمًا:

ـ أعلم بأنني قصرت كثيرًا في حقك يا كريم، ولم أكن بجوارك في أشد اللحظات احتياجًا لي، لا يسعفني الوقت، ولا تظن بأنني أنساك، ولكن الدقيقة يا بني غالية في حياة مرضى الأورام، يكون فيها هلاكهم أو نجاتهم، فأهدي إليك تلك الدعوات التي تُلقى على مسامعي عند مساعدتهم، وأجد في ذلك العزاء لابتعادي عنك.

نظر له كريم بفخر، ثم احتضنه، فهو ليس بمستاء منه، بل مسرورًا للغاية لكون الله قد رزقه بأب حنون مثله، يحنو على الجميع، خير قدوة يُحتذى بإنسانيته وأخلاقه العالية، وما لبث أن فاجأه بتلك الهدية الرائعة، ففرغ كريم فاهه في غير تصديق، وبصم على خده بقبلة، وهو يصيح في فرح:

ـ كم أنت رائعٌ يا أبي! يكاد أن يبرز لي جناحان من فرط السعادة، لأول مرة تهدي إلي شيء، ولم أتخيل بأنه قد يكون غير متوقعًا بذلك الشكل.

ـ لا يوجد شيء يَعز عليك يا حبيب فؤادي، والحمد لله أنها نالت استحسانك، فكم احترت في أمرها، ولكن أوصيك بحسن استخدامها، فهي كالسلاح ذو حدين، قد تُقصر عليك المسافات، وفي الوقت ذاته تجلب لك المتاعب إن استخففت بها.

اشترى الدكتور محمد له سيارةً كي يذهب بها إلى الجامعة، يعلم بأنها كانت حلمه منذ زمن، وأحضر له النوع الذي تمناه، وملأ غرفته بصور لها، ولطالما قاد خلسةً سيارة جده، والآن حان الوقت كي يُصبح لديه واحدة، وعلى الرغم من ذلك لم يهدأ قلبه، ظل يُتابع معه طوال الطريق إلى هناك، يختطف بضع لحظات أثناء قيامه بعمله، فيتسلل من بين المرضى كي يطمئن على ابنه، وأثناء انشغاله في الحديث معه لم ينتبه للفتاة أمامه، وكان اصطدامه بها في أول يوم جامعي لهم، فعاد المشهد إلى حيث يوجد معها كريم.

في الغرفة داخل المستشفى..

ما زال الطبيب يُحاول أن يفهم سبب خوفها من المرآة بذلك الشكل، إلا أن ارتباكها أخذ يزداد كلما سألها، فتدخل كريم في لطف، كي يُخفف من وطأة الأمر عليها:

ـ لعل السبب يكمن خلف اصطدامي بها، خشيت أن تكون الحادثة شوهت ملامحها، ظنًا منها بأن تلك الخدوش ستترك بها ندوبًا لا تختفي.

هز الطبيب رأسه في شرود، سرح بعيدًا، لا يُبشر ما يراه أمامه بالخير قط، إلا أنه جاراه في الحديث، وطمأنها:

ـ لا تخافي يا سلمى.. أنتِ بخير، ليس هناك شيء سوى بعض الكدمات على أثر الوقعة، وإن شاء الله ستكونين في أفضل حال.

ـ هل يمكنني الذهاب إذن؟

سألته سلمى في ارتباك، فأجابها في لطف:

ـ بالطبع يُمكنك، ولكن، عليكِ أخذ الدواء والاهتمام بصحتك جيدًا، كي يذهب الألم بعيدًا عنكِ.

هزت سلمى رأسها في إيجاب كدلالة الموافقة على حديثه، وعَرَض عليها كريم توصيلها حيث تُريد، إلا أنها صدمته برفضها، ما زالت متأثرة بما حدث لكاميرتها، فإن تعبها سيزول، ولكن بعض الأشياء التي تتكسر يَصُعب التئامها، وقرأ ذلك الحزن في عينيها، فأدرك سببه، وعلم بأنه هو، ليُقسم في داخله بأنه سيعوضها عما قريب بأخرى، على أمل أن يفتح معها صفحةٌ جديدُة.

تستند سلمى على السور بامتداد المستشفى خارجًا، تتحامل على نفسها، وقد أثقلتها في المسير تلك الضمادات التي قام الطبيب بتجبيرها بها، الحمد لله لم تُسبب لها الحادثة كسورًا، ولكن الرضوض لا يُستهون بها أيضًا، أحس كريم بضيق شديد، وشعر حيالها بالآسف، وهو يُشاهدها من بعيد، وما لبثت أن أوقفت تاكسي ثم انطلق بها مسرعًا، وكريم يلحق بها حتى اطمأن عليها حين عبرت من بوابة المدينة الجامعية، إذن فهي غريبة مثله، وستجمعهم الدراسة بتلك الجامعة، ويرجو الله أن يكون التخصص نفسه، لتقصر المسافات بينهم، ثم تذكر جده، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة، يبدو بأنه الآن سوف تُستجاب دعوته له، ويشهد الحب حلمًا جميلًا في واقعه، إلا أن رنين هاتفه قطع عليه أحلام اليقظة، فزفر في ضيق، وهو يُجيب:

ـ هل الآن تذكرت بأن لك أخٌ تركته وحده؟ رفضت السفر معه، وفضلت المواصلات العامة عن الذهاب في سيارته.

ـ والله يا أخي لو علمت ما حدث معي، لأشفقت عليَّ للغاية.

رد عمر بإنهاك، وساندته الكلمات مع صوته المتعب، وهو يقص على كريم ما حدث معه:

ـ لقد تعطلت بنا الحافلة في الطريق، واضطررنا إلى التوقف لساعات، استبد بي الجوع فيها والعطش، وما من متجر أو كشك حتى بالقرب، ومع بعد المسافة لم أستطع الذهاب لأي مكان، حينها انتابني الندم، فالموت معك أهون مما كابدته وحدي يا أخي.

تبدل شعور كريم من الحنق إلى الشفقة، وردد في مزح:

ـ لعلك الآن أدركت قيمتي يا عمر، وعرفت بأن قيادتي وإن كان متهورة أرحم بكثير من السفر في المواصلات العامة.

ـ معك حق يا كريم، المرة القادمة لن أُجادلك قط حتى وإن طلبت مني الذهاب معك إلى آخر العالم.

قالها عمر في استسلام، بينما تغيرت نبرة كريم، وهو يُعبر عن الشعور المعتمل داخله:

ـ أنا أيضًا لم تسر الأمور معي بشكل جيد، فقد اصطدمت بفتاة في طريقي إلى الجامعة.

صاح عمر، وشهق في استنكار:

ـ غير معقول، وكيف هو حالها الآن؟ وأين أنت؟

ـ لقد ذهبت معها إلى المستشفى، وغادرت أمامي منذ لحظات و...

ـ مر الأمر بسلام إذن، ألمَّ تستدعي لك الشرطة؟!

قاطعه عمر في غير تصديق، كان يخشى من أن تسوء الأمور، وظن بأنه سيذهب لإحضاره من مركز الشرطة، ليُصبح أول يوم لهم في ذلك البلد الغريب يومًا مشئومًا لا يُنسى، فطمأنه كريم:

ـ لا تقلق يا عمر، لم يحدث أي شيء سيئ مما تتصوره.

تنهد عمر في ارتياح، ولهج لسانه بالشكر لله:

ـ الحمد لله، لقد قلقت كثيرًا، أنت ما زلت صغيرًا يا حبيبي، ولا أريد أن أنفق كل فلوسي على العيش والحلاوة كلما جئت لزيارتك داخل السجن.

ضحك كريم منه، وبدأت وصلة مزاح بينهما، يتناسيا للحظات ذلك الصعب الذي مروا به اليوم، وتقابلا عند مدخل العمارة التي سيستأجران بها شقة، يقطنون في مكان قريب من الجامعة، بينما أقامت سلمى داخل المدينة، وشُدهت حين رأته أمامها في المدرج، وسألته في استغراب:

ـ أنت! ماذا تفعل هنا؟

تبسم لها كريم، وأجابها في فرح:

ـ يبدو بأننا زملاء، سندرس في التخصص ذاته، ويا لها من صدفة رائعة!

ارتبكت سلمى، وكست الحمرة وجنتيها من الخجل، استأثرت بالصمت، ولم تقل شيئًا، فتدخل عمر قائلًا:

ـ أنا أيضًا زميلك هنا، وابن عم كريم، سعدت كثيرًا بالتعرف عليكِ.

تعجبت سلمى من قوله، فهي لم تُعرف عن نفسها، فمن أين يَعرفها؟ ولمَّ تشعر بانجذاب غريب نحو ابن عمه؟ وما الصلة التي قد تجمع بينهما؟ يعتمل داخلها الشعور وعكسه، سعيدة لرؤيته ثانية، وفي نفس الوقت مستاءة لكونه معها في نفس الجامعة، فهي مهووسة بتخصصها، ولا تريد أن يشغلها عنه شاغلًا، ولكن أقدار الله قد كُتبت، ولا بد من نفاذها، وطدت العلاقة بينهما، حيث شاركها في حبها للتصوير، وأدهشها بإحضار الكاميرا ذاتها، فعَظم شعور الامتنان لديها، ورددت في غير تصديق:

ـ غير معقول.. من أين اشتريتها بتلك السهولة؟ فلقد انتظر والدي قدومها لشهور منذ أن طلبها و...

ثم اقتضبت حديثها قبل أن تُكمل، وقد تذكرت قول أخيه بأنها باهظة في الثمن، فخَفَ بريق عينها، وصرحت باستيائها من ذلك، فهي لا تقبل العوض، وكيف فكر بها بذلك الشكل؟ إلا أن كريم ما لبث أن أصلح الموقف، وبرر لها قصده من ذلك:

ـ لقد أحضرتها لكِ كهدية يا سلمى، والنبي قبل الهدية، فاقبليها مني أرجوكِ.

ترددت سلمى كثيرًا، ونظرت له بتيه، بأي حق قد تقبلها؟ ومن يكون هو ليجلب لها هدية؟ لم تعرف ماذا تقول؟ ليُباغتها بقوله، يقطع عليها كل السبل:

ـ أنا أيضًا أحب التصوير كثيرًا، ولكني لا أعرف حقًا كيف أفعل ذلك باحترافية، فهل بإمكانك أن تُعلميني بتلك الكاميرا؟ أكون لكِ ممنونًا يا سلمى.

هزت رأسها في إيجاب مع جملته الأخيرة، وقد قرأت الصدق في عينيه، فصاح كريم في فرح، جذب إليه أنظار الحاضرين، فانتبهت إحداهن له، علقت بصرها به، وقد انقلب حالها رأسًا على عقب عند رؤيته، وأقسمت ألا تدعه يفلت من بين يديها، ستُلقي عليه بشباكها، وتظفر به مهما كان الثمن، حددت هدفها، بدأت في تنفيذ مُخططها، وما هي إلا دقائق، وكانت تجلس بجواره في سيارته، يسألها في قلق:

ـ هل تؤلمك قدماكِ؟

ادعت التعب، وهي تُجيبه:

ـ نعم، تؤلمني كثيرًا، سامحني فقد كنت في عجلة من أمري، ولم أنتبه لقدومك بينما كنت أسير، فالتوى كاحلي، ولم أقو على المشي دون مساعدتك، والآن أُتعبك معي، وتذهب بي إلى الطبيب.

اقترب اللقاءان في أحداثهما، ولكن، شتان بين شعوره تجاه سلمى ونحوها، فما يحدث بتلقائية لا يتشابه مع حيلة تم التدبير لها، فَرَد في هدوء:

ـ لا، لا تقولي ذلك، هذا واجبي، ولا تنسي بأننا زملاء بنفس الجامعة.

ومن هنا بدأت تأخذ معه في الحديث، تُعرفه عن نفسها، وتُخبره بالكثير، تتودد إليه بمختلف الطرق، وتُشاركه في كل تفاصيلها منذ ذلك اليوم، ولكنه لم يكن يستجيب لها، فقد كان قلبه مشغولًا بغيرها، وما أن علمت من تكون؟ أقسمت ألا تتراجع حتى تمحوها عن طريقه، وخاصةً وأن عمر أيضًا كان مفتونًا بها، وعرفت الحقيقة كاملة أثناء ذهابهم إلى رحلة استكشافية لجبل الوادي، حيث كلفهم المحاضر بكتابة تقرير عنه لأجل الجامعة.

ـ سلمى انتبهي، انتبهي يا سلمى..

لم يكد عمر يختتم حديثه حتى وصل إليها كريم، وتلقفها بين ذراعيه، فقد كانت على وشك السقوط من أعلى الجبل، كانت مبهورة بجمال المنظر هناك، وتسجل بالكاميرا مختلف اللقطات بتلك اللحظات الجميلة، إلا أنها كادت أن تخسر حياتها في لحظة غادرة، اهتزت الصخرة التي كانت تقف خلفها، ونزلت أسفل المنحدر، فأوشكت على أخذها معها عند السقوط، ولم يُخيل إليهم قط بأن هناك من حركها، والغيرة قد أكلت قلبها، تتبعها أينما ذهبت، وترصد كل تحركاتها، كما كانت نظرات عمر وكريم تلحق بسلمى.

ـ هل أنتِ بخير؟

ارتعبت سلمى مما حدث، وأخذت تلهث لالتقاط أنفاسها بينما يسألها عمر في خوف، وكريم رجيف قلبه يزداد من هول الموقف، أما رضوى وقفت في استياء، وقد أفسد عليها كلاهما المُخطط، فأدركت أنها لن تقوى على إيذائها طالما هما بالقرب، وتحتاج إلى قوى هائلة كي تُبعدهم عن طريقها، فتفعل ما يحلو لها.

ـ سلمى .. أجيبني أرجوكِ.. بمَّ تشعرين الآن؟

يُعيد عمر السؤال عليها، فهزت رأسها في إيجاب، لا تقوى على النطق بينما يقف كريم مصدومًا، كاد أن يخسرها في لحظة غادرة، فتجعد قلبه من الألم، شعر بالاختناق، ولم يتفوه بكلمة واحدة، وظل على تلك الحالة طوال الطريق حتى عودتهم إلى الجامعة، فقلق عمر عليه هو الآخر.

ـ كريم.. ما بك يا صديقي؟ لمَّ أراك واجمًا؟ لقد قمت بعمل بطولي اليوم، ويجب أن تفتخر بذلك، لا تستاء بذلك الشكل.

لم يلتفت إليه كريم، شرد بعيدًا، لا يستطيع احتمال فقدانها، الفكرة مرعبة للغاية، ولأول مرة يخاف بهذه الطريقة، تكالبت عليه الهواجس والمخاوف من كل صوب واتجاه، ولكن الشعور داخل عمر اختلف، وجه نظره نحو السماء في امتنان، يشكر الله من أعماقه على سلامة سلمى، تباين الإحساس داخل كل منهم على الرغم من وحدة الشعور، أما سلمى فأخذت تُفكر في شخص ثالث، ونقلت لها الذاكرة الحوار الأخير الذي دار بينهما، وحدث ذلك قبل سفرها بأيام.

ـ لمَّ وجهك عابس يا صديقي؟ أ لهذه الدرجة ستشتاق إلي؟

عقد ذراعيه أمام صدره، زم شفتيه، ثم أجابها في لوم:

ـ لم أتخيل قط بأنك قد تتركيني في أحد الأيام يا سلمى، فأنا لا أستطيع الابتعاد عنكِ ولو لثانية وحيدة.

احتضنت سلمى وجهه ببنانها الرقيقة، وانعكس الحب في عينيها، فهو ليس بأخيها الصغير، بل تراه كابن لها، قطعة من روحها، وقد كانت أول من يحمله، فاكتشفت فطرة الأمومة داخلها، لتتحرك عاطفتها بسؤاله، ورأت الوقت مناسبًا لإخباره بذلك.

ـ أ تعلم يا عبدالله كم كانت مقدار سعادتي وأنا أحملك بين يداي؟ كنت حينها صغيرًا للغاية، وأنا الفتاة ذات الضفائر تنظر لك في استغراب، ولا تُصدق بأن بطن والدتها المنتفخة خرج منها هذا العصفور، كما سمعتهم يقولون عنك.

تبسم عبدالله من تشبيهها له، فهو لم يعد عصفورًا، بل أصبح الآن يزن العديد من الكيلوجرامات، شهيته المفتوحة تدفعه إلى أكل كميات كبيرة من المعجنات من مخبز والده، ولا يستطيع أن يُقاوم رائحتها الشهية، فيتناولها بنهم، فهمت سلمى سبب تبسمه، وهو يتحسس جسده الممتلئ، ولكن ما لبثت أن اختفت الضحكة، حل العبوس مكانها، وهو يُصرح في ألم:

ـ يا ليتني ظللت عصفورًا يا سلمى، فكما ترين قد صرت بدينًا للغاية، ولأجل ذلك أتهرب من لعب الكرة مع أصدقائي، أخشى أن يسخرون مني، فلماذا تتخلين عني يا صديقتي المُقربة؟

نظرت له سلمى مطولًا، وقد تأثرت بقوله، السمنة مشكلة عويصة، وتحتاج من المرء صبر ومثابرة كي يصل لحل، التمسه في كلماتها:

ـ أنت جميل كما أنت يا حبيبي، والأصدقاء الحقيقيون يتقبلوننا كما نحن، فما من داعٍ لمخاوفك، ولكن أوافقك الرأي بأن الوزن الزائد يؤثر على أدائنا، يُشعرنا بالخمول، فيكون شاقًا للغاية فعل البسيط من الأشياء، إلا أنه تحدي كبير إن اكتسبناه، يتطلب قوة إرادة وعزيمة حتى نعود للوزن المثالي.

لمعت عيني عبدالله، فرأت سلمى الأمل بانعكاسهما، ثم فاجئها عبدالله بقوله:

ـ سوف أفقده إذن كي أصير بطلًا، وأحميكِ من كل الشرور والمخاوف التي تلحق بكِ، أتألم بشدة عند سماع صراخك، ولكنني لا أستطيع أن أصل إليكِ في الوقت المناسب دومًا، حيث أتحرك ببطء كالسلحفاة في مشيها.

ـ هل تُريد أن تكون بطلي يا عبدالله حقًا؟

هز رأسه في إيجاب، لتواصل هي الحديث:

ـ إذن الاغتراب هو الحل الوحيد لنكتشف ذلك، دع أختك تذهب خلف أحلامها، وأعدك بأنها ستكون بأفضل حال، لن يُصيبها مكروهًا قط طالما أنت معها يا بطلها المغوار.

صاح عبدالله في حماس:

ـ اتفقنا .. سوف نسافر سويًا، وأكون جانبك بكل خطوة يا أختي الغالية.

ضربت رأسها بكفها، لقد أساء عبدالله الفهم، فقالت موضحة:

ـ أنت معي يا عبدالله أينما كنت يا حبيبي، تسكن هنا داخل قلبي، فلا تُفرقنا المسافات أبدًا.

ظهرت علامات الحيرة على وجهه، بينما أردفت سلمى في محاولة منها لإقناعه:

ـ لنفترض بأنني أخذتك معي يا عبدالله، مَن الذي سوف يُساعد والدنا في المخبز ويشتري لأمي الاحتياجات التي تطلبها؟، وماذا سوف يفعل سمير من دونك؟ وماذا عن دراستك؟ كيف ستحصل على العلامات النهائية وأنت لا تذهب إلى المدرسة؟

ساد الصمت بينهما للحظات، وعبدالله يطرق بأصابعه على عقله كما يفعل والده عند التفكير، نكس رأسه إلى الأسفل، وفي عفوية أدلى لها برأيه:

ـ أنا سأكون بطلك كما قولتِ، وسوف أبقى مع أبي وأمي كي أحميهم أيضًا، حافظي على وجودي في صدرك، وناديني إن احتجتني، فأتي إليكِ في الحال، لن أتأخر يا أختي بعد خسارة هذه الكيلوجرامات الزائدة.

داعبت سلمى خدوده الممتلئة، وهي تشكره في فرح:

ـ بارك الله لي فيك يا أخي الحبيب، وأدام وجودك، سوف أنفذ كل ما قولته لي بالحرف الواحد، فلا تخف عليَّ.

*** * * ***

في أحد البنوك..

يجلس أحدهم في وقار، بينما يتكدره الهم، فقد كان مشغولًا بحالة والدته، ظفر بها الزهايمر، حتى أصبحت تنسى من تكون، ولا يلبث أن يُعرفها بنفسه كلما جلس قبالتها، وهو يزفر في حزن:

-أنا ابنك وليد يا أمي، لا أعلم والله لمَّ انطفأتِ، وقد كنتِ دومًا كالزهرة المَتفتحة.

فتُجيبه ببراءة الأطفال:

-لا تبك، أنت لست بصغير، أنا أيضًا ذهبت أمي بعيدًا ولم تعد.

تنسل دمعة سهوًا من عينيه، ويرتمى في أحضانها، ما أقساه من شعور حقًا حين لا يعرفك الأحبة، والأم ليست كأي حبيب، فتربت عليه، وهي تُردد في حنان:

-أنا أشعر بك، ولن أتركك حتى تعود أمك، وسأدعو الله لي ولك أن يجمعنا بأمهاتنا.

وضع يده على ثغرها في تلقائية، لا يُريدها أن تُكمل الجملة الأخيرة، فقد رحلت والدتها عن الحياة، ولن يقوى على رحيلها هي، فإن كانت أمامه ولا تتذكره، إلا أنه أهون عليه من فراقها، يصطبر على الحزن والألم في سبيلها، وبصدر رحب يحتمل سوء معاملة زوجته له؛ بل يحتويها حين يبطش بها الغضب، ولكن صراخها به لا يتوقف:

-إلى متى ستظل والدتك هنا يا وليد؟ تُنغص علينا حياتنا، لا أستطيع أخذ أنفاسي بسهولة ويسر، تُضيقها علي كثيرًا وخاصةً بملازمتي لها في البيت، فلا أخرج مع صديقاتي، وأخشى من قدومهم إلى هنا.

-إنها أمي يا رُقية، هل تُريدين مني طردها؟ ألا ينتابك شعور بالأسف حيالها؟ وقد فتك بها الحزن، وأصبحت لا تذكر شيئًا.

أجابته في استخفاف:

-وما ذنبي أنا؟ ليست بأول دكتورة تُحال على المعاش، فتترك نفسها بين براثن الاكتئاب في استسلام، ونعاني نحن معها.

نظر لها شزرًا، وصاح في حدة:

-لو تعلمين هو ليس بالأمر الهين، وقد كانت شمعة متقدة، تنطلق هنا وهناك؛ ليُصبح مصيرها في النهاية حبيسة جدران البيت، وهي لم تكن لتتوقف أبدًا، فأحاطها الفراغ من كل جانب، وهو كفيل بتدميرها، فإياكِ واللوم يا رُقية، كي لا تدور عليكِ عجلة الأيام، الحياة والله لا ترحم أحدًا.

زفرت رُقية في ضيق، لم تُبال بكلماته، وغادرت الغرفة تتركه مع همومه وأحزانه، فاستاءت والدته مما حدث، ورددت في ألم:

-لمَّ أمك قاسية بذلك الشكل؟ ومَن تكون الدكتورة جيهان التي تكرهها؟ هل هي التي تعطيها الحقنة حين تتعب؟ فلا تُحبها.

تبسم إليها، وتنهد في أسى، وباستسلام أجاب:

-نعم، هي تخاف من الحقن، ولكن، لا تكره الدكتورة جيهان كما تظنين، فهي أغلى إنسانة في حياتنا، ولا قوة لنا على العيش من دونها.

طرق على الباب دون توقف، يُعيده إلى اللحظة الحالية، يأخذه من وطأة الحياة الأليمة في بيته، فأجاب بصوت وقور:

-تفضل بالدخول.

جاء الموظف محمود لإمضاء بعض الأوراق من المدير، ولم يُخف عليه مسحة الحزن، التي تلوح على وجهه، على الرغم من محاولته للابتسام أمامه، فسأله في قلق:

-هل أنت بخير يا حضرة المدير؟

هز رأسه في إيجاب، وقال بثبات:

-الحمد لله الأمور طيبة بفضل الله.

-ولكني لا أسأل عن العمل، بل عن حضرتك، لا تبدو بحال جيد، ولاحظت ذلك منذ دخولي.

أرجع رأسه إلى الخلف، يستند على الكرسي الخاص به، أخذ يُفكر للحظات، ثم سأله:

-ماذا كنت لتفعل لو أمك مريضة؟ وترفض زوجتك وجودها في البيت.

صمت الموظف محمود لهنيهة، وأجابه في هدوء مُغلف بالألم:

-ولكن أمي كانت مرضية حقًا، ويا ليتني أنا الذي كنت مكانها، الأم هي الفاكهة الحلوة التي تطيب الحياة بها، ولا تجد شبيهًا لها، لتُظلم الحياة ويختفي بريقها إلى الأبد إن رحلت كفقيدتي، وجازي اللهم يا رب زوجتي خيرًا، لم تُقصر في حقها قط، ولطالما اهتمت بكل شئونها.

لامست كلماته مديره، فطلب منه في اهتمام بالغ أن يُخبره القصة كاملة، وعلى الفور لبى طلبه، شعر بحاجته لسماعها:

-حين مات أبي أثقل الحمل ظهر والدتي، إلا أنها كالصخرة الثابتة لم تُزحزح من مكانها، وقفت قبالة الصعاب تدفعها عنا، لا تؤل جهدًا لتوفير احتياجاتنا، وشبابها ما زال في الريعان، إلا أنها رفضت الزواج بأي رجل قط بعد حبيبها، فتحملت الوحدة، وصبرت على الفراق كي يجمعها الله به في الدار الآخرة.

ـ لقد كانت أمًا عظيمة إذن.

قاطعه مديره وليد، فهز رأسه في إيجاب، وواصل:

ـ أحسنت تربيتي حتى أصبحت شابًا يافعًا، وما أن خطفت قلبي إحداهن، وقفت جواري، على الرغم من عدم استعدادي وقتها، إلا أنها ساندتني، واستمددت منها القوة، أعمل ليل نهار بلا كلل ولا ملل، وهي تدخر لي المال، ثم تقدمت لأسماء، وقلبي يخفق خشيةً من الرفض، والعودة خائب الرجاء، كانت بالنسبة لي أغلى عطيةً في هذه الحياة، فاستجاب الله لدعائي وقر عيني بها، تزوجنا، وبعد عدة أيام...

شرد محمود بعيدًا، وكأنما تمثل أمامه المشهد، فلم يقو على إكمال حديثه، حتى شجعه مديره:

-ما الذي حدث بعد أيام من زواجكم؟

ـ اتصل بي الجيران، سقطت والدتي وتم نقلها إلى المستشفى، حيث سافرت مع أسماء لقضاء شهر العسل بعد إلحاح وإصرار شديد من أمي، فقطعت الأجازة على الفور، ولم تتذمر أسماء، كانت والله خير مُعين لي، اكتشفنا مرض والدتي بالسرطان، بنفس راضية وقلوب آمنت بقضاء الله، استقبلنا الخبر، ومع الآسف كان في المرحلة الأخيرة، فسهرت أسماء تحت قدمي والدتي، لا تتركها أبدًا، وكأنها ابنتها التي أنجبتها من رحمها، لا تذق طعم الراحة بينما كان النوم يغشاني حتى فاضت روح أمي الطاهرة بسلام، وتركت لنا دعواتها الطيبة تُحلق فوق سمائنا؛ فينفرج الكرب، ولا تطول الأحزان.

غشيت الدموع عيني الأستاذ وليد تأثرًا، فشتان بين تلك الزوجة وزوجته، تسيء رُقية معاملته، وتتمنى أن تُلقي بأمه خارجًا، ورغم كونها لا تستطيع الإنجاب، إلا أنها لا تلبث أن تجرحه ـ وقد أخفى عنها الحقيقة ـ لا تحتمل العيش بجانبه دون أبناء.

-أتمنى ألا أكون أزعجتك يا حضرة المدير.

نظر له في فخر، وهو يُردد في امتنان:

-على العكس يا محمود، فقد جاءتني قصتك بالوقت المناسب، وكم أنا فخور للغاية لوجود شخص مثلك بيننا، بارك الله فيك، وانتظر مني مفاجأة.

وقع المدير على جواب ترقية محمود، فالابن البار بوالديه يستحق أن يعتلي أعلى المناصب، وساعده كثيرًا بجمال كلماته، وهون عليه ما يُكابده، فثبت وقد اتخذ قراره إن خيرته زوجته في أحد الأيام، وسيكون ذلك وشيكًا كما توقع.

* * * *

- ٤ -

غدر الحبيب

لا بأس إن آذانا الآخرون، أما الحبيب فوالله تكون الضربة قاتلة، تُفضي بالمرء إلى عتبة الموت، فيرحل في ألم، ولا تذق روحه السلام مُطلقًا، ظهرت له روح سلمى عبر المرآة ثانية، وبصوت عنيف نهرته:

ـ لمُّ فعلت بي ذلك يا كريم؟ لمُّ لم ترحمني رغم كل توسلاتي إليك، كيف استطعت قهر حبي؟ وجاء موتي على يديك.

توقف الصوت قليلًا، ثم أكمل بنبرة اختلفت عن الأولى:

ـ هل من المعقول بأن ذلك هو جراء ذنبي مع عمتي نور؟ ولكنك ما لبثت حين أخبرتك الحقيقة أن طمأنتني، لتغدر بي في اللحظة المناسبة، حين آمنتك ووثقت بك أكثر من أي إنسان، فهل تتذكر كيف ومضت شرارتنا؟

أومضت في حافظته لحظات من مشهد قديم، وبدأت أحداثه في الظهور تباعا تتدفق إليه، فخفق فؤاده، وهو يرى ذكريات الماضي، كان ذلك بعد تلك الرحلة الاستكشافية، ما أن عادت سلمى إلى المدينة الجامعية بعد سفر شاقٍ طويل، فوجئت به يطلبها، وأخبرها بانتظاره لها بالأسفل، وعلى الرغم من تأخر الوقت، وكون الأمر ليس بالسهل أمامها، وبوابة المدينة قد أُغلقت، إلا أنها استطاعت التسلل، وفعلت ذلك الشيء لأول مرة في حياتها، وما لبثت أن صعدت بسيارته حتى طار بها مُسرعًا إلى مكان آخر، فسألته في قلق:

ـ إلى أين نحن ذاهبون يا كريم؟ ولمَّ طلبتني في مثل تلك الساعة؟

استأثر كريم بالصمت مع الثبات على ملامحه، وكأنه لا يسمعها، أو ذهب لغير المكان، انهالت عليه بالعديد من الأسئلة، وحين لم تجد منه ردًا يأست، وجلست في استسلام جانبه، لا تعلم أين يأخذها؟ إلا أنها كانت مطمئنة، فهو منذ ساعات أنقذها، وكاد أن يُضحي بحياته لأجلها.

وبعد دقائق معدودة..

توقف كريم عند أحد الأماكن، وطلب منها في هدوء النزول، نظرت حولها في ارتباك، وصاحت في استنكار:

ـ أين نحن يا كريم؟ ولمَّ أحضرتني إلى هنا؟ لا أرى قط مخلوقًا هنا.

ـ تعالي يا سلمى معي، وسوف ترين.

جذبها من يدها بعد ما ترجل من مقعده، وفتح لها الباب، نظر لها بحب، وهتف في حنان:

ـ لا تخافي يا سلمى، تعلمين بأنني والله لا أقوى على فعل أي شيء قد يُزعجك، فثقي بي أرجوكِ.

أسرها بنظراته وطريقته الساحرة، فانصاعت لطلبه وذهبت خلفه حيث يتجه، وبينما هي تسير فرغت فاهها في غير تصديق، حيث وجدت ذلك المكان مُهيئًا كقاعة السينما، شاشة عرض كبيرة هناك مع عدد اثنين من الكراسي أمامها، ووضع كريم الشريط داخل الفيديو، فبدأ الفيلم وطلب منها كريم في لطف الجلوس كي تُشاهده معه، فترددت داخلها تلك الخاطرة في استنكار:

(أنت غير معقول يا كريم، أحضرتني معك كل تلك المسافة بعد يوم شاق كي أُشاهد أحد الأفلام معك).

لاحظ كريم شرودها، فصفق بيديه كي تنتبه لما يُعرض أمامها، وتُركز في أحداث الفيلم، فما لبث أن ازداد استغرابها، وكأنها شاهدته من قبل، بل هي .. هي حكايتها معه، وعند وصولهم إلى اللقطة الحاضرة، وقف كريم قبالتها، وقد أحضر لها باقة من الورود يحملها في يديه، وعبر عن الشعور داخله لأول مرة:

ـ أنا أُحبك يا سلمى، لا أدري حقًا ما أصابني حين التقيت بكِ؟ سرقتِ مني هدوئي، وأصبح قلبي لا يرتاح إلا بحضورك، تغمرني سعادة بالغة، وفي خفة الطير أكون، وكأنه برز لي جناحان، فأحلق فوق سمائكِ يا خليلة روحي، ونبض الفؤاد، فهل تقبلين أن تكوني شريكتي في رحلة الحياة؟ نلتقي ولا تفترق طُرقنا قط.

كان كريم في أوج سعادته، وهو يُخبرها، إلا أنها صدمته برد فعلها، وعنفته في حدة:

ـ أريد العودة يا كريم في الحال، أرجوك خذني إلى حيث جئت بي.

تسمر كريم في مكانه من الصدمة، وكأنها قد صببت كوبًا باردًا من الماء فوق رأسه، وظل صامتًا طوال الطريق، لم ينظر قط نحوها، فقد أحدثت داخله شرخًا كبيرًا، توقف بسيارته على مقربة من بوابة المدينة، وما أن نزلت، ضغط على البنزين بأقصى قوته، فتبخر من المكان في ثوانٍ، اختفى من أمام أنظارها، فزفرت في ألم، وارتجف قلبها خوفًا عليه، وأخذت كلمات والدتها تتردد في أذنها:

(خذي حذرك من شباب الجامعة يا ابنتي، فهم لا يكفون عن خداع الفتيات، يتلاعبون بهن بأعسل الكلمات، وما أن تستسلم لهم الفتاة، يكشفون لها الوجه الحقيقي، ويتركونها من بعدهم مهزومة مكسورة، لا أحد يقبل بها، وقد سلبوا منها أغلى ما تملكه).

بكت سلمى من فعلها، وأخذت تلوم نفسها، فماذا لو كان كريم صادقًا؟ لمَّ أغلقت الباب في وجهه؟ الشعور داخلها هو نفسه، ولكن حال بينهما الخوف، ثم صرخت بأعلى صوتها، ونداء مُرعب يأتيها من المرآة خلفها:

ـ لن تنعمي بالحب قط يا سلمى، وقد حرمتني من جمال الشعور، تركني من أحب بسببك، وما أقساه الرفض يا سلمى! لا بد وأن تلقي نفس المصير.

تهز سلمى رأسها في نفي، وقد سيطر عليها البكاء، وأتعبتها شهقاته، تتوسلها في رجاء:

ـ سامحيني يا عمتي أرجوكِ، أقسم لكِ بأن الأمر لم يحدث بإرادتي، لم يكن لي ذنبًا فيما جرى، فكيف تُعذبين ابنتك بذلك الشكل؟

بدت وكأنها تستعطفها بجملتها الأخيرة، فهيئ إليها خروج دخان كثيف من المرآة، وحرارة أنفاس تُحرق وجنتيها، شعرت بها على مقربة منها، بلغ الغضب مبلغه، وأقسمت أن تنتقم منها، فكانت تأتيها بين الفينة والأخرى، ليزداد أنين سلمى، وتُزلزلها الخطوب من كل اتجاه، تلحق بها أينما ذهبت، لا قوة لها على مواجهتها، والآن وقد غابت أخباره عنها، لطالما هون عليها ما تُكابده، يستمع إليها، ويُطمأنها، مر أسبوعٌ كامل لم تر فيه طيفه، فسألت عمر عنه في حزن:

ـ أين كريم؟ ولمَّ لا يأتي إلى الجامعة؟ هل هو بخير؟

تأثر عمر بشدة، وهو يرى نظرات القلق في عينيها المُغلفة بالحب، ولكنها لم تكن لأجله، أدرك في هذه اللحظة حبها لكريم، إذن هي السبب في تبدل حاله، ورحيله المفاجئ بذلك الشكل عائدًا إلى مدينتهم، ترك الجامعة في وقت حرج، الامتحانات على الأبواب، إلا أنه ما لبث أن أخفى كل ذلك، وطمأنها:

ـ هو بخير الحمد لله، ما من شيء سيئ، ذهب ليرى والديه، وإن شاء الله سيعود قريبًا، فلا تقلقي يا سلمى.

(سافر كريم إذن، ذهب بعيدًا ولم يُبال بدراسته، ووحدي كنت السبب).

دارت داخلها مختلف الهواجس، ولم تعرف السبيل لإيقافها، وقد عَظَم الندم داخلها، بينما هو انكفأ على نفسه، ولا يُغادر قط غرفته حتى مجيئها، اخترقت عزلته، وهي تزفر في ضيق:

ـ أ ليس لك عمة يا كريم كي تسأل عليها؟

نهض كريم من فراشه، واتجه نحوها، وضع على خدها قبلة، وهو يرحب بها:

ـ عمتي كريمة في غرفتي، ما هذه المفاجأة السارة يا حبيبتي؟ لا تُصدق عيناي حقًا ما تراه.

نظرت له بنصف عين، وهمست بخفوت:

ـ اضحك علي بكلامك المعسول، أ تعلم أنها ليست بمفاجأة؟ بل معجزة أنني قدمت إلى هنا، وأنت تعلم مدى سطوة أمك.

ضحك كريم من قولها، وردد بلؤم:

ـ لطالما سمعت بأن العلاقة بين العمة وزوجة الأخ في كثير من الأحيان تكون متوترة، إلا أنني هذه المرة أكاد أُجزم بأن الحق معك يا عمتي، فوالله لولا وجود أبي لبطشت بي أمي منذ زمن.

انفجرت في الضحك عند سماع قوله، ودخلا في نوبة هستيرية، يُخفي فيها كريم ألمه، وتتناسى هي شعورها بالوحدة، وقد غاب عن الحياة حبيب فؤادها، ثم بعد دقائق، زفر كريم في ضيق، وتفوه في استياء بكلمات أذهلتها للغاية:

ـ لمَّ الحب مؤلم للغاية يا عمتي؟ لمَّ لا يصيب إنسانٌ إلا ويُعذبه؟ فيلحق به الأنين مع كل سكنة وحركة.

نظرت إليه في استغراب، لقد جرب الأمر إذن، ولكن، لمَّ هو مستاءٌ بذلك الشكل؟ هل رفضته حبيبته؟، وعند ذكر الرفض، عاد إليها ما كان منها بالماضي، فما لبثت أن صرحت به أمامه:

ـ هل تعلم يا كريم كم مرة رفضت بها خطيبي؟

في غير تصديق أخذ يستمع إليها، فهذا ما لم يتوقعه، وتأكدت حينها من ظنها، لتُكمل:

ـ لقد أحببته بشدة، وعلى الرغم من ذلك ظل الرفض هو رد الفعل الذي يجده مني لأعوام، لم يكل فيها أو يمل كي أغير رأيي، ولم يعلم حينها بأنني أهيم به عشقًا، إلا أنني كنت أخشى والله من عذاب الحب، فكنت أخفي شعوري.

كريم في استنكار:

ـ كم أنتن غريبات حقًا! لم أتخيل قط بأن تفكير الفتيات مثيرًا للشفقة بذلك الشكل.

وكزته عمته في ذراعه، وقال في تحدٍ:

ـ لو كان حبك صادقًا يا فتى لما استسلمت أبدًا، تضع يديك على خدك، وكأن الحياة قد انتهت بالنسبة إليك، كثرة الطرق على الأبواب يا كريم تفتحه، وقد تكون خائفة، ويجب عليك أن تجعلها ترى مقدار حبك.

جاءته كلماتها في الوقت المناسب، قبل رأسها، ثم ما لبث أن شكرها في امتنان:

ـ أسعد الله قلبك يا عمتي الحبيبة، وأخلف عليكِ خيرًا بمن يصونك و..

قاطعته العمة قبل أن يُكمل، وهتفت في حزن:

ـ لا تقل ذلك يا حبيبي أرجوك، وادع الله لي أن يجمعني بحبيبي في الجنة، ويقر عيني به، فقد صبرت على الوحدة كي أكون من نصيبه.

في اليوم التالي عاد كريم إلى الجامعة، ونظرات التحدي تنطلق من عينه، لن يتراجع حتى يظفر بحبها، وما أن رأته، انهارت في البكاء، وصرخت به من بين دموعها:

ـ أين كنت يا كريم؟ لمَّ تركتني؟ وقمت بمعاقبتي بذلك الشكل؟ أ لهذه الدرجة هونت عليك؟

ابتسم كريم ابتسامة المنتصر، وقد أدرك الآن حقيقة شعورها، إلا أنه ما لبث أن حزن من نفسه، واعتذر منها:

ـ أنا آسف يا سلمى، فوالله لم أقصد إثارة قلقك هكذا، ولكنني والله لم أحتمل رفضك لي، أظلمت الحياة في عيني، فما كان مني إلا أن هربت بعيدًا، والآن وقد اتصل شعورنا، لن يكون هناك من فراق ثانية.

ظفر الحبيب بحبيبته، وكانت قصة حبهم لتكون ملحمية لولا ما حدث في تلك الليلة، ففقدها كريم إلى الأبد، وظلت روحها تحوم حوله، تُريد الانتقام ممن خذلها، ساقتهم الأقدام إلى مكانها، عَظَم الألم داخلهم، وبلغت التساؤلات ذروتها في عقولهم، يُريدان أن يعرفا منها الإجابة مهما كانت شدتها، ستكون أرحم من ذلك العذاب الذي يفتك بهم أينما ذهبوا، على الرغم من تحذيرات الممرضين داخل المستشفى لهم، إلا أنهم دلفوا لغرفتها، فصرخت رضوى في وجوههم، وخرجت الحقيقة من بين أشداقها؛ لتغرس السهام داخل أفئدتهم، وهي تقول:

-لقد تملك الحقد مني، وأعمت عيني الغيرة، فقررت الانتقام منكم، ومحو وجه سلمى عن الأرض بأيديكم، استعنت بأحد السحرة، وجلب معه تابعيه، فألقى عليكم بتعويذة، جعلتكم تحت تأثيره، يلعب بكم كيف يشاء؛ بل يُحرككم كعرائس الماريونيت بين يديه.

نهضت من مكانها بغتة، واقتربت من الجدار أمامها في حذر، ثم أخذت تضرب رأسها فيه، تُجاهد بأقصى استطاعتها؛ لعلها تفقد ذلك الشعور، ولكنهم أوقفوها، والدماء من جبهتها تسيل، فُخصبت يديها به، أخذت تنظر في استنكار لأناملها، وصرخاتها تُغلف كلماتها، التي تفوح بالندم، وهي تُكمل في فزع:

-ولكنه لم يُخبرني بأن النهاية ستكون مفجعة بذلك الشكل، فجل ما أردته إبعادها عنكم، ولعلي ظننت بأنه قد يذهب بها إلى عالم الجن، فلا يعود لها وجودًا أمامكم، ويتبخر ذلك الحب، وكأنه لم يكن.

توقفت رضوى، وأخذت تجول بنظرها في هلع، وكأنما ترى شبحًا؛ بل شيطانًا أمامها كانت كلما وصلت إلى ذلك الحد، توقفت، ليظل الحديث مقتضبًا، فما زال هناك جزء مخفي، ليضم كريم رأسها بين كفوفه، رغم مشاعر الحقد والكراهية المعتملة داخله، إلا أنه ترجاها من بين دموعه، وفي حدقة العين يظهر انعكاس كلا منهما، فأغمضت رضوى عينها، كي لا يُوقفها شيء، وحتى لا ترى الاحتقار مُغلف بالكره أكثر في عينيه، فزفرت في استسلام، والعبارات تحرق حلقها قبل شفاهها:

-كان لا بد من تضحية، حيث فتح بسحره أحد الأبواب، وهاج الشر الذي استدعاه، بل خرج عن طوعه، فلم يعد يتحكم بأي شيء باستثنائكما، وحاول جاهدًا أن يلقي بكم ككبش فداء، وقد أعجبته سلمى، قرأت ذلك في عينه، ولكن...

لم يمهلها لتُكمل، دفعها شيء ما لا يرونه عاليًا، ثم أسقطتها أرضًا في قوة، فتصببت الدماء كالشلال من جبينها، وسقطت مغشيًا عليها، سقط قلب عمر وكريم عند قدميهما من هول المنظر، وعقدت

ألسنتهما مع تلك الضحكات المرعبة التي تُزلزل نفوسهم، فقدمت الممرضة سهير على عجل، وكأنما استطاعت سماعها، وطردتهم في انفعال خارج الغرفة.

ـ هيا بنا يا كريم.. هيا لنرحل من هنا يا أخي أرجوك.

تسمر كريم في مكانه، وكأنما تخشبت قدماه بالأرض، لا يجد منه عمر ردًا أو استجابة على استيعابه لقوله، ظل مشدوهًا بما سمعه ورآه، ولم تنفرج شفتاه حتى قدمت، فتوسلها والدمع يتدفق بغزارة من المقلتين لاإراديًا:

ـ أرجوكِ ساعدينا لنراها ثانية، ما زال هناك جزء من الحقيقة نجهله.

هي في حدة:

ـ لمَّ تستدعي لنفسك شر أنت في غنى عنه ولا قوة لك على احتماله؟

زفر كريم في ضيق، وردد بأسى:

ـ لا سبيل أمامي للتراجع الآن، وقد خسرت أغلى إنسانة على قلبي، وجدت نفسي داخل لعبة قذرة، لا بد لي من تبين كيف تم الأمر، فأنا أموت كل ليلة، ولا أحتمل شعور الذنب يعصف بي مع ظنها السوء بي، فلا تجد روحها الخلاص، يزداد عذابي وأنينها.

شعرت الممرضة سهير بالآسف حياله، إذن فهو يعرف تلك الروح كرضوى، وجمعته بها علاقة وطيدة بالماضي، وقد ينتهي الأمر حقًا إن هي ساعدته، ولا يعد من داع للاستعانة بتلك الساحرة، فالأمر يؤلم روحها حقًا، تخشى الموت وصلاتها غير مقبولة، فقد روى مسلم في صحيحه قوله صلى الله عليه وسلم : "من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة".

بعد تردد وافقت لعلها تتحرر هي الأخرى، وقالت في حزم:

ـ تعال الأسبوع القادم في نفس اليوم والساعة، لا تتأخر ولو ثانية واحدة.

برقت عيناه، يتشبث بالأمل من وعدها له، غادر المستشفى، وهو يُصوب نظره نحو السماء في امتنان، يشكر الله الذي منحه فرصة جديدة لتطهير روحه، فما أن تترابط كل الخيوط أمامه، سيعمل جاهدًا على إنقاذها هذه المرة من بين براثن الشر، حتى ولو كلفه ذلك التضحية بروحه في سبيلها.

****

في بيت الأستاذ فريد العدل ..

عادت العمة كريمة إلى والديها، وقد عَظَم القلق داخلها، وصرحت بذلك لهما، تُخبرهم بما وجدته عند أحفادهم:

ـ هناك أمر مريب يخفيه عمر وكريم يا أبي، لقد رأيت كريم في وضع سيئ للغاية، ولم يكن عمر بأقل حالًا منه، إلا أنه حافظ على بعض من ثباته أمامي، يشعرني قلبي بأن المصاب جلل، وأخشى حقًا مما هو قادم.

نهض الجد فريد من فوره، وسألها في تردد:

ـ هل أنتِ متأكدة يا كريمة؟ وما الذي باعتقادك يكون قد حدث معهم؟

هزت رأسها في نفي، وأجابت:

ـ لا أعلم والله يا أبي، إلا أنني خائفة للغاية عليهم، ولا أعرف كيف أُساعدهم، وهم يحفظون الأمر داخلهم.

ـ لعلك تُكبرين الأمر يا ابنتي، فأنتِ مرهفة الحس.

تفوهت والدتها بتلك الكلمات، تُحاول أن تُخفف من وطأة الأمر عليهم، فقد رأت علامات الارتباك على وجه زوجها وابنتها، إلا أنه ما لبث أن تدخل في حزم:

ـ لا يا سميحة، فأنا أيضًا ينتابني الشك حيالهم، ألمَّ تُلاحظي انقطاعهم عنا؟ وحججهم الزائدة بشدة انشغالهم حتى بعد انقضاء الامتحانات لم يأتونا، وقد أوشكوا الآن على التخرج.

بدت كلماته منطقية للغاية، فشاركتهم الشعور، وجلس ثلاثتهم يُفكرون فيما قد يفعلونه لأجلهم، وبعفوية قالت كريمة:

-سأُخبر حضرة الضابط عادل بكل التفاصيل، أوكله بتلك القضية؛ ليحلها لي كما اعتاد أن يفعل.

نظر والديها إليها في استغراب مُغلف بالحزن، فارتدت إليها نظراتهم، حتى استوعبت ما قالته، فهرولت إلى غرفتها، وهناك استسلمت لأحزانها، وتكالبت عليها الذكريات من كل حدب وصوب، لا ترحمها، فعادت في الزمن إلى الوراء، وإذ بها ترى المشهد.

قبل عشر سنوات..

أوشكت كريمة على تجاوز الثلاثينات، وإن كانت ملامحها تجعلها تبدو كالطفلة الصغيرة، كانت فرحةً للغاية، تم ترقيتها؛ لتتولى منصب مدير إدارة في الشركة التي تعمل بها للأدوية ومستحضرات التجميل، تُكمل حلم والدتها، فقد ورثت عنها ذلك الشغف، سرحت بعيدًا، وطاف بها الخيال، لم يكن هناك من أحدٍ في الشارع الذي تسير به، بينما كان هو عائدًا من عمله مُجهدًا للغاية،

أثر السهاد حول جفونه، مرت عليه أيامٌ، لم يذق بها طعم النوم، لا ينظر أمامه، وكذلك كانت تفعل، وهي تفرد ذراعيها على اتساعهما، فاصطدما ببعضهم، لتشهق في استنكار:

-ألا تنتبه للطريق وتنظر أمامك؟

لم يُجبها، أو يلتفت إليها حتى، كان منكبًا على الأرض، يجمع الأشياء التي سقطت من يده، ثم ظهرت مسحة حزن على عينيه، وشاهدت اسم حقن الدواء، وقد تفتَّت، فرددت في تعجب يشوبه الألم:

-سيكلوفوسفاميد! هل أنت مريض سرطان؟

هز رأسه في نفي، وصرح في حزن:

-والدتي هي المريضة، وقد تكبدت العناء كي أُوفر لها هذه الحقن و...

-أعلم بأنها باهظة الثمن.

قاطعته قبل أن يُكمل، ثم أردفت:

-وكذلك لا بد من وصفة طبية لصرفها، ولا يعطي الصيدلي لطالبها سوى جرعات محدودة.

-لقد طلبتها لأمي من الخارج، وساعدني صديقي الطبيب في ذلك، فماذا سأفعل الآن؟ ووالدتي لا تحتمل الألم، ينخر السرطان في نخاع عظامها دون رحمة، ويُخفف ذلك الدواء من وطأة الأمر عليها، شعرت بالآسف الشديد لخطؤها، وقالت في ندم:

-إن شاء الله سنستطيع توفير ذلك الدواء لوالدتك ثانية.

-وكيف ذلك؟

صاح في استنكار، فهدأته بكلمات مواسية:

-ما من مشكلة إلا ويوجد لها حلٌ، وكما كنت السبب في ما حدث، أعرف كيف أُصلح الأمر.

سكتت لبرهة، وأكملت:

-أنا دكتورة صيدلانية، وسأوفر لك الدواء في أقرب وقت.

تنهد عادل في ارتياح، ولانت ملامحه، وهو يقول:

-الحمد لله قدر ولطف، فمتى يُمكنك أن تأتيني به؟

سألها في لهفة، فهو ضابط في الجيش، ولا تطول أجازته، جاء للاطمئنان على والدته، وإحضار الدواء لها، ثم سيرحل بعد أيام، أبعدت عنه الرَوَع ثانية، وطمأنته:

-اليوم أو الغد على أقصى تقدير سيكون عندك إن شاء الله، فاكتب لي العنوان من فضلك، وتوقع وصوله بأي وقت.

لم يكن توفيره بالأمر اليسير كما ظنت، وخاصةً مع ضيق الوقت أمامها، إلا أنه ما كاد يرحل من أمامها حتى أخذت تُجري اتصالاتها، وقصدت مختلف الصيدليات، حتى أقبل الليل، فانتاب والديها القلق عليها، وجدت والدها يتصل، بينما تجلس الدكتورة سميحة جواره، وما أن فتحت الخط لتُجيب، أخذت الهاتف منه، وصرخت بابنتها:

-أين أنتِ يا كريمة؟ لمَّ تأخرتِ في العودة بذلك الشكل؟ لقد فات موعد خروجك من العمل منذ زمن.

لم يكن منها إلا أن أخبرتها بما حدث، فجاء منها خير التصرف، وساعدتها في طلبها، حيث أرسلتها إلى أحدهم، وأخبرها بأنه في الغد ستجدها أمامها، شخصية مثل والدتها لا يُرفض لها طلبًا، وقد افتتحت صيدلية بالمجان، توفر فيها أغلى أنواع الأدوية، ولكن لم تجد بها ما تحتاجه ابنتها؛ ليُحفر بداخلها ذلك الموقف، فكل ما يزرعه المرء يحصده، وكم يتهافت الناس لرد الجميل إلى شخصية أغدقت عليهم بخيراتها، ولم تتأخر عنهم، ومع ذلك أُبتليت بزوجة ابن، أسوأ ما تكون بالنسبة لابنة، لا أم وشريكة لزوجها، فزفرت السيدة سميحة في ضيق، بدا جليًا أثناء حديثها مع زوجها:

-لا أعلم حقًا أين كان عقلي وأنا أقبلها زوجةً لابني؟

الأستاذ فريد في استغراب:

-عمَن تتحدثين يا سميحة؟

-عن فادية طبعًا، وهل يوجد غيرها؟

صمتت لهنيهة، ثم واصلت:

-لا أعرف حقًا لمَّ نادوها بذلك الاسم؟ وهو بعيد كل البعد عن صفاتها، لم أر قط امرأة غيورة مثلها، نصيبها من الأنانية يفوق ما قد يمتلكه أي إنسان، والله لا يستحق ابني أن يكون حظه تعيسًا بذلك الشكل.

-وكأنني أشتم رائحة النيران، هناك من تقوم بدور الحماة.

يمزح معها زوجها؛ ليُخفف من وطأة الحزن عليها، شعوره ليس بأقل منها، ولكن النصيب غلاب، ماذا كان بإمكانهم أن يفعلا، وقد أحبها محمد؟ وعند ذكر الحب يتراجعا في استسلام، حيث كان ما جمع بينهما، وأُغرم كلا منهما بالآخر، ولكن وضعهما اختلف، وكأن الأشخاص تأتي عند ذكرها، وقفت فادية في شرفة غرفتها بالأعلى تستمع إليهم، فانتظرت عودة زوجها من الخارج، ثم أفرغت ما في جعبتها أمامه:

-هل رأيت يا محمد كيف يتحدث عني والداك؟ لا أعلم لمَّ يضطهدونني بذلك الشكل؟ ويفرقون في المعاملة بيني وبين شيرين.

ألقى زوجها (الدكتور محمد) بجسده على الفراش، وقد بلغ منه التعب مبلغًا عظيمًا، ورَد عليها في ضعف:

-وهل لاحظت يا حبيبتي كيف تُعاملينهم؟ شيرين لا تتأخر قط عنهم، وتنزل لمساعدة أمي بكل شيء رغم انشغالها.

صاحت في حدة:

-قل إذن بأنك لم تُحضرني كزوجة؛ بل خادمة لأمك.

هز رأسه في نفي، ويحاول في هدوء أن يُوضح لها قصده، إلا أنها لم تكن لتستجيب، لا صوت يعلو فوق صراخها، على النقيض من شيرين، تلك الزوجة المُسالمة التي لها حضور ملائكي، ولا يُكاد يسمع لها صوتًا قط في بيتها، تُزينه بالسكينة والحب، ولكنه كان دومًا يهدم كل ذلك بعجرفته، من يراه لا يُصدق بأنه خرج هو وأخيه محمد من نفس الرحم، فكان هو صاحب القوة الشريرة في بيته، ولولا تدخل والداه، وحسن أخلاق زوجته، لبطش ذلك بأسرته ضرب الرياح، تستقبل شيرين زوجها (العقيد حسام) بابتسامة لطيفة ونبرة هادئة، فما يلبث أن يلقي بمعطفه عليها في طريقة غير لبقة، بعيدة كل البعد عن مكانته، وعلى أقصى تقدير كونه متعلمًا، فصاحب المؤهل المتوسط أحيانًا ما يكون قمةً في أخلاقه، وقدوةً يُحتذى بها في التعامل.

-ماذا لديكِ اليوم من طعام؟ أنا جائع للغاية، وعصافير بطني تُزقزق.

يسألها في حدة، فأجابته في لطف:

-ثوانٌ معدودة وسيكون الطعام جاهزًا أمامك يا حبيبي، فارتحَ حتى أُحضِره.

لم يُحلق الحب فوق سماء الوالدين فقط، وترك الأبناء، كانت كريمة في غرفتها شاردة، تُفكر في ذلك اللقاء، فما بين طرفة عين وانتباهتها تتغير كثيرًا الأحوال، هي لا تُشبه تلك الفتاة التي خرجت صباح اليوم، عادت والخواطر تتسابق إلى ذهنها ممزوجة بالعواطف الجياشة التي لم تعرفها من قبل، دخلت إليها الدكتورة سميحة بينما هي في غمرة الاضطراب والحيرة، واستطاعت قراءتهما، فسألتها في لؤم:

-مَنَ هو ذلك الشاب الذي استطاع أن يُشغل تفكير ابنتي به؟

انتبهت كريمة لقولها، وبادرتها بسؤال آخر في استغراب:

-عن أي شاب تتحدثين يا أمي؟

-ذلك الشاب الذي أخبرتني عنه صباح اليوم، واهتممت كثيرًا بأمره.

ثم أخرجت من وراء ظهرها مظروفًا، وناولتها إياه، فطارت كريمة من الفرح، احتضنتها، وهي تهمس لها بحب، طبعت القبلات على خديها، وعبرت عن امتنانها:

-شكرًا لكِ يا أمي، لا أعرف حقًا كيف أشكرك يا دكتورتي الرائعة، كم كنت مستاءة ولا أجد سبيلًا لإزالة الهم الرابض فوق صدري.

نظرت لها في اهتمام:

-أ لهذه الدرجة يعنيكِ أمره يا ابنتي؟

ارتبكت كريمة، وتصبب العرق من جبينها، هل أُفتضح شعورها بهذه السهولة؟ لا تجد من الكلمات ما ينقذها، ووالدتها تحصر عليها الدائرة بأسئلتها المباشرة، فتحججت كريمة بأن والدها يُناديها، فتبسمت لها، ونظرت لها نظرة ذات معنى، تعلم بأن زوجها (الأستاذ فريد) لم يطلبها، إلا أنها تركتها، وغادرت الغرفة، لتتنفس كريمة الصعداء، وهي تقول:

ـ الحمد لله.

ثم جالت ببصرها في الغرفة، تبحث عن الحقيبة أين وضعتها؟ ويوجد بها ذلك الرقم الذي لم تتردد في طلبه، على الرغم من تأخر الوقت، ليُجيبها الشخص على الخط بصوت ناعس:

ـ السلام عليكم.. مَنَ المتصل؟

تلجلجت كريمة في الحديث، وظلت صامتة للحظات، حتى كادت أن تُغلق الخط مع كثرة تساؤلاته، إلا أنه أوقفها في اللحظة الأخيرة، فقد تبادلا الأرقام في الصباح، وسجل اسمها عنده، فناداها به:

ـ دكتورة كريمة صحيح، هذه هي أنتِ؟

خفق قلبها عند سماع اسمها منه، وزاد ارتباكها، فأكمل هو حديثه:

ـ إن شاء الله يكون لديكِ أخبار حلوة.

ـ نعم، فالحمد لله قد أحضرت لوالدتك الجرعات التي تحتاجها.

سَعد كثيرًا، ولم يعرف كيف يشكرها، إلا أن بعض الكلمات خرجت منه بعفوية:

ـ كم أنتِ رائعة! أسأل الله ألا يحرمني منكِ ولا من وجودك.

عزفت جملته الألحان على أوتار قلبها، ومالت إليه رغم تحذرها، فكم رفضت من عرسان تقدموا إليها، أوصدت الأبواب جيدًا، ووحده من استطاع فتحها، ولم تتأثر قط بمرور العمر بها، فكل من في مثل سنها لديهم أبناءً، وكونوا أسرًا باستثنائها، هامت عشقًا بمن هي أسن منه، حيث في الحب لا يُشكل السن فارقًا، ومنذ ذلك اليوم أصبحت ترى الحياة من خلاله، حتى وصلها خبر استشهاده أثناء خروجه في مهمة، وجال بذهنها آخر لقاء جمعهم:

ـ لا تعلمين يا كريمة كم يتلهف قلبي شوقًا لذلك اليوم، أتمنى أن يجمعني الله بكِ على عجل، فتُصبحين ملكةً على عرش بيتي في كلا الدارين الدنيا والآخرة يا رب، تكوني لي زوجةً.

تفوه بتلك الكلمات بحب، وهو ينظر في عينيها، فقرأت الصدق، وأصبح الشعور نفسه داخلها، إلا أن الخوف ما لبث أن تسلل إلى قلبها، شعرت وكأنه يُودعها، فرددت في حزن:

ـ لمَّ أشعر وكأنك تودعني يا عادل؟ هل هناك أمر ما تُخفيه عني؟

أشاح بنظره بعيدًا عنها، كي لا تُلاحظ قلقه، فقد كانت مُحقة، ليُغير مجرى الحديث:

ـ أخبريني يا كريمة كيف تظنين بي كزوج؟ هل سأكون صالحًا أم سيئًا؟

ضحكت كريمة من قوله، وأجابت في مزح:

ـ هيئتك تقول بأنك شخص طيب، ومعاملتك لي أحيانًا تؤكد ذلك، إلا أن البعض يُجيد التلون، وأخشى أن يصدمني ما أراه حين تُغلق الأبواب علينا.

فتبسم لها عادل، وغمز لها بعينيه، وردد بلؤم:

ـ إذن أنتِ خائفة مني، ويبدو بأنه سيَصدق حدسكِ في النهاية.

وكزته كريمة في ذراعه، وهتفت في حب:

ـ أينا كان ما يصدر منك سأظل أُحبك يا حبيبي حتى آخر العمر.

وبينما هم يتحدثان، دخلت والدتها الدكتورة سميحة تحمل صينية الشاي والبسكويت الذي يُحبه، أعدته خصيصًا لأجله، فما أن تقدمت في السن تبدل شغفها، وأصبحت تفضل أصناف الحلوى، تكتشف كل يوم نوع جديد منها، ولا تلبث أن تُجربه، ثم تضيف إليه بعض الأعشاب العلاجية، وغيرها من الوصفات التي لها علاقة بما درسته من قبل.

تهلل وجه عادل عند رؤيتها، ورحب بها قائلًا:

ـ وأخيرًا طل القمر علينا، كيف هو حالك يا دكتورتنا؟

ـ ابني الحبيب، بارك الله لي فيك، الحال طيب والحمد لله، اعذرني لكوني تأخرت عليك، فقد أعددت بعض الحلوى لك.

ناولته إياها، فما لبث أن وضعها في فمه، ثم أشاد بها:

ـ سلمت يداك يا دكتورة سميحة، حقًا تدهشيني كل يوم بجمال ما تُعدينه لأجلي في كل مرة.

ـ بالهناء والشفاء يا حبيبي، وهل لدينا أغلى منك؟

انجلى المشهد بعيدًا، وبقيت الذكرى حاضرة، تُتعب أصحابها وخاصةً عند رحيل البعض منهم، غادروا الحياة على حين غرة، دلفت والدتها إلى داخل الغرفة، وصدق حدسها، وجدت ابنتها مُنهارة في البكاء، وقد أنهكها التذكر، ولا تدري بأنه لا يُفارق مخيلة كريمة قط، فتكون محقة فيما تقوله:

ـ ارحمي نفسك يا كريمة، الحياة يا ابنتي لا تتوقف عند محطةٍ واحدةٍ، ويجب عليك أن تُكملي الرحلة، عادل ـ رحمة الله عليه ـ لم يعد موجودًا، وإلى متي ستظلي تُعذبين نفسك؟

صاحت كريمة في استنكار، وهي تُردد من بين دموعها:

ـ كيف لي أن أنساه يا أمي؟ وأنتِ بنفسك من تطلبين ذلك، وقد شهدتِ مقدار عطفه وحنانه، حتى إنني والله ظننت للحظات بأنه يُحبك أكثر مني، فلم يلبث أن يُعاملك بكل بود.

أوقفتها الشهقات، وقد بلغ منها التأثر حدًا عظيمًا، ولكنها أصرت أن تُكمل:

ـ لا يا أمي لا، لم أتوقع والله سماع تلك الكلمات منكِ، أ أنسى عادل؟ أنسى من على يديه أبصرت الحب، لا والله هناك أشخاص نُقابلهم في حياتنا مرة واحدة، يُحفرون داخلنا، ولا يعوضنا أي شيء قط عن عدم وجودهم.

ضمتها الدكتورة سميحة إلى أحضانها في ألم، وشاركتها في البكاء، كان عادل خير الرجال، بل الأبناء التي حظيت بهم حتى أنه والله، كانت مكانته أعظم بداخلها ممن حملتهم في رحمها، وكلما مر بهم صعب شعورا بمقدار النقص الناتج عن غيابه، وكأن الحياة بالنسبة لهم فقدت أحد أضلاعها، كان ليُساعدهم دون تردد في فك ذلك اللغز الُمعلق بكريم وعمر، هناك ما يُخفونه، ويبدو بأنه قد فرض عليهم سيطرته، فلا يعودوا قط إلى بيوتهم، ويروا عائلاتهم.

*** * * ***

-٥-

الحدث المشئوم

الصُحبة هي مرآة المرء، يرى فيها انعكاس ما بداخله، فإن كانت صالحة فاز المرء في الدنيا والآخرة، وإن كانت غير ذلك أصبحت وبالًا عليه، تستدعي له الشر من كل اتجاه، احتجبت الشمس خلف السحب، وانتصف القمر في كبد السماء، ليست بليلة مُظلمة، ولكن، القلوب الحاضرة استفحل فيها السواد، واستعظم، عيد ميلاد رضوى، الفتاة الحبيبة لدى والديها، يأتون لها بكل مطالبها طواعيةً، فانبجست عيون المصائب من هذه النقطة، أبت عليها كرامتها أن تُرفض، فزفرت في غضب أمام صديقتها سهى:

ـ والله لأقتص منكِ يا سلمى، ليست رضوى بالفتاة التي تخسر.

ما كان منها إلا أن شجعتها، وقالت:

ـ افعلي ذلك الأمر دون تردد، فمَنَ تظن بنفسها؟

ـ اليوم سيكون بالنسبة إليها لا يُنسى، سأحرص على تعليمها فيه عدم أخذ شيء لا يحق لها، كريم ملكي، ولن يكون لسواي، حتى عمر وإن كنت لا أبالي به، لن أدعه يظفر بها، سوف أسحقها عن وجه الأرض كالحشرة الصغيرة لا قيمة لها، ولا يهتم أحد عند موتها.

انعكست نظرات التحدي في عينيها، تُنذر باقتراب السوء، فلم تُحاول سهى منعها، بل على العكس ساندتها، فتمادت في ظلمها، وقررت ألا تتراجع حتى تبطش بمنافستها، لا تحترم أي قواعد، ولا يصحو ضميرها، حيث كان ذلك حصاد ما غرسته تلك المرأة المغرورة بها على مدار السنوات حتى كبرت، وأصبحت نُسخة أشر منها، فلم تعرف ذلك الطريق من سواها.

قبل شهر..

رضوى عائدة من الخارج في وقت متأخر، وجدت أضواء مكتب والدها (الدكتور عماد) مشتعلة، فعَلمت بأنه ما زال مستيقظًا، ولم تكن بمزاج جيد للدخول في جدال معه، فاضطرت لسلك طريق مختصر إلى غرفتها، لا يراها أو تصطدم به أمامها، دخلت من الباب الخلفي للفيلا، ومرت من خلال السرداب، فسَمعت صوتًا غريبًا يأتيها، وكأنما يستغيثها أحدهم من مكان ما، لا تعرف أين هو؟ إلا أنها وجدت السلاسل مربوطة حول مرآة، نظرت إليها مطولًا، ثم قالت وقد تعرفت عليها:

ـ لقد رأيت تلك المرآة من قبل، نعم .. إنها هي، لقد أهديتها لأمي منذ سنوات، فلمَّ تُقيدها بذلك الشكل؟ عليَّ أن أخذها إلى غرفتي، ولا أتركها وسط التراب مُهملة بذلك الشكل، ولكنها ما أن أوشكت على فك السلاسل، دفعها شيء ما بعيدًا حتى اصطدمت بالجدار خلفها، فتعجبت رضوى، وفرغت فاهها، تسأل في استنكار:

ـ مَنَ هنا؟ أجبني على الفور، فأنا لست بخائفة.

قالت جملتها الأخيرة بارتباك، وقد هَالها تلك الأحداث الغريبة التي تتعرض لها، تمنت لو بإمكانها أن تفعل ذلك بسلمى، تستدعي تلك القوى الغريبة، وتُسخرها لمساعدتها، حاولت حمل المرآة إلى الأعلى كما هي، إلا أنها لم تستطع، وكأن السلاسل أثقلتها، بل حفرتها داخل الأرض، فلا تلفظها بسهولة، إلا أن الفضول داخلها تغلب على الخوف، تصرخ بصوت عالٍ:

ـ أخبرني من تكون؟ ولا تخف، سأكون لك خير صديقة.

اهتزت المرآة بشدة، ولوقع السلاسل عند ارتطامها بالأرض صوتًا مُهيبًا، وعلى الرغم من ذلك لم تتراجع، حتى سالت الدماء على سطح المرآة، أخذت الأعداد في الظهور حتى اكتمل الرقم مصبوغًا باللون الأحمر، فسجلته رضوى على الفور، ثم اتصلت به، وتركت المكان على عجل بعد ما جاوبها بصوته الغليظ، وأهداها إلى السبيل الذي تصل به إليه، ارتجفت من شدة الخوف، وجدت نفسها في مكان مهجور، فُقدت فيه أشكال الحياة منذ زمن، لا تلمح أثرًا لمخلوق، وأطبق الظلام بجناحيه كالشبح، فلا تهتدي لأي نور، وباغتها بظهوره أمامها ذو هيئة مُرعبة، تطابقت كثيرًا مع ذلك الصوت، حرك عباءته بحركة دائرية، فأصبحا في لمح البصر بمكان غير المكان، واختلف الزمن، فسألته في ارتباك:

ـ أين أنا؟ وما هي مقدار القوى التي تمتلكها؟

أجابها في صوت مُزلزل، أخذ صداه يتردد في الأرجاء من شدته:

ـ لمَّ اقتربتِ من تلك المرآة؟ وكدت تتجرأين على فك عقدي عليها.

صاحت في استنكار:

ـ غير معقول.. أنت ساحر و..

اقتضبت حديثها ثم قالت بعد فترة صمت:

ـ أريد منك أن تُساعدني، وليكن لك كل ما تطلبه.

عادت به تلك الكلمات إلى الماضي، حيث تشابهت طريقتها مع إحداهن، فتمايز غيظًا أمام هذا الإصرار الشديد، وقد أخذت تُكررها دون توقف، لينهرها في غضب:

ـ وما الذي بإمكانك أن تُقدمينه لي أيتها الصغيرة؟

ـ أي شيء تُريده أنا على استعداد له.

أجابته في عفوية، لم تُفكر ولو لبرهة في عاقبة الأمر، فابتسم في تشفٍ، لا تلبث الجميلات أن تأتي بنفسها إليه، إلا أن شعوره نحوها اختلف كثيرًا عن تلك المرأة التي تمنى أن يلتقي بها ثانية، كانت ليلته معها لا تُنسى، أما هذه الفتاة عليه أن يُفكر كيف يستخدمها لصالحه بطريقة أخرى.

ـ ليكن لكِ طلبك إذن.

اتفق مع رضوى على كل شيء، ووافقت على شروطه، لم تعترض قط، وقد أكلت الغيرة قلبها، يُكرر الزمن نفسه، ولكن سيكون خلاص روح والدتها على يديها، عَرفها الساحر كيف تنزع السلاسل عنها، وسوف يستعين بها في تنفيذ مُخططه، فكم كانت إيناس مخمومة القلب! ولم تستحق قط تلك النهاية المُفجعة.

(انتظري لتري ماذا سأفعل بكِ يا سلمى).

تفوهت رضوى بتلك الكلمات في زهو مُكلل بالإعجاب، فتلك الحيلة لا يقوى على تنفيذها أي إنسان، وجاء اليوم الموعود على عجل، استطاعت فيه رضوى أن تفرد عليها بشباكها، فالفتاة أدرى بمداخل الفتاة مثلها، جعلتها تقبل دعوتها، وهي تتدعي البراءة بقولها:

ـ اليوم ستكون حفلة عيد ميلادي يا سلمى، وعلى الرغم من أن كريم يبدو جيدًا معكِ، إلا أنه طلب مني ألا أُخبركِ، يرى بأنكِ لن تُجيدي التصرف، ولعله يُريد أن ينفرد بجميلات الحفلة، فلا يُنغص عليه ذلك الأمر حضورك.

انتفخت أوداج سلمى من الغضب، ورددت بيقين وثبات:

ـ ما دومتي تُريدين مني أن أحضر، لن أتأخر قط يا رضوى، وشكرًا لكِ على الدعوة.

طارت رضوى فرحًا عند سماعها، احتضنتها، وهي تُقبلها مع ابتسامة صفراء تلوح من ثغرها، لم ترها ضحيتها، لم تَصدَقها القول، ووصلت دعوة الحفل إلى كريم وعمر عن طريق الدكتور عماد، الذي أعطاها إليهم في نبرة آمرة:

ـ سأنتظركم في الحفل اليوم، وستكون لدي حينها ملاحظات على مشروع تخرجكم، فلا تتأخروا يا أولاد.

نظرا لبعضهما البعض في حيرة، لا يُريدان الذهاب، إلا أنه لم يكن أمامها بدًا سوى الاستسلام لقوله، عُرف عنه انعدام ضميره، واستغلال منصبه لمصالحه الشخصية، ولن يتردد قط في تعطيل مصالحهم لأجل تلك المتعجرفة الحسناء، فردا في نفس واحد:

ـ سنكون هناك إن شاء الله، شكرًا لحضرتك على الدعوة.

جاءت الليلة الموعودة على عجل، تسارع فيها الوقت، وتسابقت إليها الأقدام، ما بين الأهل والأصدقاء، وكذلك مدعو المحبة، وكانت منهم السيدة منال، التي أخذت توصي أفراد عائلتهم بحسن التصرف، ووجهت لهم التعليمات:

ـ عليك بفعل أي شيء للتودد إلى رضوى يا محمود، أما أنت يا إبراهيم فحاول جذب انتباه الدكتور عماد إليك، اجعله يتوهم بشدة ثرائنا، فهو يلهث وراء الأموال مثلنا، وتلك الزيجة ستكون خلاصنا من تلك الديون، وتحمينا من الإفلاس.

ـ ولكن رضوى لا تُطيقني يا أمي.

تفوه محمود بتلك العبارة في استياء، لتنقل والدته خبرتها إليه:

ـ هذا ليس بصحيح يا محمود، وإن كان، بإمكانك أن تُغيره، لكل فتاة مداخلها، ودومًا يكون هناك ثغرة إن عرفتها، فُتحت لك كل الأبواب المغلقة.

سكتت لهنيهة، ثم لمعت عينيها، وهي تُكمل كأنما التقطت فكرة كانت غائبة عنها:

ـ رضوى تعشق التصوير يا محمود، وأنت مصور فوتوغرافي ماهر، أريها قدراتك، واجعلها تُفتتن بك.

لمعت عينه هو الآخر، وهو يهز رأسه في إيجاب، سيسير خلف نصيحة والدتك دون تردد، فتلك الفتاة إن أصبحت من نصيبه ستغدق عليه بالخيرات من كل جانب، وحينها لن يُفتضح أمره هو وعائلته قط أمام أي إنسان.

داخل الفيلا..

اجتاح السيدة نوران شعور غريب، وكأن هناك من يُراقب تحركاتها، وهناك حرارة أنفاس بالقرب منها، إلا أنها ما لبثت أن استبعدت الفكرة المطروحة داخل عقلها، وتذكرت الثمن الذي دفعته من قبل، خادنت ساحرًا، وبدم بارد عادت إلى جوار زوجها، نام ضميرها، فأصبح الخطأ والصواب في نظرها سواء، ولكنها لم تُجرؤ على الذهاب إلى هناك ثانية، رغم كثرة محاولاته لاستدعائها، وكأنما أراد منها الاستمرار في الأمر، فتشبث كالغريق بالقشة، وكانت رضوى هي السبيل إليها بعد ما فكت قيد المرآة، فتحررت الروح داخلها على يد الابنة، التي لم تمهلها الحياة برؤيتها تكبر بين أحضانها.

ـ رضوى.. أين أنتِ يا حبيبتي؟ هل انتهيتِ؟

دلفت إلى داخل غرفتها، تُناديها، فتفاجئت بعدم وجودها بالداخل، أين من المعقول أن تكون قد ذهبت؟ وهي ضيفة الحفل اليوم، بدت علامات الاستغراب على وجهها، ولكن لم يهدها عقلها إلى التفكير قط بأن الفتاة التي ربتها منذ الصغر ستكون السبب في هلاكها كما فعلت بوالدتها.

ـ سلمى.. لقد جئتِ، لمَّ تجلسين بسيارة كريم؟ تعالي إلى الداخل كي تحتفلي معنا.

ارتبكت سلمى، لم تُرد أن تراها، وطلب منها كريم وعمر الانتظار في السيارة، يُحذرانها منها، إلا أن الأخرى استطاعت السيطرة عليها حين ذكرت كثرة الفتيات بالداخل، تعلم بأن الغيرة ستنفذ إليها، خشيةً على كريم، وستذهب معها على الفور وقد كان.

ـ إلى أين نتجه يا رضوى؟ أرانا قد تجاوزنا باب الفيلا.

رضوى في ثبات:

ـ سندخل من الباب الخلفي كي يندهش كريم عند رؤيتك، سيكون الأمر مفاجأةً له.

تبسمت سلمى، ورددت في فرح:

ـ معكِ حق يا رضوى، أريد ألا يرى فتاةً غيري في الحفلة.

ـ سيكون لكِ ذلك إذن.

قالت تلك العبارة بغيظ، وهي تجز على أسنانها، لا يُخفى على الناظر إليها فوران الغيرة داخلها، ففوجئت سلمى بضربة تأتيها من الخلف، سقطت على إثرها فاقدةً للوعي، بينما ذهب كريم وعمر للبحث عنها، لم يجدوا حيث تركوها، وأكل القلق قلوبهم خوفًا عليها، فحدث معهم الأمر ذاته، وما أن عاد ثلاثتهم إلى الوعي، كانت سلمى وحدها من تُدرك شدة الموقف، أما كريم وعمر وكأنهما كانا مغيبين، وقد فُتحت حدقتي أعينهم على اتساعها، أخذ يترنحا في ريبة، وأحدهم يُلقي عليهم بسحره، فتدفق الأدرينالين بشدة في عنقها، وتقطعت أنفاسها بشدة من فرط البكاء، وكل زفير خرج منها مُتثاقلًا حتى جاءتها تلك الضربة، التي وجأت عنقها، فزفرت أنفاسها الأخيرة، وجاءهم وعيدها:

ـ لن أرحمكم والله.. سأعود إليكم، وحينها لن يقو أي منكم على دفع بطشي بكم.

اختلفت المشاعر المختلجة داخل صدورهم، فبينما عمر يرتجف من الخوف، وكريم يتمنى الخلاص من ذلك الذنب الذي يُكبله؛ بل يخنق الأنفاس، فتتعذب روحه، ولا يكف أنينها، ليصبح الموت الذي لطالما رهبه، وخاف منه، هو ما ينتظره بشدة على أحر من الجمر، والآن يبدو بأن الوقت قد حان، حيث ذهبا لرؤية رضوى في المصحة النفسية، مر الأسبوع على عجل، فأدخلتهم الممرضة سهير خلسة:

ـ لقد كنت في انتظاركم، واليوم سوف أُخبركم ببقية الحكاية.

كريم في رجاء:

ـ وها نحن ذا نستمع إليكِ يا رضوى.

أخذت رضوى نفسًا عميقًا، ثم زفرته في ضيق، والندم ينطلق من ثغرها:

ـ

ـ أعجبت سلمى الساحر، ولقى مني ذلك الأمر استحسانًا، حيث ستعيش أسيرة؛ بل عبدةً تحت قدميه بفعل السحر، ولكن ...

ـ لكن ماذا يا رضوى؟ أكملي أرجوكِ.

أخذت تحرك عينيها يمنة ويسارًا، وأخفضت صوتها وكأنما تهمس بالكلمات كي لا يسمعها، واستجابت لطلب كريم:

ـ ولكن قلبي سقط بين قدماي مع تلك الضحكات المرعبة، ويزداد سخريتها من الساحر؛ بل استهزائها من أفعاله، وكأن بينهما ثأر قديم، وسنحت الفرصة الآن، انقلبت الطاولة على الساحر،

فقرر التضحية بها على مضض، فهي من توسطت الدائرة، وعقد معه اتفاقًا؛ حيث تُثير الآخر الفاتنات، حيث كان لسلمى من اسمها نصيبًا، يتلذذ بالشرب من دمائهن، فيعطيه نضرةً وجمالًا.

-افعل بها ما تشاء، ثم ارحل، وأغلق تلك البوابة خلفك.

بدا الساحر أمامهم وكأنه يأمره، ولكنه كان من داخله يترجاه، ففهم عليه ما لم يستوعبونه، وردد في سخرية:

-لا تخف، لم أت لأؤذيك، ولكن احذر، فانتقامي منك سيكون وشيكًا، يأتيك بشكل لن تتوقعه.

توعد الشرير الساحر بنبرة واثقة، وأعينه مُعلقة على شيء، جذب انتباهه منذ الوهلة الأولى، فتعمد إسقاطه قبل أن يلقيها أرضًا، وألقى هو الآخر بتعويذة تخللت من خلالها الروح داخل المرآة، بعد ما فصل الرأس عن الجسد.

لم يُخف على الساحر ما فعلته تلك الروح قبل ذهابها، وما أن تقلصت الدائرة، أخذت تنحسر وتنحسر، وألقت بكل شيء في مهب الريح، حيث لفظت الغرفة الحاضرين خارجًا، وطرحت جثة سلمى أمامهم، تُذكرهم بذاك الجرم الذي ارتكبوه بحقها.

ـ لقد جئتِ .. لمَّ تأخرتِ اليوم؟، أتمنى أن تكوني سمعتِ مني الحقيقة، عمر وكريم لم يُخطئا بشيء، أنا الملامة وحدي.

حضرت سلمى إلى المكان، فتحدثت معها رضوى لأول مرة دون خوف، وكذلك كريم لم يرتبك، ولا مانع لديه ليؤل إلى حيث ذهبت، وما أسعده من شعور حين يكون على يديها، لعلها تغفر له ما كان، حتى وإن لم يحدث طواعية، لم تكن وحدها الضحية، فقد لحق بهم ما أصابها، رغم أنهم كانوا مسلوبين الشعور، ليختلط بكل ذلك ضحكات رضوى، وشبح سلمى يرفعها عاليًا؛ كي تتذوق هول ما مرت به الأخرى، وكأن روحها تسحب منها، كلما ابتعدت عن الأرض، فسقطت بعض العبرات سهوًا منها، تحرق وجنتيها كما احترقت روحها من قبل، فقالت في أسى:

-اجعلي موتي شنيعًا يا سلمى، فأنا والله لأستحق الموت حرقًا جراء ما فعلته بكِ من قبل، ولو فارقت تلك الروح جسدي أكثر من مرة، لما غفرت لي ما جعلتها تشعر به، وهي حبيسة لذلك الجسد الواهي، الذي فتك به الغرور، وأهلكه الحقد والغل.

سحبتها إلى الأعلى أكثر؛ حتى شعرت بلفح نيرانها، التي تُشعل الأرجاء، تقترب من أنفاسها، ثم أسقطتها بعنف، وقبل أن يرتطم جسدها بالأرض، رفعته ثانية، وأخذت تُكرر ذلك، وهي تغرس في جسدها المسامير المعلقة في الهواء، يحملها الشرير بين يديه، وتوجهها سلمى نحو أماكن وقوفه، وحدها من تستطيع رؤيته، فقد استولى على روحها بعدما عاث الساحر في جسدها فسادًا وإفسادًا، واتخذها بوابة يعبر من خلالها للأرض، وقد حبسها داخل المرآة، وابتسم ابتسامة صفراء، وهو يتذكر ما حدث قبل ساعات.

-أهلا بك في عالمي أيها الماجن.

فوجئ الساحر بالشرير يقف قبالته، واختلف المكان، انتقل به عبر الزمن، حيث ذهب به خلف البوابة، التي فتحها بمجونه من قبل، ولم يقدر على إغلاقها رغم محاولاته البائسة، وظن أن بتقديمه التضحية بسلمى، قد أوفى بالنذر، ولكن ما خفي كان أعظم، فلولا تضحيته بها، لما تمثل ذلك الشرير أمامه ثانية.

-مستغرب أنت من رؤياي هنا صحيح.

ارتجفت أوصاله، وشحب وجهه، وكأنما فقد كل الدماء المتوردة فيه، جف حلقه، وتحشرجت الكلمات داخله، فأخذ يسعل، ويسعل، وضحكات الشرير تصخب بالمكان؛ فلا يبقى شيء على حاله، تتطاير الأوراق، ولا يستقر أمر على الأرض، وطار الساحر هو الآخر، حيث سحبه الشرير لأعلى، فقد حانت لحظة الانتقام، وبرقت عيناه حين رأى شبحها في المرآة، وأعين سال منها الدمع؛ بل الدماء مع صرخات مكتومة، رغبة في الخلاص، اللعبة لم تنته بموتها، حيث ظلت روحها هائمة في الأرجاء، بل حبيسة، وتتحكم بها تلك القوى الشريرة، التي استدعاها منذ البداية، وما بين لحظة عين وانتباهتها، خُضبت الأرض بدماء الساحر، فكان مِزاجها فظيعًا، وتمنت الأرض لو أسعفها القيء، ولكنه ليس من خواصها.

-مت أيها الساحر، لقد بغضك أهل الأرض قبل السماء، ارحل عن عالمك؛ لعله ينال قليل من السكينة، التي ستتجرع من دونها آهات وأنات.

أصبحت روح الساحر تحت قبضته، مع روح البريئة سلمى، التي غدر بها البشر قبل الشياطين، فلولا ظلم الإنسان لما تجرأ الجن على الاقتراب من جنسه، ولكن هكذا نحن، ألد أعداء لبعضنا البعض، وتبرأت منا المخلوقات قبل الجمادات، ومنذ مجيئنا لم يعد أي شيء كما كان، وكأننا لعنة حلت بالأرض، ولم يسلم منها أهل السموات، نستبيح القتل في كل ما هو كائن.

يعود المشهد إلى حيث كانت روح سلمى، تسعى لأخذ ثأرها، وتُناديها روح الساحر؛ في محاولة منه لإنقاذها من بين براثن تلك الروح الشريرة، التي عصفت بالمكان، واستطاع تمييز الفتاة التي تحت رحمتها، وعرف صوتها جيدًا، ولكن بدت على حالة غير التي عهدها منها، بلغ الندم منها مبلغه، والحسرة تأسر روحها، تعتذر منها في آسف:

ـ اغفري لي يا سلمى أرجوكِ ، ولا أبتغي في ذلك نجاتي مما قد تفعلينه بي، فمعك عذرك، حتى وإن جعلك الانتقام تشبهينني إلى حد كبير، وشتان بينك وبيني يا سلمى، حتى وإن أصبحتِ روحًا هائمة الآن، يستطع النور أن ينفذ من خلال ذلك النقاء الذي استأثر به قلبك، ولم يخدعك الشعور قط، لم يخون كريم ثقتك، وكذلك عمر، كانا ضحايا بين يدي الساحر مثلك، والآن يبدو بأن آخر يُسيطر عليكِ، فأفيقي يا سلمى؛ كي تجد روحك مكانها في السماء.

تركتها سلمى لاإراديًا، حيث استجابت للنور داخلها، ورفعت كريم نحوها، حتى أصبح أمام ناظريها، والدمع يتساقط من أعينهم، والقلب مشتاق، واتصل الشعور بينهما، ثم تركته في سلام،

ليأتيها صوته الغليظ من الخلف، وهو يطوقها بعباءته السوداء، بنظرة نارية يُحدجها، والغضب لا حد له ولا انتهاء، يصرخ بها قائلًا:

-لمَّ لم تقتليهم؟، اثأري لنفسك أيتها الحمقاء، الضعفاء مثلك لا يليق بهم الموت، ولا يستحقون الحياة.

شبح سلمى بصوت ضعيف:

-دع روحي تذهب في سبيلها، فهذا لم يعد بمكاني، ويؤذيني اللحاق بك إلى اللامكان، من عالمين مختلفين نحن، ويكفي إلى الآن ما فعلته بي، فأنا لم أُخطأ في حقك قط.

لم تكد تختتم حديثها حتى تلقف الشرير شبحها، وتبخر معها من المكان، وكأنه لم يكن لهم وجودًا قط، اختفى الضباب، ولكن الغيم في أنفسهم أبي أن يرحل، لقد تعذبت سلمى كثيرًا بسببهم، وعلى الرغم من استبداد قوى الشر بها، وقد خسرت حياتها، لم تستطع إيذائهم بالشكل الذي يستحقونه، فتأوه كريم، وعلا صوت نحيبه كالأطفال، بينما ظل عمر مشدوهًا مما رآه، وبدت الصدمة جلية على وجه رضوى، لم يكن يفصلها عن الموت سوى ثوانٍ معدودة، راجعت فيها نفسها، ولم تجد عملًا صالحًا واحدًا تلقى به ربها، فماذا ستُجيبه إن ذهبت إلى حيث لا يوجد عودة؟، وقد حباها بكل النعم، وميزها عن الكثيرين، إلا أنها كانت جاحدة، وما لبثت أن تسببت في زهق روح بريئة لا ذنب لها، فسَال الدمع من عينها كالشلال، ولم تجد من الكلمات ما يربت على قلبها أو يُبرر موقفها، إلا أنها تمنت بصدق أن يرزقها الله بفرصة واحدة تُصلح فيها خطؤها.

في الغرفة المجاورة..

صوت صراخ يُزلزل الأرجاء، فزع عند سماعه من بالجوار، وكانت صاحبته غير متوقعة، فتلك الحفلة جلبت الهلاك على أغلب الحاضرين بها، وأصبحت المخاوف حقيقةً، حيث فوجئت السيدة نوران بالوجه المشوه يقف قبالتها في المرآة، وتبسم لها بغيظ، وفي تشفٍ تحدثت معها:

ـ لقد أخبرتك من قبل بأنني لن أفارقك، سأظل ألحق بكِ أينما اتجهت، أعلم بأن الثمن الذي دفعتيه ما زال يؤجج النيران داخلك، السيدة نوران صاحبة النسب الرفيع والسلالة الراقية طأطأت رأسها، وانصاعت لأحدهم، ويا ليته كان بشخص عادي، بل ساحرًا، فاستحقت ما لقيت من شرور على يديه.

فزعت عند رؤياها، وصرخت بأعلى صوتها:

ـ لا لا.. غير معقول، ما أراه ليس بحقيقة، وسوف أستيقظ الآن من هذا الكابوس المُفزع.

ـ عن أي كابوس تتحدثين أيتها المجنونة؟ وهل يحلم المرء وهو مُفتح العينين، يبدو بأنكِ قد فقدتِ عقلك، ولكن ذلك لن يمنعني من الاقتصاص منكِ، ولن أتراجع حتى أظفر بروحك.

انتفض من بالحفل عند سماع صراخها، وقادهم صدى الصوت إلى حيث تُوجد، فزع الدكتور عماد عند رؤيتها، وقد تقوقعت على ذاتها، تُخفي وجهها بين كفوفها، وهي منهارة في البكاء، تهز رأسها في نفي، كلما اقترب منها دفعته بعيدًا، ونظرت إليهم شزرًا، مع اتساع بؤبؤ عينيها أيضًا من شدة

الخوف، مشاعر مختلفة تختلج بصدرها مع ردود أفعال مريبة، لم تقو قدماه على حمله من ثقل الهم، الذي نزل به من كل اتجاه، فقد اكتشفوا جثة سلمى منذ لحظات، زُهقت روحها بطريقة شنيعة، وكأنها لعنة ما أصابت بيته، تنزل على المقربين منه تباعًا، أصاب زوجته وابنته مس من الجنون في الوقت ذاته، وما أقساه من حال لا يقوى على احتماله زوج حنون وأب رائع مثله! فهل جاء هذا جراء الرشاوي وبيع الضمير؟ لا يسلم من تحت يديه أي طالب، إلا وهو يُكلفه فوق طاقته، يُحضر لها الكثير من الأشياء كي ينجح بمادته، فكان نموذجًا سيئًا لفئة من الأشخاص لا نلبث أن نصطدم بهم في طريقنا.

-نوران .. ما بكِ؟ لمَّ تصرخين يا حبيبتي بذلك الشكل؟

يسألها الدكتور عماد في قلق ممزوج بالخوف، لن يحتمل أن يُصيبها مكروهًا، فقد تخلى عن الكثير لأجلها، وضرب بكل مبادئه عرض الحائط، خسر أخاه الحبيب، وأصبح يسير بإشارة من زوجته، والآن يبدو بأن وقت الحساب قد حان، فهل لها من قوة على احتماله، كادت أن تبوح بالحقيقة على مرأى ومسمع من الجميع، إلا أن الضغط النفسي كان شديدًا عليها، فسقطت وسكت عنها كل الكلام، فلم تنكشف فضيحتها، وكذلك كان الحال مع رضوى، التي أخذت تهذي باسم سلمى أينما ذهبت، فمرت الليلة كالعاصفة في شدتها، ولم يقو أي امرؤ عن معرفة ما أصابهم، استدعى لهم أمهر الأطباء، وأجمعوا بلا استثناء على قرار واحد:

-عليك بإدخالهم إلى المصحة النفسية، هناك سيكونوا تحت ملاحظتنا، وسنعمل جاهدين على تخفيف الأمر عنهم؛ فيعودوا إليك وقد تحسنت أحوالهم كثيرًا.

هز الدكتور عماد رأسه في نفي، ورد في استنكار:

-لا لا، لا أستطيع أن أعيش دونهم قط ولو للحظة واحدة، فكيف تطلب مني إبعادهم عن ناظري إلى مكان تكاد تنخلع القلوب عند ذكر اسمه، ما أنزل الله به من سلطان.

-ولكن يا دكتور عماد قد يصل الأمر بهم إلى إيذاء أنفسهم.

حاول أحد الأطباء تحذيره، يُطلعه على العواقب التي قد تلحق بهم إن لم يتم نقلهم بأقرب وقت، كثر الهمز واللمز بين الحضور، ما بين شامت ومستاء لما آلت إليه أحوال تلك العائلة، كان الحفل يهيجًا للغاية، وبدت الأم وابنتها في أبهى طلة، فأصابتهم العين دون شك هكذا رددت إحداهن.

-اهدأي يا رضوى، ماذا أصابك يا ابنتي الحبيبة؟

كانت حالة رضوى أكثر تهيجًا، فالسيدة نوران تم حقنها بأحد المهدئات عند سقوطها، أما رضوى فكانت تكسر كل الأشياء من حولها، وخاصةً أي مرآة تلقاها بطريقها، ولا تترك شيئًا بمكانه، صَعب عليهم السيطرة عليها، فما كان منه إلا أن انصاع لقولهم، وذهبوا بالابنة بعيدًا عن والدها، وعلى تعبير أدق الشخص الذي كان له دورًا في سوء اخلاقها، أخذت عن زوجته كل مثالبها حتى النظرة

المتعجرفة التي لطالما حاولت والدتها الحقيقية ثني السيدة نوران عنها، فكلنا سواسية عند رب العالمين، ولا فرق بيننا إلا بالتقوى والعمل الصالح، فقال مودعًا، والفؤاد يتمزق عليها:

-في أمان الله يا ابنتي الحبيبة، أسأل الله أن يكلؤك بعينه التي لا تُرام، ويُعيدك إليَّ في سلام.

انفض الجمع من حوله، وبقي هو وحده، تُحاصره الهموم والأحزان، جلس قبالة زوجته، وزفر في ندم:

-أنا السبب يا نوران.. أنا من آذيتك بتلك الطريقة، لم أكن لأرفض لكِ من طلب، فازداد غروركِ، ولحق بطشك بكل من هم دوننا، فمَنَ الذي ألقى عليكِ بتلك اللعنة يا زوجتي الحبيبة؟ والله لقد احتار الأطباء كثيرًا في أمرك.

تمر الأيام، الدكتور عماد جالس جوارها، لا يُفارقها، وهي على نفس حالتها، فلم يسأم من تكرار ذلك الحديث أمامها، وقد حقنوها بالمهدأ، لا تتوقف السيدة نوران عن الصراخ كلما استيقظت، وفي أحد المرات خرجت الحقيقة من بين أشداقها، تُهذي بها على مسامعه:

-سامحيني يا إيناس.. ارحميني أرجوكِ، لم يعد قلبي يقوى أن يحتمل.

تعجب عند سماع اسمها، فأنصت إلى ما تقوله بآذان صاغية ما أن سألها، وهي تحت تأثير المُهدأ:

-لمَّ تذكرين إيناس الآن يا نوران؟ لقد ماتت منذ سنوات، فكيف تطلبين منها السماح إذن؟

زَمت نوران، وكادت أن تكف عن الحديث، تستسلم لما حقنوها به، إلا أنه أعاد عليها السؤال، وظل يلح عليها حتى واصلت:

-لم تمت ما زالت روحها تحوم حولي، تريد الانتقام على ما بدر مني في الماضي بحقها، وقد كنت السبب في إحراقهم بذلك الشكل، فتلك الحادثة كانت مُدبرة بتخطيط مسبق مني.

صُعق الدكتور عماد مما سمعه، وشهق في استنكار، لا يُصدق ما يسمعه بأذنيه، فبأي حق تفعل ذلك؟ وما ذلك الجبروت الذي امتلكته؟ حرمته من أخيه الوحيد، وكانت السبب في اختلافهم من البداية، ليرحل عنه دون وداع في لحظة هادرة، قام من جانبها، والصدمة جلية على ملامحه، فكان يسقط كلما نهض، وتكرر ذلك أكثر من مرة، حتى رحل عن الغرفة، لم تعد تسعه جدرانها، توارى عن الأنظار، فلم يعد يلمحه أحدٌ، ليتخذوا القرار المناسب بدلًا عنه.

-لا بد وأن أُنهي ذلك العذاب بنفسي، لن أسمح لكِ يا إيناس بالانتصار عليَّ.

بعد ساعات معدودة، انتهى تأثير المهدأ، فعادت إلى السيدة نوران الهواجس، وحاصرتها المخاوف، فتفوهت بتلك الكلمات في أسى، وكادت أن تُلقي بنفسها من النافذة، وقد استغلت عدم وجود أحد بالجوار، ولكن، صادف ذلك دخول الممرضة على آخر لحظة، فصرخت بها كي تُلفت بانتباهها، وهي تجول ببصرها يمنةً ويسارًا بحثًا عن زوجها، لم يكن ليُفارقها، فتسللت إليها الريبة، وما أن نقلت للطبيب ما حدث حتى طلب منهم نقلها إلى المصحة النفسية، ليجمعها المكان نفسه هي وابنتها،

فكان صراخها هو الذي زلزل الأرجاء هذه المرة، استطاعوا تطويقها أخيرًا، وأعطوها صدمات كهربائية، لم يعد المهدأ يُجدي معها نفعًا، ولا يعلمون السبب وراء اختفاء الدكتور عماد، فرددت إحدى الممرضات:

-أخشى وأن يكون زوجها قد أصابه مكروهًا، لم يكن ليُفارقها، فكيف تبدل الحال؟ فيصبح مصير الأم وابنتها خلف تلك القضبان الحقيقية، وكأنهم قد اقترفوا جريمة، وحُكم عليهم فيها بالسجن المؤبد، فلن يروا شعاع الشمس ثانية.

فبادلتها أخرى أطراف الحديث في تأثر:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، والله أنه ليكاد يتمزق نياط قلبي حزنًا على الأم وابنتها، لن نتمنى أن يلحق بأعدائنا ما صاروا إليه والله، فكيف ونحن نرى أنين أشخاص لا قبل لنا بمعرفتهم.

-أسأل الله أن يهون مصابهم و...

اقتضبت حديثها، وأخذت تنظر حولها، ثم أكملت في حذر:

-أما علمتِ بما قد حدث بالممرضة سهام هنا؟

نظرت لها الأخرى في استغراب، لم يصل الخبر إلى مسامعها، فانتفضت أوصالها، وسرت قشعريرة في جسدها عند سماعها، وما كان منها إلا أن ركضت بعيدًا عن تلك الغرفتين، وقد أقسمت ألا تدخلهم ثانية قط، ولسانها يلهج بالدعاء:

-يا رب سلم .. يا رب سلم ..

*** * * ***

في المقابر ..

جلس الدكتور عماد قبالة أحدهم، وعينيه تذرفان الدمع، سارت به قدماه إلى هناك، انطلق يلتمس بتيه في غمش الفجر خائفًا شاحبًا مرتعد الأوصال ما أن صمت أذنيه الحقيقة، يجلس حيث يوجد أخيه منذ عرفها، فما فعلته زوجته أمرًا يُندى له الجبين، وتمنى لو كان الموت سبقه هو، ولا يصل لفؤاد بتلك الطريقة المؤسفة، اجتمع عليه سطوة الضمير مع سوء العمل، فانبجست عيون المصائب بحياته، وفقد السيطرة على زمام الأمر، ليتفوه في ألم، والندم يفوح من نبرته:

-سامحني يا فؤاد.. سامحني يا أخي وابني الحبيب، أعلم بأنني قسوت عليك، ولم يمهلني الموت لأعتذر منك، فجعني مصابك، ويا لها من مزحة سخيفة، جاءت نهايتك على يد زوجتي، التي أحببتها بشدة، ورغم معرفتها بمكانتك لدي، أصابتني بالسهم في شغاف قلبي حين غدرت بك.

توقف قليلًا، وبعد فترة صمت قال، وهو يهز رأسه في أسى:

-وها هي الآن تلقى مصيرها في المكان الذي تستحق، لا سامحها الله دنيا وآخرة، فقد ماتت في نظري، ولم يعد حضورها يُشكل فارقًا بالنسبة إلي.

دخان كثيف ظهر في المكان، ومن خلفه مرآة كبيرة، يهيئ للناظر بأنها كانت موجودة من قبل، ولم تظهر من العدم، رأى بها ذلك الوجه المحترق، وعَرَف صاحبتها، التي كانت تُحدجه بنظرات نارية، كان كالأعمى يسير خلف زوجته، ولم يردعها، والآن تتألم على ابنتها رضوى، فقد ارتكبت الجرم نفسه، وتلقى الآن نفس المصير، لقد رأفت بنوران في الماضي لأجل اعتنائها بفلذة كبدها، لم يستطع ذلك الساحر حبس روحها كما أوهمها، إلا أنها تركتها تحت سطوته، لعلها تتذوق ولو قليلًا من أفعالها الشنيعة، وبعد مرور كل تلك السنوات، وقد علمت بمخطط ابنتها، أرادت أن تثنيها، وحاولت إخافتها بالصوت الذي أصدرته من المرآة، إلا أن الساحر تدخل حينها، وأهدى ابنتها إلى طريقه، وقد أغشت الغيرة عينها، وتملك منها الحنق والضيق كالسيدة نوران من قبل، فيا ليتها أخذت انتقامها منها قبل أن تكبر صغيرتها في كنفها، وتُشبهها في كل شيء.

نهض الدكتور عماد من مكانه، ونظر لها في توسل، كحَال نبرته:

-اجمعيني بأخي أرجوكِ يا إيناس، فالموت أهون؛ بل أرحم إليَّ مما أُكابده.

ما كان منها إلى أن استجابت لطلبه، حفظت قليلًا من ماء العين الذي بينهما، فوجأت عنقه، ليُردد الشهادة، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، عثروا على جثته في اليوم التالي بينما كان أحدهم ذاهب لزيارة والده المرحوم، انتبه إلى ما حدث معه، وذاع خبر موته بين الصحف والمجلات، حيث كان معروفًا من قبل الكثيرين، ولكن، لم يترحم عليه أحدٌ، حال دون ذلك سوء فعله ومسيرته المخزية، المليئة بالرشاوي، السطوة، استغلال النفوذ، لم ينج منها سوى القليل، ولعل هؤلاء من حضروا جنازته، وتم تشييعه إلى مثواه الأخير، أصبح جوار أخيه، ولكن شتان بين المكان والمصير الذي آل إليه أخاه، الذي فاح عبير أخلاقه كالمسك دومًا بين الآخرين، ولطالما حذره من عاقبة أمره.

-الآن صرت يا دكتور عماد بدار الحق، أتمنى وأن تكون قد علمت الآن مقدار ضعفك، لطالما استبددت بي بسطوة مكانتك، استخدمت ما فضلك الله به في سبيل شهواتك، فوقفت أمام تخرجي لسنوات، لا تلبث أن تجعلني أرسب في مادتك، لا يُعجبك مشروعي، أو بمعنى أدق فقري، فقد كنت لأصير دكتورةً في الجامعة، والله إني لا أسامحك، وسوف أقتص منك عند رب العالمين.

استمعت إليها والدتها عند دخولها للغرفة، وقالت في لوم:

-لا يوجد شماتةً في الموت يا ابنتي، الآن وقد ضمه التراب، لا يجوز لنا سوى الدعاء له بالرحمة.

ترقرقت العبرات في عيني سهى، صاحت ويختلط بنبرتها البكاء:

-وماذا عن معاناتي وقهري لسنوات؟ لقد سبقني ممن هم في مثل سني، وتجاوزني الأصغر مني، حسبي الله ونعم الوكيل فيه، لقد تدمر مستقبلي بسببه، والآن وقد كثرت عدد مرات رسوبي أخشى أن يتم فصلي من الجامعة، لا ارتضائهم لي كأستاذة معهم، وسجلي حافل بذلك الشكل.

ضمتها والدتها إلى أحضانها، وهي تُردد في حب:

-سيعوضك الله يا ابنتي، اللطيف الخبير لا يُعجزه شيء، وقد تكون فرحتك تُجهز في السماء الآن، ويشهدها عن قريب أهل الأرض.

كانت سهى ضحية من ضحايا الدكتور عماد، فما أسوأه من حال يشهده الطلاب مع أساتذة الجامعة معدومي الضمير مثله، يظل المرء يركض لسنوات خلف حلمه، حتى ظهور من يضيقون عليه الأنفاس، فيتلقفه الاكتئاب جراء ما تعرض له، فكم من دروب قاسية يفقد فيها المرء الهدوء والسكينة، تكلفه الأحلام عمر بحاله، ويكون سدادها من نزف الروح، لا تكف عن الأنين، ويسوءها ما تلقاه في هذا العالم المستبد الظالم.

بعد مرور أسبوع..

-لا أُصدق والله يا أمي ما أراه بعيني، اسمي موجودٌ في قائمة الناجحين، غير معقول.. من فضلك خذي ابحثي أنتِ، واقرأي الاسم بصوت عالٍ، لعل الأمر اختلط علينا، ويوجد تشابه أسماء.

ظهرت نتيجة سهى، فأخذت تطوف في الغرفة جيئةً وذهابًا، لا تسعها جدرانها من فرط السعادة، وعقلها غير قادر على التصديق، فَخَرت لله سُجدًا ما أن أكدت لها والدتها صدق الخبر، وفعلت والدتها المثل، وما أن رفعا رأسيهما احتضنتها والدتها في سعادة غامرة:

-مبارك يا سهى، مبارك يا ابنتي الحبيبة، كم أن الله قريبٌ! وكنت أعلم بأنه سيستجيب دعائي، لا يردني خائبةً قط، وسوف تأتيكِ العطايا الواحدة تلو الأخرى، تحصدين بها جزاء صبرك، وحينها تقولين قد جعلها ربي حقًا.

قالت، والدمع يترقرق في عينيها من السعادة:

-الحمد لله يا أمي، لقد كان فضل الله عليَّ عظيمًا، وأدام الله لي وجودك ومساندتك لي، فقد احتملتني ووقفت جواري في أحلك الأوقات يا أغلى ما بحياتي.

نظرت لها والدتها بامتنان، وهتفت في حب:

-هذا واجبي يا حبيبة الفؤاد ونور العين، أسأل الله أن يُبارك لي فيك، ويرزقك بجل ما تتمنين بكرمه وجوده اللهم آمين.

وجاءت البشرات، تفيض عليها بالخيرات، فقد طلبها عميد الكلية في مكتبه، ذهبت إليه على الفور، لتربت على قلبها كلماته:

-لقد تناهى إلى سمعي قصتك، ليصل إليَّ ما فعله الدكتور عماد بكِ من قبل، وإني لأصدقك القول يا ابنتي، لم أكن لأشك به يومًا، لطالما ظننت بأنهم يُروجون حوله الأقاويل والشائعات حتى أراد الله أن تنزل الغشاوة على عيني، فتظهر الحقيقة، وعلمت من باقي الأساتذة مدى نبوغك، وكونك ستكونين فخرًا لنا إن انضممت إلى فريق الأساتذة.

نظرت له في غير تصديق، وانسلت العبرات من عينيها دون شعور، فتبسم لها، وأعاد عليها القول بطريقة مباشرة:

-لقد صدر قرار تعيينك كمعيدة بالأمس، فأصررت ألا يُخبرونك، وأزف إليكِ الخبر بنفسي، فمرحبًا بكِ معنا يا دكتورة سهى.

لامست الكلمة شغفها، وعزفت على أوتار قلبها أناشيدًا وألحانًا، أطربت سمعها، وكادت أن تطير من فرط السعادة، وكأنه قد برز لها جناحان، وفي سرعة الرياح نقلت إلى والدتها الخبر السعيد، فأصبحت قصة نجاحها من القصص الملهمة، مهما استبد بك اليأس، لا تفقد الأمل، وإن بطش بك قوة أحدهم وسطوة نفوذك عليك، كن على يقين بأن رب العالمين لن يتركك، وسيكون الجبر من نصيبك، فاثبت مكانك، ولا تبرح حتى تبلغ.

*** * * ***

في وقت متأخر من الليل عاد الأستاذ وليد إلى بيته، وقد ران الصمت على الأجواء، تعجب من كون والدته ليست بانتظاره كما اعتاد، يعلم بأنه تأخر اليوم، وإن كانت لا تذكره، إلا أن شعور الريبة ما لبث أن تسلل إليه، وهرول نحو غرفتها على الفور، فشهق في استنكار، وقد صدق حدسه.

ـ رقية .. يا رقية.. أين أنتِ يا هانم؟ تعالي إلى هنا في الحال.

يعرف بأنها مستيقظة، لا تنام باكرًا، وتأكد من ذلك حين سمع صوت الشاشة من غرفة الجلوس، حيث تُشاهد أحد الأفلام، استجابت لندائه بثقل، تزم شفتيها بلؤم، وفي استخفاف سألته:

ـ ماذا هناك؟ لمَّ تناديني يا وليد بذلك الشكل؟

حدجها بنظرات نارية، ونهرها في غضب:

ـ أمي ليست بغرفتها، أقسم لكِ بأنني لن أرحمكِ إن أصابها مكروهًا.

ـ ماذا؟ الدكتورة جيهان مفق...

لم يمهلها لتَكمل، يهز صراخه بها الأرجاء:

ـ لمَّ أنتِ مستغربة؟ أ ليس هذا ما تمنيته؟

صمت للحظات، تنفس بعمق لعله يهدأ، إلا أن الأمر حقًا فاق الاحتمال، فاستكمل:

ـ بما أنه يوم تحقق الأمنيات لديكِ، فها أنا ذا أُحررك من قيد ارتباطك بي، أنتِ طالق يا رقية، اذهبي في سبيلكِ، لعلك تظفرين بالأولاد.

نظر لها بشفقة عند الجملة الأخيرة، لم يُطاوعه قلبه لجرحها، وهي التي لطالما وضعت الملح على ندباته، رحل من المكان على عجل، يبحث عنها بكل اتجاه، يلوم نفسه في كل دقيقة لكونه قبل

بإهانته، وتركها في عهده من لا أمانة لديها، كاد سيارته أن تصطدم في حادث، حتى أنقذه اتصالها، وهي تقول بانكسار:

ـ الدكتورة جيهان هنا داخل الفيلا، وجدتها عند زوجة البواب، ذهبت لقضا ء الوقت معها، لم تحتمل البقاء وحدها، وقد أرسلت الممرضة لشراء بعض الأشياء لها، فلم تقترب مني، وجدت الحنان عند الغريب، وافتقدته لدي، أنا آسفة يا وليد على ما سببته لكما من أذى، أعدك بأنك لن تراني ثانية.

لا يُصدق وليد نفسه، تلك المتصلة لا تشبه زوجته مطلقًا، وبالفعل كانت لتظل بعجرفتها لولا أن سقط ذلك الملف بينما هي تُحضر حقيبتها للرحيل، وصُدمت بواقعها الأليم، كيف استطاع حقًا أن يحتملها؟ وكأن قلبها تفتت إلى شذرات في تلك اللحظة، فهامت على وجهها لإصلاح الخطأ، ونفذ إليها صوتها من خلال البوابة، وقد أوشكت على الخروج، لتعود أدراجها مسرعة، وهي تناديها بألم:

ـ أمي جيهان.. أمي .. هذه هي أنتِ صحيح؟

فتحت لها زوجة البواب، واستقبلتها بترحاب، لتدلف رقية إلى داخل الغرفة في ذهول، وهي تتأمل حنان تلك المرأة التي لا تقربها بشيء على حماتها، التي لطالما أساءت إليها، وقابلت إحسانها إليها ـ وهي عروس ـ بالجحود والإنكار، وكأن الذاكرة عادت لها، بل انقشعت غمامة الحزن.

ـ رقية .. تعالي يا حبيبتي .. أنا هنا ..

نظرت لها بحزن، تعتذر منها في ألم، والدموع تغشى عينيها:

ـ سامحيني يا أمي أرجوكِ.

نزلت أسفل قدميها، تُقبلها، والندم يسيطر عليها، إلا أن الدكتورة جيهان هونت عليها قائلة:

ـ أستغفر الله يا ابنتي.. انهضي أرجوكِ، لا تفعلي ذلك يا رقية...

ثم اقتضبت حديثها، كأنما انتبهت لشيء، فإذ به يقف أمامها، لتُناديه بعد غياب:

ـ وليد حبيبي.. تعال إلى حضني يا بني، فكم اشتقت إليك يا ابني الغالي ونور عيني.

وليد في غير تصديق، وقد تغيرت نبرته:

ـ أمي.. هل تتذكريني؟

ـ وهل يخفى القمر يا حبيبي؟ كيف لي أن أنسى قطعة من روحي؟

غرد طائر الحب فوق سماء عائلة الدكتورة جيهان، يطرد شبح الحزن بعيدًا عنها، وقد استرجعت ذاكرتها، تعيش في سعادة مع ابنها وزوجته، التي منحتهم الحياة معًا فرصة أخرى، ولدت فيه رقية من جديد، لا تُشبه نسختها القديمة، ولم يكن التغيير من نصيبها وحدها، تبدل الحال السيدة منال، التي جمعتهم السيدة نوران بصداقتها، فهزها من الداخل ما حدث معها، وصرحت بذلك لزوجها إبراهيم:

ـ الحمد لله يا إبراهيم أن ابننا محمود لم يتزوج من رضوى، وإلا فالله وحده يعلم ماذا كان ليحدث معه بسببهم؟

إبراهيم في آسف:

ـ ولكن ابنك محمود قد تأثر حقًا يا منال، منذ ذلك اليوم المشئوم، وهو ينطوي على نفسه داخل الغرفة، ولا يُمارس حياته بشكل طبيعي، نظراته يطل منها الخوف، ولا يذق النوم، أشعر بأن هناك ما يُرعبه، ولكن لا يُمكنني رؤيته أو تبين ما يكون.

انتفضت السيدة منال من مكانها، فزعت ملامحها، وهي تسأله في هلع:

ـ ترى هل من المعقول بأن مس من الجنون أصابه هو الآخر؟

زفرت في ضيق، ثم رددت في ندم:

ـ لو صدق ظني فأنا السبب يا إبراهيم، دفعت بابني نحو المجهول، وتسببت له بكل الألم.

ـ هوني عليكِ يا منال، فأنتِ أمه وقد قصدت له الخير.

هزت رأسها في نفي، وهي تصيح في استنكار:

ـ ولكنني أنا التي طلبت منه التودد منها والاقتراب، لم أتخيل بأن عاقبته ستكون الشر، لا ينعم بالحب، وهو يرتشف من نهر الخيرات.

بينما محمود يجلس في غرفته، يتوسلها من بين دموعه:

ـ ما ذنبي أنا؟ وأنا لم أؤذيكِ بشيء، ولكنني وقفت أشاهدهم في صمت، لم أتدخل.

لفظ جملته الأخيرة باستنكار، ثم ضرب رأسه في الحائط، يرجو انتزاع تلك الحادثة الأليمة من رأسه، إلا أنه أمرٌ محال.

*** * * ***

- ٦ -

طوق النجاة

افعل الخير أينما كنت، ولا تتردد أبدًا في إغاثة ملهوف أو نجدة إنسان، فأنت لا تدري حقًا أين قد تكمن النجاة؟ لا تغلق بابك قط أمام أي مخلوق، وكن كالسدة التي تُغلق بها الثغرات، فلا يختل التوازن أو ينهدم البناء، اجعل لك أثرًا يَدل عليك، فيُشار لك بالبنان ويدعون الله في أمل أن يُكثر من أمثالك.

في المستشفى العام بمدينة السنبلاوين..

تبكي ثلاث فتيات وبجوارهم والدتهم في قلة حيلة أمام إحدى الغرف، بينما الزوج في الداخل في حالة سيئة للغاية، ويحاول الأطباء جاهدين أن يُسعفونه، ذهب كي يسعى على أكل عيشه، بعد ما أُحيل على المعاش، ضاقت به الأحوال كثيرًا، وأصبح يملك المال بالكاد، ليعود إلى عمله الأول، الذي لم تتوقع زوجته قط أن تضطره الأوضاع لذلك، فما لبث أن طلبه أحدهم لأجل السفر معه إلى أحد البلدان، حيث يقود له سيارته طوال الطريق، حتى باغتهم اتصال ذلك الأستاذ الجامعي، ويدعى وسام، ولحسن الحظ كانت الابنة الوسطى هي من أجابت على الهاتف، فدار الحديث بينهما:

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هذا بيت الأستاذ أحمد صحيح؟

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، نعم، وأنا إسراء ابنته معك.

ارتبك الأستاذ الجامعي (وسام)، وصمت لبرهة ثم أخبرها في تردد:

ـ لقد جاء معي والدك إلى الجامعة، وبينما نحن في الطريق، وأنا أجلس بجانبه، فوجئت بيديه تهتز، وغير مستقر في مسك المقود بين يديه، وحين نبهته تعصب عليَّ، وبدا كشخص غريب لا أعرفه، احمرت عيناه وأخذ يتحدث دون وعي، وكدنا أن نصطدم بالسيارات التي تُقابلنا أكثر من مرة، وما أن وصلنا إلى مدينتكم، إذ به يطلب مني إنزاله، وتولي القيادة، ثم ...

اقتضب الحديث، ولم يعرف كيف يُكمله، حتى سألته في لهفة:

ـ ما الذي حدث بعد ذلك؟ أخبرني من فضلك أين هو أبي الآن؟

رد في ارتباك:

ـ لا أعرف والله، فقد قمت بإنزاله في مكان ما، ولا أعرف صدقًا اسمه، إلا أنني فعلت بناءً على إصراره هو، ولكن ما لبث القلق أن تسلل إليَّ، والحمد لله استطعت إيجاد رقم بيتكم بسهولة ويسر ما أن فتحت نوتة الأرقام الخاصة بي، فكم كان الأمر يتكبدني العناء في أحيان أخرى!

انطلقت إسراء كالطلقة في الهواء ما أن سمعت بباقي حديثه، وضعت العباءة على ملابس البيت، ثم غادرت على عجل، أخذت تتصل به في خوف، وعلامات الذعر والقلق بادية على وجهها، وتُقرأ

في تحركاتها، تسير كالمخبولة على غير هدى، تبحث عنه في كل اتجاه، وما أن اتصلت به، أجابها والدها في عدم استيعاب:

ـ أنا على البحر يا ابنتي، ولكن لا أعلم حقًا مكاني بالضبط.

ونفذت تلك الكلمات إلى مسامع والدتها، كانت تتابع في صمت، ووقع قلبها بين قدميها من شدة الموقف، هذه ليست بالمرة الأولى التي تسوء فيها حالة زوجها، ولكن ضيق الحال دفعه إلى النزول وخاصةً بعد ما عايره أخاه بمساعدته له، فلم يعد بخير منذ ذلك اليوم، وقد صُدم فيه، ركضت خلف ابنتها، وكذلك فعلت أختها، التي جاءت لقضاء اليوم معها، إلا أنها فُجعت بمصاب تلك العائلة، الأب مفقود، وتبحث الزوجة والبنات عنه، وما من سند أو مُعين لهم، لا قريب ولا بعيد للوقوف جوارهم.

تبكي إسراء عبر الهاتف، وتسأله في رجاء:

ـ ركز يا أبي، وأخبرني يا حبيبي أين أنت بالضبط؟

يُجيبها في أسى:

ـ على البحر يا ابنتي، ولا أعرف تحديدًا أين؟

كالإبرة في كومة قش تأتي إجابته، ولكنها ما تلبث أن تتشبث بها، تطوف الممشى على البحر جيئةً وذهابًا على أمل إيجاده، لتتنفس الصعداء في امتنان، وهي تشكر الله، ما أن ناداها:

ـ إسراء أنا هنا يا ابنتي، تعالي يا حبيبتي.

قُرت عيناها برؤياه على الرغم من سوء حالته، لم يكن أباها الذي تعرفه، بدا كشخص آخر في تلك الهيئة المُزرية، ملابسه غير مهندمة، ويظهر الاحمرار جليًا حول بؤبؤ العينين، مع عدم قدرته على التركيز أو السير على قدميه، كان ينظر لها بتيه، ثم صدمها بقوله:

ـ لا أرى يا ابنتي، لا أستطيع تمييز أي شيء.

أخذها يُردد جملته في استنكار، وأخذت نبرته تتغير مع كل انفعال جديد يصدر عنه، أخذت إسراء أبيها إلى المستشفى، ولحقت بها والدتها وأختيها، وهناك ساءت حالة الأستاذ أحمد، فقد كان ينتفض وكأنه أصابه مس شيطاني أو ضربًا من الجنون، ويصرخ بهم دون وعي، ويحاول الأطباء جاهدين أن يُسعفونه، وجدوا مستوى السكر في دمه كارثيًا، حيث كانت نسبته أقل من النسبة الطبيعية بكثير، انهارت الزوجة، وقالت من بين دموعها:

-ما بك يا حبيبي؟ ما بك يا سندي وعزي؟ قم يا أبو بناتي لأجلنا، فأنت قوتنا ومعيلنا.

ثم أوقفتها شهقات البكاء، إلا أنها أصرت أن تُكمل:

- أغيثوني يا ناس، أخبروني أي تخصص للأطباء أقصد؟ حين ذهبت به إلى طبيب القلب أخبرني بأن أموره تمام، وما من داعٍ للقلق، وها أنتم ترون بأعينكم كيف أن وضعه لا يُبشر بأي خير.

في تلك اللحظة دلف الدكتور محمد إلى داخل الغرفة، وقد هاله المشهد، ولامسته كلمات الأم، فسأل الممرضات عمَّ حدث؟ ثم فحصه بنفسه، وعرف بأنه التخصص المنشود، كتب على ورقة بعض الفحوصات والأشعة كي يتأكد من ظنه، لا بد من وجود سببًا لاحتراق السكر في دمه بتلك الشراهة، وحوله أيضًا إلى عيادة السكر والغدد الصماء، فما كان من الطبيب الآخر أن وافقه الرأي، إذن فالأمر جلل وبحاجة إلى تدخل جراحي، وبعد ظهور نتيجة المسح الذري، تم تحديد مكان الورم على البنكرياس، لقد شك الدكتور محمد في وجوده منذ البداية، فكان مجيئه كالنور داخل المسراج يُضيء لعائلة الأستاذ أحمد الطريق من حولهم، فالتعب ليس بحد ذاته المُعضلة في كثير من الأحيان، بل التشخيص حين لا يكون بالأمر السهل، ولا يعرف المريض بأي طريق يذهب أو يتجه، فيعود خائب الرجاء حين يقصد التخصص غير المطلوب، وكم احتارت زوجته وبناته في تفسير حالته، وحين طلبوا المساعدة من أقرابهم، استخفوا بالأمر وأخبروهم بأنها حالة نفسية لا أكثر، ويجب عليهم رعايته وحسن الاعتناء به، فهم السبب في ما أصابه.

ـ لا أُصدق بأنه ما زالت هناك عقلية تُفكر بتلك الطريقة، فالله سبحانه وتعالى لم يخلق داءً إلا وأنزل معه دواءً، وعليهم أن يُتابعوا معه خطوة بخطوة، ويُخبرونه بالنتائج أول بأول.

ربتت كلمات الطبيب محمد على الأم وبناتها، صدق قولهم عنه (الدكتور الإنسان)، وجدوا منه العون والسند الذي افتقدوه عند أقاربهم، وبظهور ذلك الطبيب مهد لهم كل السبل، وأوصى عليهم كل من أرسلهم إليه.

ـ هذا هو رقمي يا ابنتي، اتصلي بي إن طرأ أمرٌ ما، علينا أن نكون حذرين حتى نجري له العملية، فقد تأتيه الغيبوبة بينما هو نائم، وأسأل الله أن يبارك لكم فيه.

ـ إن شاء الله، شكرا جزيلًا لحضرتك.

شكرته إحدى الفتيات في امتنان، فكم ساعدهم وذلل لهم كل الصعاب، التي وجدوها في طريقهم، فحالة والدهم لا تحتمل الانتظار في قائمة أخذ الأدوار، يكفي ما حدث من تأخير حتى الآن، وفي غضون أسبوعين تم إجراء العملية للأستاذ أحمد، وهو يعد وقت قياسي جدًا للقيام بمثل هذه العملية في مستشفى عام، وليس بخاص، وحدث ذلك بمساعدة الطبيب محمد، الذي تكفل بكل شيء، وأنهى كل الإجراءات لأجلهم، وأخذت الممرضات يتحدثن عنه في إعجاب:

ـ كم أن الدكتور محمد شخصٌ عظيمٌ لا نظير له ولا شبيه حقًا!

ـ معك حق يا روفيدة، فذلك الأب كان بين الحياة والموت، ولولا تدخل الدكتور محمد في الوقت المناسب لفقدت تلك العائلة سندهم الوحيد، لكم أشفقت على بناته وزوجته، التي لم يكف دمعها، وكأن الله وضع الدكتور محمد في طريقهم رحمةً بها، بعد ما تملك منهم اليأس وفقدوا كل الآمال.

ـ نعم، فقد رأيت نظرتهم المفعمة بالأمل له، ليزداد احترامي للدكتور محمد، فهذه ليست بالمرة الأولى له لفعل ذلك، وهناك الكثير من القصص التي تُشيد به، وتصف مدى إنسانيته، ويا لفخر أبنائه به.

ـ لديه ابن واحد فقط و...

ـ لا بد وأنه طبيبٌ مثله.

قاطعتها روفيدة، لتهز الممرضة الأخرى رأسها في نفي، وتُجيب:

ـ لا، فهو طالب في كلية الإعلام جامعة جنوب الوادي، لا يهتم بأمر الطب كوالده.

وعند ذكر الابن لهج لسان السيدة سحر بالدعوات لأجله امتنانًا لعرفان والده مع زوجها ووقوفه مع بناتها، فقد استمعت إلى حديثهم، وقد كان كريم في حاجة ماسة إليها، اشتد عليه الأمر بعد ما علم بالحقيقة، فحاصره الذنب مع الندم الشديد، كان حاضرًا حين تعرضت للأذى، ولم يدفع الضرر عنها، بل كان مُشاركًا وإن حدث ذلك دون قصد منه، إلا أنه لا يُسامح نفسه، وإذ بدخان كثيف يملأ الأرجاء، ظهر من خلال المرآة، وتمثلت أمامه بهيئتها التي تُعذبه رؤياها، وما لبثت أن رفعته عاليًا، ثم أسقطته ثانية في قوة، وقبل أن يصطدم بالأرض لقفته ثانية، نزف الدم من أنفه، والأدرينالين يزداد، فيتلذذ الشرير باشتمام رائحة الخوف، وقد سيطر على روح سلمى، يُحركها كعرائس الماريونيت، ولا قوة لها على المقاومة، إلا أنها لم تستسلم، وأخذت تُردد بصوت ضعيف:

ـ لا تخف يا كريم، لا تخف، فأنا لا أستطيع إيذائك يا حبيب العمر.

اهتزت أوصال كريم، وانتفض من مكانه حين صدر منها صوت الأنين، وكأنما روحها تتعذب بمكانها، ولا تجد خلاصها، ولمَّ لم ترحل إلى مأواها الأخير؟ وقد اكتشفت الخدعة، لم يغدر بها الحبيب، وكذلك الصديق لم يخذلها قط، لقد دبرت رضوى الحيلة من البداية، وساعدها ذلك الساحر، واستدعى بمجونه كل تلك الفوضى، لا بد وأن النهاية ستكون على يديه، فأين من الممكن أن يجده؟

صرخ كريم بصوت عالٍ:

ـ سلمى .. يا سلمى.. قولي لي يا حبيبتي كيف أُساعدكِ؟

لم يكد يختتم حديثه، حتى فوجئ بقوة هائلة تطرحه أرضًا، فلا ينهض، وكأن هناك من يربض فوق جسده، وشعر بأنفاس حارة على مقربة منه كالنيران تلفح وجهه، وأحدثت في وجهه مختلف الشروخ والندبات من شظايا المرآة، التي قُذف بها من كل اتجاه، ولا يعرف من يدفعها نحوه، خفتت الرؤية في عينه، وهو يُغلق جفونه في استسلام لتلك الضربات المُوجعة، غائبًا عن الوعي، وفي تلك اللحظة عاد عمر، لم يجد شيئًا في مكانه، ووجد كتابات تبدو كالطلاسم طبعت بالدماء على المرآة، فهرول نحو كريم، يُنادي باسمه في خوف:

ـ كريم .. يا كريم، أجبني يا أخي أرجوك، لا تصمت بذلك الشكل، أخبرني ما الذي حدث لك؟

وما بين طرفة عين وانتباهتها تم نقله إلى المستشفى، حيث استدعى عمر الإسعاف، وذهب معه بعيدًا عن ذلك المكان، الذي رأوا به كل الأهوال منذ تلك الحادثة، وأومضت في حافظة عمر مشاهد من ذكرى قديمة، لاحت أمام عينه، وسرح معها حين كانت روح سلمى بصوت غليظ تُناديه:

ـ لن أرحمك والله يا عمر، لا بد لك وأن أقبض روحي كما فعلت بي.

وإذ به يرتجف، والكلمات تحشرجت في حلقه، لا يقوى على الدفاع عن نفسه أو النطق حتى، فتزداد الروح في بطشها به، تغرس في جسده المسامير، تُعيد عليه الحدث مع اختلاف صاحب الفعل، فقد كان عمر من فعل ذلك بها في الماضي، والآن دارت الدائرة لتفعل هي به ذلك.

هز رأسه في نفي، يُحاول أن يُبعد عن عقله تلك اللحظات المؤلمة، والدموع تتدفق من عينيه، وهو ينظر إلى كريم الماثل أمامه في حالة يُرثى لها، ويقول في آسف:

ـ الآن تتردد في ذهني تلك الكلمات بالذهاب سويًا حتى آخر العالم، ولكننا لم نذكر قط ذلك الجحيم الذي أصبح نعيشه الآن، وكأنه يمثل تلك النهاية، وما أسوأه من حال! لا نعرف فيه كيف النجاة؟ وقد ضاقت بنا السبل.

انطلقت بهم السيارة بينما كانت روحها تُراقب المشهد في ألم، ثم باغتها الشرير، دفع بها إلى أسفل الأرض، يهوي بها إلى مكان سحيق، ثم قيدها بأحد الأعمدة المُعلقة في الفراغ، وأخذ ينهال عليها بضربات قاسية، لا تعرف اسمًا لتلك الأداة التي يُعذبها بها، والتف بعباءته حول عنقها، فأخذت تتوسله:

ـ أعطني الخلاص أرجوك، فأنا لم أُخطئ بحقك في شيء، فلمَّ تُعاملني بذلك الشكل؟

ضحك منها بسخرية، واهتز المكان من غلظة صداها، تخلع القلوب من مكانها، وتدب الرعب في النفوس، فأجابها في استخفاف:

ـ وهل تظنين بأن الخلاص بيدي؟ أنا أيضًا مثلكِ، بل على أصدق تعبير خواء دونكِ، فأنتِ الجسر الذي أعبر به بين الأحياء، ولولا خطأ ذلك الماجن لما عُدت ثانية.

يوجه كلماته الأخيرة إليه، فقد استولى على روح الساحر ، وأخذ بثأره منه، يُقلب الهواء بين يديه، وكأنما يتحكم به، فظهر وجه ضحيته الأخرى، وقد أحضره إلى المكان بقوته، وسهام كالنيران تطلق شررًا من عينيه، التي لا انعكاس فيهما، ولا يستطيع تبين معالمها، ثم أصابت جسد الساحر المتمثلة، فأخذ يستغيث طلبًا لنجدتها، وهو يقول:

ـ من حيث جئتِ يا سلمى، يجب عليكِ العودة، يكمن خلاصكِ في تلك ...

يُقاطعه الشرير قبل أن يُخبرها بطوق النجاة، ثم قيده بالسلاسل من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، أغلق كل المنافذ أمامه، ليستمر عذاب روح سلمى، وما من منقذ أو مُغيث لها، وزاد أنينها ما حدث لحبيبها في حضورها، فبدا كلاهما عاجزين أمام تلك القوى الشريرة، ولكن ذلك لم يمنعها من التواصل معه، ووقع على عائلته ما قاله الطبيب كالصاعقة، دخل كريم في غيبوبة، ولا يعرف الأطباء من سبب لها، ويَصعب عليهم تشخيص حالته، عمر وحده من عَلم، فأخذ يُهذي في استنكار:

ـ لقد فعلت به ذلك روح سلمى، عادت لكي تقتص منا على ما فعلناه بها في الماضي.

نظر له الجميع، والصدمة على وجوههم حاضرة، فسلمى قد ماتت منذ زمن، وهل تعود الروح بعد انقضاء الأجل؟ وقد فاضت إلى بارئها، أصر عمر على موقفه، يؤكد لهم في ثقة بأنها الحقيقة، وازداد انفعاله، فظنوا به الجنون، وخاصةً مع تحركاته غير الواعية حتى كاد أن يلحق الأذى لنفسه، ثم ما لبث أن ضرب رأسه في الجدار أمامه، وهو يُردد في ألم، يفوح منه الندم:

ـ يكفي إلى هنا يا سلمى، سامحينا أرجوكِ، لم يكن لنا والله ذنب فيما حدث.

وخرجت من بين شفتيه الحقيقة، التي لم يُصدقها أحد، فما كان منهم إلا أن حولوه إلى مستشفى الأمراض النفسية والعصبية، أصبح يُشكل خطرًا على نفسه والآخرين، فجاء ما حدث مع الشابين كالضربة المميتة، كادت أن تُصيب قلوب عائلتهم في مقتل، وما أسوأه من مصير لحق بكريم وابن عمه، فنزل بالإخوة العذاب نفسه، وهم يُشاهدان فلذات أكبادهم يُعانون، وما من نهاية لألمهم، وكان لذلك تأثير مختلف على كل منهم، وقد أخذ يتذكر عمله، لاحت مسحة حزن على وجه السيدة فادية، وتمثلت أمامها بعض المواقف، استدعتها الذاكرة لها من الماضي، تُزيد المشهد ضراوة وشدة، وتلك الكلمات تتردد بقوة في أذنها:

ـ أسأل الله أن يُذيقك من الشعور ذاته الذي تسببتِ لي به.

لم تُبال السيدة فادية وقتها بكلمات تلك السيدة، وقد تفوهت بها في قهر، كانت تسعى لأخذ معاش زوجها، فقدت المعيل الوحيد بموته، ولا تستطيع العمل وابنها ما زال صغيرًا، لا تعرف أين تتركه؟ وشاء القدر أن تصطدم بالسيدة فادية في طريقها، فحالت دون تحقيق مبتغاها، وعطلت مصالحها، لا تلبث أن تطلب منها مستندًا جديدًا، فأخذت تطوف بين المكاتب، وصغيرها تحمله بين يديها، فتعذب معها، ولم تحتمل صحته الضعيفة، فما لبث أن نزل به المرض، وحينها لم تجد الأم المال، تُشاهد ألم فلذة كبدها في عجز، وقد استبدت بها قلة حيلتها، وقد كانت السيدة فادية السبب.

ـ الآن يبدو أنه قد أُستجيبت تلك الدعوة، وألحق عملي السيئ الضرر بابني.

رددت السيدة فادية ذلك في أسى، والدمع ينسل دون توقف من عينها، كم هي سريعة الأيام في دورانها، وما أقساها حين تدور، لا ترحم أحدًا، فوقفت الأم في قلة حيلة، وقد كُسر بعض من غرورها، وينعكس ذلك في نظرتها النادمة، وأخذ شريط حياتها يُعرض أمامها، كم كانت زوجة غيورة وأم أنانية، لم تبال بأحد سوى بنفسها، لم يجد منها كريم الحنان قط، وعادت إليها بعض اللحظات التي جمعتها به، وكان ذلك بأول سنة له في الجامعة حين جاء يزف إليها الخبر السعيد، وقد حلق الفرح فوق سمائه، بينما كانت هي مشغولة في تصفح مجلات الموضة والأزياء، وهو يُناديها بأعلى صوته:

ـ أمي .. أمي .. أين أنتِ يا حبيبتي؟

لم تُجبه السيدة فادية، أخذ يبحث عنها في الغرفة تلو الأخرى، حتى وجدها في غرفة المكتب، فصاح في فرح:

ـ لقد نجحت يا أمي .. نجحت وسألتحق بتلك الجامعة التي تمنى فؤادي دومًا أن أكون من طلابها، وأصبح ذات أثر عظيم، ويكون لي بصمتي في مجال الصحافة، أنقل الحقيقة للآخرين، ولا أخدعهم قط كما يفعل الكثيرون، لهثوا خلف الشهرة والأموال، وباعوا ضمائرهم منذ زمن.

بدا الهدوء على وجه والدته، بينما كان هو في قمة انفعاله، هل من المعقول بأنها لم تسمعه أم هي مشغولة بأمر آخر؟ وبالفعل انتبه إلى وجود المجلة بين يديها، فكور يديه في غضب، وضربها بقوة، فاهتزت المجلات الموضوعة فوق المنضدة، أما والدته لم تتأثر، انكبت عليها تُكمل ما بدأته، وغادر هو في حزن ممزوج بالألم، لتستقبله زوجة عمه ببشاشة، تفتح له ذراعيها، تعوضه عن حنان أمه، واحتفلت به مع ابنها عمر، فأصبحت في مقام الأم، التي يُشاركها كل شيء، ليكون حزنها عظيمًا على كلاهما، لم تُفرق بينهما قط في المعاملة، وبدلًا من أن يكون لها ابنًا واحدًا، أصبح لديها اثنين، فكانت فرحتها لا تُوصف، وكذلك جاء حزنها.

ـ سامحني يا أخي..

رفع الدكتور محمد برأسه عاليًا، فقد كان مطرقًا بها إلى الأسفل من فرط الحزن، بدا الصوت مألوفًا، ولكن ما أن نظر إليه، فرغ فاهه في استغراب، وقال في غير تصديق:

ـ أنت يا حسام من تقول ذلك، وأخيرًا علمت مدى صحة قولي.

زفر في ضيق، ثم جلس بجانبه، وهو يُردد في أسى ممزوجًا بالندم:

ـ لم أتخيل قط بأن الأمور قد تسوء بذلك الشكل المُفجع.

ربت الدكتور محمد على يديه، وهو يُضيف:

ـ لقد أخبرتك بأن الأبناء يزداد احتياجهم إلينا عند الكبر، إلا أنك لم تلبث أن ألقيت بكلامي جانبًا، ولم تبال به، فالعمل يشغلك بدرجة كبيرة، ولا حق لابنك عمر في أبيه، الذي أصبح بالكاد يشعر بوجوده، لم يجد العون والسند الذي يتمنى أن يجده كل ابن بوالده، القسوة والشدة والاستخفاف بالقول كانت ردود الأفعال الوحيدة التي عرفها منك.

ـ كنت أظن بأن تلك هي الطريقة الصحيحة للتعامل مع الولد، كي يشتد عوده، ويُصبح رجلًا مسئولًا فيما بعد، ولكنني خسرته بذلك، ولم يعد يلجأ إليَّ في أي شيء، فاختل عقله، واضطربت بداخله الهواجس، يُهذي بها أينما ذهب، وها أنا الآن أحصد ما غرسته، وأنتظر بشوق لحظة واحدة تجمعني به، نتحدث فيها دون توقف.

صمت للحظات معدودة، مرت كأنها دهر، تذكر فيها عمله بالماضي، تغير الوقت، وتبدل المكان من حوله، أخذته الأحداث إلى مكتبه، جالس على كرسيه في غَطْرَفَة، والغرور يفوح من بين شدقيه، حيث يتحدث في عَظَمَة، وكل الموجودين حشرات أسفل منه، يترجاه أحدهم وقد خالط البكاء نبرته:

-أنا بريء يا سعادة البيه، والله لم أخطئ في شيء.

ولامست بنانه طرف حذائه، إذ باللواء حسام ينظر له شزرًا، وقد انتفخت أوداجه، ثم نهره في غضب:

-كيف تجرؤ يا حشرة على الاقتراب مني؟

فزع الشاب المظلوم، وهب واقفًا، أخذ يعتذر منه في ندم:

-سامحني أرجوك، لقد حدث الأمر دون قصد مني، أقسم لك.

وما كان منه إلا أن انهال عليه بالضربات باستخدام السوط، الذي يحمله دومًا في يده، وبقدميه دفعه أرضًا، وهو يتوعده قائلًا:

-لن تفلت مني قط، سأجعلك تتذوق من ويلاتي؛ لتُدرك عاقبة الجرم الذي ارتكبته، فأنا سيادة اللواء حسام العدل، أما أنتم فمجرمين حقراء، بطشت به نفوسكم الدنيئة، ولا بد للعقاب أن يأتيكم، وسوف يكون على يداي.

-أنا .. أنا .. بر يء.. أقسم لك بأنني مظلومٌ.. لم أُخطئ في .. شيء ..

خرجت الكلمات منه متقطعة في محاولة للدفاع عن نفسه، لا يعرف سبيلًا للانفلات من بطش الظالم أمامه، حتى يديه التي حاول التصدي للضربات بها، قد جرحت ونزفت منها الدماء، حيث انقض عليه اللواء حسام كالنمر الجريح، فلم يعد به جزءًا سليمًا، وتم نقل الشاب إلى المستشفى في حالة سيئة للغاية، تم تناقل ما حدث بين العساكر، ليُردد أحدهم في أسى، وقد غزا الشيب رأسه:

-والله لا يستحق إبراهيم كل ذلك الظلم الذي تعرض له، أعرف ذلك الشاب جيدًا، وقد دفعته قلة الحيلة أمام مرض والدته وحاجتها الماسة للدواء إلى السرقة، ولو كنت موجودًا وقتها لساعدته على الهرب.

نظر العسكري (أمين) إليه في استنكار، وشهق في قوة، ثم قال:

-ولكننا لسنا بمحامين، ويقتضي دورنا الإمساك بالمجرمين، وننزل بهم العقاب الذي يستحقونه.

ربت العم سعيد - كما يُنادونه - على كتفه، فهو أكبرهم، وزفر في ضيق:

-يبدو بأنك قد تشربت القسوة من اللواء حسام، والله أنه ليُحزنني أن أعمل معه في قسم واحد، فأشهد الظلم الذي تعرض له إبراهيم، زينة الشباب، وسند أمه الوحيد.

أخذ العسكري (أمين) يجول ببصره يمنةً ويسارًا في خوف، فالجدران لها آذان كما يقولون، ويخشى أن يصل الخبر للواء حسام، ويفتك بالعم سعيد الذي يُحبونه، فأراد أن يُغير دفة الحوار، وسأله في استغراب:

-ومَنَ أين تعرفه يا عم سعيد؟ لم أتخيل قط بأنك قد تعرف أحدًا من المجرمين.

-ولكنه ليس بمجرم، وسوف أخبرك الآن بالحكاية كاملة.

أخذ العم سعيد نفسًا طويلًا، واعتدل أمين في جلسته، يستمع إليه بآذان صاغية، فسَرَد القصة أمامه، ولامس أمين نبرته الصادقة منذ البداية.

-كما تعلم يا أمين أنا وزوجتي لم يشأ الله أن نُنجب أبناءً، ولكن الحاجة سميحة جارتنا أكرمها الله بالولد، وقد بلغها الكبر عتيًا، فما كان منها إلا أن أوكلت زوجتي بمسئولية صغيرها، أسقته من فيض حنانها، تُروي شوقها للأمومة، وكبر بين أحضاننا، وعَظَم مقدار الحب في قلوبنا لأجله، فأدخلناه المدرسة، ووفرنا له كل ما يحتاجه حتى وصل إلى سن الجامعة، حينها بطش المرض بالحاجة سميحة، ساءت حالتها كثيرًا، وأصبحت في أشد الاحتياج إليه، ومع كثرة مصاريف الدواء شعر بالحرج، فجاء قراره بالنسبة إلينا صادمًا، وهو يقول:

-أبي.. أمي.. لا بد لي من البحث عن عمل.

ارتبكت حينها زوجتي، ورددت في ألم:

-ولكن المرحلة القادمة هامة جدًا بالنسبة إليك، ويجب عليك يا بني التفرغ لدراستك.

قَبَل يداها، وتفوه بكل حب:

-أعلم ذلك يا أمي، ولكنني لا أُريد أن أزيد الحمل عليكم.

هزت رأسها في استنكار، وقالت في غير تصديق:

-غير معقول .. كيف للابن أن يكون حملًا على والديه، وعائلته التي هي أغلى ما لديه في الحياة و..

قاطعها قبل أن تُكمل في أسى:

-ولكنها أيضًا عائلتي يا أمي، كيف لي أن أتركها أو أكلف أبي فوق طاقته بتكاليف علاجها؟

كان الأمر عظيمًا حقًا، والمصاب جلل، فالجلسة الواحدة لغسيل الكلى التي تحتاجها الحاجة سميحة لأكثر من مرة اسبوعيًا باهظة الثمن، حتى يُنهي لها إجراءات الورق على نفقة الدولة، ولا تحتمل حالتها التأخير أو الانتظار لذلك، فما كان من زوجتي سوى الانصياع له، تحشرجت الكلمات في حلقها، ولم تعد تعرف ماذا تقول ؟ لقد أودعته عندها السيدة سميحة أمانةً، ويبدو بأنه قد حان الوقت لاستردادها الآن، شاءت هي ذلك أم أبت، شعور الامتنان يغزوها من كل جانب مع سطوة الضمير، فكيف يكون جزاء إحسان الأخرى معها بالإساءة من قبلها؟

يُعيده العسكري (أمين) إلى المشهد الحالي، وهو يسأله:

-إذن فقد كبر إبراهيم في بيتك، يعني هو بمثابة الابن لك، لمَّ لم تقف بجانبه إذن، وتُبعده عن كل تلك الشرور؟

العم سعيد في ألم:

-ومَن الذي أخبرك بأنني لم أفعل؟ فوالله لقد حاولت قدر استطاعتي مد يد العون له، إلا أن غضبه وانفعاله على ضيق الحال، ورؤيته لأمه تتعذب، بينما يُشاهد في عجز، جعله يتجه للطريق السهل، فيُخرس ذلك الألم الذي ينهش في جسدها، وتُصبح بخير ولو للحظات، يسرقها معها بعيدًا عن وطأة التعب، وفي النهاية انتهى المطاف به كما ترى.

أطرق أمين برأسه إلى الأسفل في خجل، إذن فذلك الشاب مظلومٌ وكذلك العم سعيد لم يتخل عن ابنه، إلا أن بطش اللواء حسام كان شديدًا فوق كل احتمال، ليلهج لسان السيدة سميحة من وسط أنينها بالدعاء عليه:

-حسبنا الله ونعم الوكيل، إليك المشتكى يا رب، لقد أرانا ذلك اللواء الظالم قوته علينا، فاللهم يا رب أرنا قوتك عليه، أنت المنتقم يا الله، سلط عليه سوء عمله، واجعله يرتد إليه في أبنائه كما فجعني على ولدي.

وصل إليها خبر إصابة إبراهيم بالشلل مع عاهة مستديمة، فقد أعجزه شدة الضرب، وأظلمت الحياة في نظره، وقد فقد إحدى عينيه، تمنى حينها لو كان الموت جزائه، فهو أهون عليه من تلك المصائب التي رزئته من كل اتجاه.

سالت العبرات من عيني اللواء حسام بحرارة على وجهه، أحرقت وجنتيه، وهو يُردد في ندم، وقد ابتعد ذلك المشهد بعيدًا، وعاد إلى حاضره الأليم:

-لقد لحق بابني عملي السيئ، واستحققت ذلك العقاب الأليم، ارتدت كل الويلات إليَّ أضعافًا مُضاعفة، اغفر لي خطيئتي يا الله.

صرخ بأعلى صوته، وهو يُردد جملته الأخيرة، ثم سقط أرضًا، لم يحتمل حصاد أفعاله، ارتفع ضغطه بشدة حتى تسبب في تمزق في الأوعية الدموية، حدث النزف داخل الدماغ، وأصابته سكتة نزفية، أفجعهم الأطباء عند نقل الخبر إليهم، لا يفيقون من كربة حتى تنزل بهم أخرى، فخرجت كلمات العزاء من ثغر الجد فريد، وهو يواسيهم:

-لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، نحن عباد الله يفعل بنا ما يشاء، فاللهم إني لا أسألك رد القضاء، ولكني أسألك اللطف فيه، انظر لنا بعين رحمتك يا رب.

كان لوقع جملته الأخيرة على ابنته كريمة عظيم التأثير، فلمعت عيناها بغتة، وكأنما اصطادت من خلالها أملًا، نظرت للموجودين في تحدٍ، وقد حددت هدفها جيدًا، ولن تتراجع حتى تُعيد للأمور توازنها مهما كلفها ذلك من ثمن.

-اهدأي يا أمي، سيكون كل شيء بخير إن شاء الله.

أخذت والدتها تبكي دون توقف، وقد خيم شبح الحزن فوق عائلتها، كأن هناك من أصابهم بالعين، ولحق بهم الحظ السيئ، تسقط أوراق أفرادها واحدةً تلو الأخرى، يجتاحهم الخريف، ولا تعرف

كيف تأتي بالربيع إليهم؟ والبعض منهم ما زال في الريعان، وكأن وردته تفتحت فقط الآن، ولكن الرياح لم تُمهلها، وأطاحت بها ضرب الرياح.

في إحدى دور الأيتام..

وجدت الأستاذة شيرين نفسها بين جدرانها، حيث تستمد الأمل من رؤية الصغار، قادتها قدميها إلى هناك، تنسى همومها بين أيديهم، وتقص عليهم مختلف الحكايات التي قامت بتأليفها، وتبرعت لهم بالكثير من الأموال، تلقف من بين أفواههم الدعاء لأبنائها، قلوبهم البريئة وأرواحهم الصافية تجعل الأماني قريبة، تصعد الدعوات مُسرعةً، حيث تُرفرف نحو السماء في خفة ونشاط، لم يُثقلهم بعد سوء العمل، وشرور الأرض التي دمرها بنو الإنسان، لهجوا لأجلها بحب:

-يا رب اشف كريم وعمر.. يا رب احفظهم يا رب، وردهم لعائلتهم سالمين.. يا رب نجيهم وابعد عنهم كل الشرور.

انهارت في البكاء عند سماعهم، فمسح أحد الأطفال العبرات عن وجهها، وخرجت منه كلمات الطمأنينة، التي غرست بداخلها الأمل:

-لا تخافي يا ماما شيرين.. الله جميل ويُحبنا.. يسمع دعائنا ويلبي النداء.

ثم سكت لهنيهة، وهي تضمه إلى أحضانها، فربَت على كتفها، وأكمل:

-أنا كل يوم أنظر إلى السماء.. أتحدث مع الله .. أسأله أن يحفظ لي أمي وأبي، ويعيدهم إليَّ، تاهوا مني وأنا صغير هكذا أخبرتني المعلمة.

قبلت الأستاذة شيرين رأسه، وطلبت منه في رجاء أن يُناديها بتلك الكلمة التي اشتاقتها، فخرجت منه صادقة:

-ماما .. ماما..

-قلب ماما .. قلب ماما .. كم افتقدتك يا حبيبي عمر..

تهدج صوتها، وقد لامستها كثيرًا كلماته، ما لبثت أن ذكرتها بابنها، فشعرت وكأنما فقدته الآن، تجدد الأنين، وانفض التراب عن تلك الآلام التي حاولت إخفائها، جاءتها مديرة الدار، ساعدتها على النهوض، وأحضرت لها كوبًا من العصير، واختارت كلماتها بعناية، تهون عليها:

-لقد علمت بما حدث مع عمر الحبيب، فكلنا نحبه، ويعلم الله كم نحن مستاؤون لأجله، ولكن يا عزيزتي يجب عليكِ التماسك، لن يُجديه نفعًا انهيارك الآن، وهو في أشد الاحتياج إليكِ.

حاولت الأستاذة شيرين التقاط أنفاسها، كي تهدأ قليلًا، وتسكن شهقاتها، ثم زفرت في ألم:

-والله يا مدام لطيفة، لا أعرف حقًا بمَّ أُخبرك؟ أُغلقت كل الأبواب في وجهي، فأي مكان أقصد لمُساعدة ابني؟ والأطباء قد احتاروا في أمره.

-عليكِ بالصدقات يا حبيبتي، فإنها مُنجية والله، تصنع المعجزات.

شردت لثوان، وكأنما تذكرت شيئًا، ثم أردفت:

-لقد وصل بي المرض إلى النهاية، ساءت حالتي كثيرًا، وكنت على مشارف الموت، تمكن السرطان مني، وفرد شباكه فوق جسدي، أقضيها أيامًا، وحاول الأطباء جاهدين ألا يُشعرونني بذلك، إلا أنني استطعت الفهم دون حديث حتى جاءتني تلك السيدة، فوالله ما زلت أتذكر ما قالته، وكيف غَير ذلك بشكل جذري مجرى قصتي؟

كانت تستمع إليها الأستاذة شيرين باهتمام، انعكس في عينيها، وكأنها تترقب تلك الأقوال كي تحذو بحذوها، فتشجعت مدام لطيفة، وواصلت الحديث:

-لقد أخبرتني بفضل الصدقة، ويجب عليَّ طرق ذلك الباب، طالما أبدى الأطباء استيائهم، وعجز الدواء عن شفائي، كانت تتحدث ببراءة الأطفال، فلا تفهم بأن ذلك المرض لعينٌ، لا ينجو من سطوه سوى قلة قليلة، إلا أنني تعلقت بقولها كالغريق يرى بالقشة نجاته، على الرغم من خفتها، فاصطدمت بامرأة أخرى بينما أنا أسير في رواق المستشفى، يلتف حولها صغارها، يبكون من الجوع، وقد استبد بهم، وأمهم في حالة مزرية، ما كان مني حينها إلا أن خلعت قلادتي الذهبية عن رقبتي، أعطيتها لها، ثم طلبت منها في رجاء أن تدعو لي بالشفاء.

وما كادت تختتم حديثها، حتى ابتسمت للأستاذة شيرين، ونظرت لها نظرة ذات معنى، فلو كان المرض ما زال حاضرًا لما رأتها اليوم، تتحدث معها بكل تلك الحيوية والنشاط، قد حدثت المعجزة إذن، وعَلمَت الأستاذة شيرين جيدًا ما يجب عليها فعله.

****

-7-

الحبل الدامي

ذهبت خلف الشعور المعتمل داخلها، وبداخلها اليقين أنها ستصل، تتذكر تلك الكلمات التي خرجت من فيهِ، يبوح لها بالحقيقة، وقد كذبه الجميع، رفضوا تصديقه، إلا أنها تعرفه جيدًا، فكيف للمرء بنسيان من كَبَر تحت رعايته؟ الأم تعرف ابنها ولديها مرآة خاصة ترى بها مكنون الأشياء الغائبة عن ذهن الحضور، فقامت بزيارته.

في إحدى المصحات النفسية..

اجتمع ثلاثتهم في المكان نفسه، على الرغم من اختلاف الفعل، إلا أن الحصاد كان مُفزعًا، وكأنما لحقت النيران بكل الثمار، فأبادتها عن بكرة أبيها، وبقي رمادها، قُرت عيناه عند رؤياها، وكم صَعب عليها ذلك الأمر، ولولا توسط أحد الأطباء لها، لما استطاعت الدخول إليه، فارتمى في أحضانها، وهو يُردد في ألم:

-أنا لست بمجنون يا عمتي، وإن ذهبتِ إلى شقتنا، سيُمكنك حينها رؤية تلك الطلاسم المحفورة على المرآة، وكأنها تُمثل شيفرة أو رمزًا لبوابة ما، لا تستطيع الأقفال فتحها.

نظرت له عمته كريمة باستغراب، يبدو كلامه غريبًا عليها، وكذلك حركاته غير المتزنة كالمخبول، يسير دون وعي، ويُهذي بكلمات غير مفهومة، ربتت على كتفه في محاولة منها لتهدأته، إلا أن ثورته لا تلبث أن تفور، ولا يسكن قط، يحمل أناملها بين يديه، وثني ركبتيه أسفل قدميها، وهو يقول متوسلًا:

ـ صدقيني يا عمتي، أنا أقول الحقيقة، ولم يسبق لي أن كذبت عليكِ، كان خطؤي من قبل ألا أخبرك، ساعدينا أرجوكِ، فقد يكون ذهابك إلى هناك هو منفذ الأمل الوحيد بالنسبة لنا.

ناولها مفتاح الشقة، خبأه في جيبه جيدًا، وأعطاه لها في حذر، فقد زرعوا الكاميرات بكل ركن داخل الغرفة، أخذ يجول ببصره هنا وهناك، ولكن خوفه هذه المرة لم يكن ممن يترقبونه خلف تلك الشاشات، بل من روحها التي تسعى للانتقام منه، وجاءهم صوت صراخ يهز الأرجاء من الغرفة المجاورة، سألته العمة كريمة في ارتباك، فأجابها في توتر:

ـ إنها رضوى يا عمتي و...

قاطعته قبل أن يُكمل في استنكار:

ـ رضوى أيضًا هنا، غير معقول.

وضعت يدها على فاهها، وهي تُردد الجملة الأخيرة، ثم غادرت الغرفة على عجل، كل ثانية تمر خطيرة للغاية على حياتهم، وكما جاءوا إلى هنا ما بين طرفة عين وانتباهتها، قد لا تجدهم بالجوار في أي ثانية قادمة، فتخسرهم إلى الأبد، أعجزها الهم، وكل خطوة كان لها ثقلها، تُقدم قدمًا وتُؤخر

الأخرى حتى وصلت إلى المكان المنشود، شعرت بلفحة هواء ساخنة تلسع وجهها عند الدخول، وكأن هناك أنفاس تحترق على الرغم من خلوه، ثم شُدهت بحقيقة قوله، المرآة مليئة بالطلاسم حُفرت عليها من كل جانب، فتحت كاميرا هاتفها، كي تلتقط المكتوب، وما أن فعلت اختفت من فورها، وكأنه لم يكن لها وجودًا، شهقت في قوة، الأحداث تشتد مع كل نقلة، وتفوق مقدرة الشخص العادي على استيعابها، ولا تعلم المصير المجهول الذي بانتظارها، وقد فتحت تلك البوابة.

ـ مَنَ هنا؟

أفزعتها صاحبة العمارة، فقد رأت باب الشقة مفتوحًا، وهي تعلم بما حدث لسكانها، دلفت للداخل في استغراب، تُلقي السؤال في حدة لمن تجرأ على ذلك دون استئذانها، فأجابتها العمة كريمة في نبرة مهزووة، خشيت ألا يكون صاحب السؤال من البشر، وقد أصبح العالم من حولها مليئًا بالأشباح، حيث تسعى الأرواح لتنتقم.

ـ أنا كريمة .. كريم ة.. عمة عمر وكريم.

تبدل شعور السيدة سناء (صاحبة العمارة) عند رؤيتها، فهي تُحبها للغاية، وكم جمعتهم الأحاديث، لاحظت ارتياب كريمة، ولم يُخف عليها توترها، فسألتها في قلق:

ـ هل أنتِ بخير يا دكتورة كريمة؟ أعلم بأن ما حدث مع الأولاد قاسٍ للغاية، ولكن يا عزيزتي لكل شدة مدة، وإن شاء الله ستطمئن قلوبنا عليهم، ويعود كل شيء كما كان.

أخذت تفرك في أصابعها، لا تعرف ماذا تقول؟ نظرت لها بتيه، وكأن هناك ما يشغلها، لم تنتبه للهاتف بين يديها، فما لبثت أن أفلتته، وكاد أن يسقط أرضًا، لولا أن تلقفته السيدة سناء في اللحظة الأخيرة، ففُتحت شاشته، لترى السيدة سناء الصورة، شهقت في غير تصديق، وهي تُردد في استنكار:

ـ هذا السحر خطيرٌ للغاية، ولا قدرة لأحد على التصدي له دون مساعدة الشيخ مرزوق.

ـ ومَن يكون الشيخ مرزوق؟!

سألتها كريمة بالنبرة ذاتها، وقد هال الاثنتين شدة الموقف، فأجابتها في ثبات، وقد بدأت تهدأ:

ـ ستعرفين كل شيء حين نذهب إليه، ولكن سأوصيك أمرًا يجب عليكِ عدم مُجادلته.

سارت كريمة خلفها في استسلام، فقد يكون ذلك سنا بريق خلاصهم، ويجب عليه التشبث به، وما أن وصلت إليه، دبت قشعريرة في أوصالها، المكان مُريبٌ، ويا ليتها لم تنساق خلف أمومتها، فقد تكون هناك طريقة أخرى لمساعدة أبنائها (عمر وكريم).

ـ تفضلي بالجلوس يا دكتورة كريمة.

بأدب جم حدثها ذلك الشيخ، فتفاجئت بأنه يعرفها، ولم يُخف عليه استغرابها، ليُجيب عن التساؤل داخل عقلها:

ـ أنا أعرفك جيدًا يا دكتورة كريمة، وأعلم سبب مجيئك إلى هنا، هلا ناولتني الهاتف؟

لا إراديا مدت يديها، وأعطته له، فانتفض، وهب واقفًا من مكانه، ينظر بارتياب في كل اتجاه، وصرخ بصوت عالٍ بكلمات تحذير:

ـ أعلم بأنك هنا، استطعت النفاذ من خلال تلك البوابة، واستغللت روح تلك البريئة في نيل مرادك، ولكن الآن وقد أصبح معي المفتاح، سأعيدك بيدي إلى حيث جئت، وسيكون ذلك قريبًا جدًا، فاستعد.

ـ هههههه.. هههههههه

صدى ضحكاته تهز المكان بشدتها، لا تبدو قريبةً لبني الإنسان، صوت مُخيف مُرعب أثار وجدانهم، وأفزع أركانهم، فالتصقت السيدة سناء بالدكتورة كريمة، ونظرات الخوف تنطلق من أعينهم، فأسعد ذلك الشرير، الذي يتغذى على دب الرعب في نفوسهم، وصاح بنبرة آمرة:

ـ ابتعدوا عن طريقي.. وإلا جلبتم المتاعب لأنفسكم.. فأنا الشرير مدكور ذي القوة والجبروت، لا قوة لأحد على الوقوف أمامي، واسألوا عني من تسمونه بالشيخ مرزوق، فهو ليس كما ...

ردد الشيخ مرزوق الطلاسم الموجودة أمامه عبر شاشة الهاتف، فلم يستطع الشرير أن يُكمل حديثه، وتبخر عن المكان، وهو يتوعده بالعودة من جديد، صمت الشيخ مرزوق لبرهة، ثم تفوه في ضيق:

ـ هذا الشرير بالنسبة إلينا أعتى القوى التي نواجهها على الإطلاق، نرى الويلات في مواجهته، ويكون هناك دومًا تضحية لاستدعاءه، أما أمر صرفه فلم يسبق لامرؤ أن استطاع بفعل ذلك باستثناء الساحر ضرغام، والذي أصبح ...

ـ وأين هو ذلك الساحر؟ وكيف يُمكننا الوصول إليه؟

قاطعته كريمة في لهفة، والخوف يجتاح أعصابها، فنظر لها في حدة، وأكمل:

ـ لم يعد ذلك الأمر ممكنًا، فلو أمهلتني لسمعتِ بأنه قد أزهق روحه، وأصبح الآن تحت سلطته، وهذه الطلاسم هو من كتبها، ولكنها ليست بتلك القوة التي نحتاجها.

ـ ماذا نفعل إذن؟ أولادي حياتهم تدمرت، ولا بد لي من فعل شيئًا لطرد الشرور بعيدًا عنهم.

خالطت نبرتها العبرات، وهي تتوسله، فسألها عمَّ تعرفه عن أول ضحية؟ يجب عليها الذهاب إلى حيث عاشت، والنبش في ذكرياتها، فهناك أمرٌ ما يجب عليهم معرفته، وقد تكون الإجابة عند عائلتها، استطاع الشيخ مرزوق بطريقته نفض التراب عن بعض الأسرار الدفينة، إلا أن قول البشر أحيانًا ما يكون أصدق ممن يستعين بهم، فذهبت الدكتورة كريمة في سبيلها، وفي الطريق نحو وجهتها أخذت تُناجي الله:

(ساعدني يا الله، كن لي خير معين، فأنت تعلم كم ضاقت بنا الأحوال، ولم يعد هناك من نور أو بارقة أمل تظهر بالقرب منا، وأخشى أن أفقد أبنائي دفعة واحدة، وهذا ما لا قوة لي على احتماله، فالطف بنا يا رب).

ـ أين مخبز العم مُنير؟

ما أن ترجلت من السيارة، ووطأت بقدميها بلدة سلمى بمنية النصر، سألت أحدهم غير جزعة وبرباطة جأش على الرغم من اصطدامها بآخر، لم ينتبه إليها مع قصر طولها وصغر بنيتها، فطرحها أرضًا، ولم يُبال بها، لتظن السوء بأهل تلك المدينة، ولكن الشخص الذي سألته كان كريمًا، عاملها بلطف، وذهب معها حتى باب البيت الذي تقصده، ثم استأذن منها، ومضي في طريقه.

ـ ما هذا المكان الذي أرى؟ يبدو بأنه قد أخطأ في الفهم، لقد سألته عن مخبز العم منير، ولم أكن بحاجة إلى تلك العطلة وذلك التيه، يكفيني ما أنا فيه، فأين قد يكون مكان بيتك يا سلمى؟

سمعها أحدهم، فأجاب بصوت يُقطر أسى وندمًا:

ـ رحمة الله عليها، وها أنتِ ذا تقفين أمامه، لم تتوه بكِ السبل كما تظنين.

أطرقت برأسها إلى الأسفل، فقد افترش الأرض بردائه، مهمومًا مكروبًا، يفيض الحزن من طلته ونبرته المتألمة، فسألته في ارتياب:

ـ ومَنَ تكون أنت؟

صمت للحظات، ثم أجابها في جزع:

ـ أنا الأب المفجوع في ابنته، لقد كنت أُخبئها بين عيناي، أُخفيها تحت ذراعي، ولكن غلبت إرادة القدر كل المشيئات، لطالما كنت أدعو الله أن يجعل روحي فدائها، ولكن روعتها تلك الكوابيس، وما أن رأيت لمعة عينها في ذلك الحلم البعيد، ظننت أن به نجاتها، وكم كنت مُخطئًا!

بدت علامات الاستفهام جلية على وجهها، ثم سألته في تأثر:

ـ وماذا يكون ذلك الحلم؟ وأي كوابيس تقصد؟

لم يستطع أن يُكمل، وقد فاضت عيناه بالدموع، فانهار، وفي قلبه لوعة، فتولت زوجته (السيدة فاطمة) الإجابة في أسى:

ـ لقد كانت تظن بأن روح عمتها نور تحوم حولها، وترى دومًا شبحها في المرآة.

التقطت الكلمات من ثغرها، وأخذت تربط بين الأمور وبعضها، وأعادت عليها السؤال بطريقة أخرى:

ـ وكيف ماتت العمة نور؟

ـ لقد احترقت داخل الفرن، وحينها سلمى كانت من فتحت الغاز، ثم ذهبت تُناديني كي أُشعل لها الموقد في عيد مولد نور، ولكن نور سبقتنا إليه، فانفجر في وجهها، لم تحتمل الحياة مشوهةً، غرست شذرات المرآة في عنقها، تركت تلك الحادثة في نفس سلمى ألمًا عظيمًا، فساءت أحوالها كثيرًا، واضطرر...

قاطعها عبدالله قائلًا:

ـ لطالما تفوهت سلمى بالحقيقة يا أمي.

السيدة فاطمة في استنكار:

ـ كيف تقول ذلك يا عبدالله؟

رفع كفوفه إلى وجهه، يُخفيه، لا يقوى على النظر إليها بينما يُجيب:

ـ لقد رأيت الوجه المحترق من خلال كاميرتها، ولم أستطع حينها البوح بشيء من فرط الخوف، ما أن فزعت سلمى اختبأت خلف الباب، وتقوقعت على نفسي، وظللت لأيام دون حديث، حينها ظننتم بأنه من الحزن على أختي، ولكنني كنت مصدومًا.

يهز والده رأسه في نفي، بعد ما هب واقفًا، وهو يُردد في استنكار:

ـ غير معقول، هل كانت روح أختي تسعى للانتقام من ابنتي، ولم تكن كما المكذوب مثلما أراد الطبيب أن يوهمني، ولكن لمَّ يا نور؟ ألمَّ تكن سلمى في مقام ابنتك وفلذة كبدك؟

صاح بالجمل الأخيرة في لوم، بدت كصراخ يستنكر به فعل أخته، فهي لم تر منه سوى كل جميل، لمَّ أظلمت الحياة في وجه صغيرته؟ وسلمى لم تتعمد إيذائها، بل حدث الأمر قضاء وقدر، وقعت الأمر عليهم كالصاعقة، لا يقوون على احتماله، فقالت كريمة في هدوء:

ـ علينا بالتأكد من ذلك من خلالها.

نظر ثلاثتهم إليها في استنكار، ورددوا بغير فهم:

ـ ولكنها ليست بحية، أخبرناكِ بأنها ماتت منذ زمن بعيد و...

ـ إذن يجب علينا استدعائها.

لم تُمهلهم ليُكملوا، وقد حسمت أمرها، فسألتها السيدة فاطمة في حيرة:

ـ وكيف يكون ذلك؟

ـ الأمر يسير إن شاء الله، ولكنني بحاجة إلى مساعدتكم.

قالت ذلك بثبات ويقين، كان الأمر قاسيًا للغاية عليهم، ولكن وجب عليهم رؤية الجانب الآخر للحقيقة، أحضروا لها بعض الأشياء التي امتلكتها نور، وأشدها تعلقًا بذكرياتها، سافروا معها من منية النصر إلى جنوب الوادي، حيث تلك الجامعة التي جعلت ابنتهم تغترب عنهم لأول مرة، وسكن الشباب في أحد أحيائها، وكانت صاحبة العمارة هي الوسيلة التي مهدت لهم سبل الفهم، حين أخذت العمة كريمة إلى الشيخ مرزوق، والآن هي ذا عائدة إليه، وقد أحضرت مطالبه.

دخان كثيف وجدوه في استقبالهم، تصعب الرؤية من خلاله، وما بين طرفة عين وانتباهتها تبدل المشهد، سكنت الأجواء المضطربة، وظهر الشيخ مرزوق على مرأى منهم، لا يعلمون من أي باب دلف للغرفة، ينظرون لبعضهم البعض في قلق، أراد أن يُطمأنهم، فتبسم وهو يقول في هدوء:

ـ لا تخافوا مني، أنا لست بعدوكم، أنا هنا كي أُساعدكم، فتعاونوا معي لتنل الأرواح خلاصها.

ـ عن أي أرواح تقصد؟

باغته الأستاذ منير بهذا السؤال في ألم، يخشى أن يصدق حدسه، ليُجيب الآخر:

ـ روح سلمى ونور، وهناك روح ثالثة ما زلت أجهل الكثير عنها، إلا أنهم جميعًا الآن في نفس الدائرة، ومعهم الساحر ضرغام تحت سطوة الشرير.

فزعت السيدة فاطمة، ورددت في استنكار:

ـ وضح قصدك أرجوك، أنا لا أفهمك، فهل ابنتي سلمى تُعذب في مكانها؟

ـ ابنتك لم تُغادر روحها الأرض بعد، كانت في البداية تسعى للانتقام، أما الآن فجل ما ترجوه هو خلاصها.

ـ خلاصها ممنَّ؟

ـ ذلك الشرير الذي استحوذ على روحها.

كثرت التساؤلات، وشاع الهمز واللمز بين الحضور، فصاح بهم مُحذرًا:

ـ الوقت ينفد منا، لن تُفيد تلك الأسئلة في شيء، يجب علينا التحرك على الفور.

ارتفع الدخان عاليًا، وعمَ المكان السكون سوى من تلك الترانيم التي يُرددها بلغة غير مفهومة، فبدأت أصوات غريبة في الظهور مع أنفاس حارة، وهج لهيبها أحرق وجنتي الحضور، ثم تمثلت أمامهم في هيئتها الراحلة، وضع الأستاذ منير يده على فاهه، وقف قبالتها، وهو يُهذي باسمها في خوف:

ـ نور.. هل هذه أنتِ؟ غير معقول، لمَّ فعلتِ ...

اهتز صوته، وتغيرت نبرته، فتحشرجت الكلمات في حلقه قبل قول ما يُريد، وهي ترفعه عاليًا، تصرخ به:

ـ أنا لم أستحق ذلك العقاب القاسي من قبل ابنتك، وألقى ذلك المصير، كيف لي أن أُسامحها؟

ـ ولكنها أحبتك كما أحببناك، وعاملناكِ كابنة لنا، فكبرت بين أحضانكِ و...

أخرستها بيديها الأخرى، وهي ترفعها على الجانب المقابل لزوجها، ثم صاحت في ألم:

ـ لا تقولي شيئًا يا فاطمة، فقد أودت ابنتك بحياتي، ولم أر السلامة من حينها.

ـ ولكنها أحبتكِ يا عمتي، ما تخيلت قط أنك قد تكنين لها كل بكل ذلك الكره، أرادت أن تُفاجئكِ، وكم تعذبت تحت وطأة ذلك الفعل الأليم.

وقف عبدالله في شجاعة أمامها، وتحدث برباطة جأش، لا يُخيفه ذلك الشبح ذو الوجه المحترق، فنزلت إليه، وقربته إليها بإشارة من يديها، لم تشهد مجيئه، ولو كانت حاضرة لأسقته من فيض حنانها، لكن باغتها ذلك المصير المشئوم، التفت حوله كأنما تضمه، ثم صرخت بهم قائلة:

ـ ماذا تُريدون مني؟ ولمَّ أحضرتموني إلى هنا؟

ـ لأجل سلمى.

التهبت أنفاسها، وشرار كالنيران تتطاير من نظراتها، ونهرتهم في غضب:

ـ لا تذكرون ذلك الاسم أمامي ثانية، فقد نالت ما تستحقه، ولا قوة لأي مخلوق على دفع الضرر عنها، وقد وقعت تحت سطوة الشرير مدكور.

انهارت السيدة فاطمة في البكاء، وشاركها زوجها، الذي توسل أخته في ضعف ممزوج بقلة الحيلة:

ـ لقد بلغ الكره منكِ مبلغًا عظيمًا يا أختي، فلم تُراع قط صغر سنها وعدم قدرتها على استيعاب ما تسببت به، كبرت والخوف عظيم بداخلها، غادرتها السكينة وكادت أن تصل إلى حافة الجنون، وأوشكت على إيصالها بنفسي لذلك المكان، الذي لا يعود منه الأشخاص كما يذهبون، حتى رأيت بريق الأمل في عينيها بعد غياب، ولم أتخيل قط بأن الدائرة ستدور، وتدفع ابنتي الثمن غاليًا، ألا يُكفيكِ كل ما حدث معها؟ وقد كانت أغلى إنسانة على قلبكِ من قبل.

رفعته ثانية، وقربته من وجهها، تحرق وجنتيه بلهيب أنفاسها، حتى هزتها تلك النظرة المنعكسة في عينيه، شاخ ذلك الرجل القوي، وعَظَم مصابه، استولى عليه الحزن، وأثقله الهم على فقيدته، التي لم تُمهله الحياة أن يودعها، خمد البركان المشتعل، وهدأت ثورته داخلها، فأنزلته في رفق، وألقت على مسامعهم ذلك السؤال في تردد:

ـ كيف لي أن أُساعدها؟ وماذا تُريدون مني أن أفعل؟

بلغة غير مفهومة تحدث إليها الشيخ، وهمس لها بمخططه، رسم لها بعض الرموز التي يستعصى على الشرير استيعابها، هناك بعض المحاولات التي يفعلها السحرة في التصدي له، والشيخ مرزوق أحدهم، بل على أصدق تعبير الساحر الماجن، فلا أحد يعلم الغيب سوى الله، ومن يساعدونه كشفوا له المستور، وأخبروه ببعض الحيل.

في مكان غير المكان، وزمان آخر لا يعرفه بنو الإنسان، المكان مُظلم للغاية، وما من سراج يُضيء ما خلف الأسوار، اجتمع روحين لم يلتقيا قط في هيئة البشر، إلا أنهما ترابطا الآن، وقد اتصلت الدوائر ببعضها، وقفت قبالتها في ثبات، تسألها في تحدٍ:

ـ مَنَ تكونين؟

أولتها ظهرها، وأرادت الرحيل حتى تفوهت الأخرى باسمها:

ـ ما هي علاقتك برضوى؟ وماذا تُريدين من نوران أمها؟

صرخت بها، وهي تُجيب في حدة:

ـ نوران ليست بأمها، أنا أم رضوى، وقد غدرت بي تلك الماكرة، التي تدعي أمومتها.

ـ إذن فأنتِ تسعين خلف الانتقام، ولكن ..

ترددت قبل أن تُكمل، إلا أنها ألقت بالحقيقة في وجهها:

ـ وابنتك رضوى أيضًا مجرمة، دبرت الحيل، وألقت بابنة أخي في وسط النيران، فخسرت روحها بذنبها و..

صمتت لبرهة، ثم أكملت:

ـ وقد كانت أيضًا في مقام ابنتي، لا بد لي من أخذ ثأرها.

دارت روح السيدة إيناس في المكان، طوقته ببحثها جيئةً وذهابًا خوفًا من سماع أحد الأشباح حديثهم، وما أن تأكدت من العكس، عادت إليها، وقد تغيرت نبرتها، تتوسلها:

ـ ارحمي ابنتي أرجوكِ، وسأفعل لكِ ما تريدين أينا يكن.

ـ تحرير روح سلمى هو الثمن.

نظرت لها في استغراب، ورددت في استنكار:

ـ لعل الأخبار لم تصل إليكِ بمدى بطش الشرير مدكور، وسطوته على الجميع، فلا يقف قبالته أحد.

ـ سنفعل نحن.

ـ ولكن الأمر خطيرًا.

ـ إذن لنُضحي لأجل بناتنا، عليكِ أن تدعي السيدة نوران في حالها، نالت ما يكفي من عقابها، وسيحفر ذلك الأمر في ذاكرتها، والآن قد خف عقلها، الله وحده يعلم إن كان سيعود إليها اتزانها ثانية أم لا بعد ما شهدته، وأظن في ذلك بعض الإنصاف لكِ، فيجب عليكِ الآن التحرك لأجل ابنتك.

صمتت تُفكر فيما قالت، لتُردف الأخرى:

ـ هل أنتِ مستعدة للتضحية؟

نظرت لها بتيه، وهي تُجيب في استسلام:

ـ تم حسم الأمر إذن.

- ٨ -

الشر المستطير

ـ دعني أرحل، خلصني مما أنا فيه، ارحمني أرجوك.

صدى ضحكاته يُزلزل الأرجاء، يسخر من قولها، فهو ملعون من أهل السماء، وقد بغضه أهل الأرض، منفي في أسفل سافلين، الشرير مدكور من نسل الساحر (مذعون) والشيطانة (نيران الحموم)، قصة حب غير مقبولة بين بني جنسهم، إلا أن العشق قد وَلَه بقلوبهم، فهربوا بعيدًا عن أنظارهم، اتحدات قواهم وصنعوا تعويذة أخفت وجودهم، عملوا معًا لسنوات استعان فيها الساحر مذعون بها، حتى بلغته السبل، وتمكن منها، فنبضت تلك الخطيئة في أحشائها، وأسموه (مدكور) على وزن (مذكور) لعله يكون ذو سطوة ونفوذ يشيع صيته بكل الأنحاء، ترتعد المجالس أينما حضر، فلا يخشى أو يهاب أحدًا، وقد اضطروا مذعنين إلى الانصياع لقولهم، تلحق به لعنة والديه، فكان مرفوضًا من قبل الجنسين.

ـ هههههه.. إياكِ والتفوه بتلك الكلمة ثانية أمامي.. فأنا ابن مغبون، ملعون، أسروا روحي بمكان مغمور أسفل الأرض، وكان ضرغام الماجن هو من ألقى بي هناك، وأطلق علي تلك التعويذة، فما أنا بميت ولا بحي أُرزق بين بنو الإنسان، رفضوني جميعهم، وذقت بسببهم الكثير من الويلات، كاد أنيني يمد الصخور بالحياة، وتتحدث شفقة عليَّ كل الجمادات، حتى استدعى الساحر ضرغام المهالك لنفسه، وفُتحت تلك البوابة بواسطتكِ.

سلمى في استنكار:

ـ كيف تسببت أنا بذلك؟ وقد كنت كالذبيحة التي تفرفر روحها على النصب.

أخذ الساحر يموء بصوته، يُريد تولي الإجابة، وقد كمم الشرير فمه، فضحك من فعله، وبإشارة من يديه سحب تلك السلاسل بعيدًا عنه، فبدا ضرغام وكأنما يتنفس الصعداء، ثم صاح في ألم:

ـ لقد جاءني أحدهم، ويدعى (برهان)، اشتكى من سوء فعلك، أثارت الصخب بكل مكان، تطيح فيهم بشرورك، وقد فاقت قوتك مقدرتك، كانت الشيطانة نيران الحموم أقوى بني جنسها، وكان لها نصيبًا من اسمها، لا تدخل في قوم، إلا واشتعلت النيران كالحمم في كل اتجاه، فلا تذر خلفها سوى الخراب والدمار، تطلب الأمر سنوات من الساحر مذعون كي يتمكن من استحضارها، وما أن رآها شُده بجمالها، وصل إليه خبرها، وقرر أن يستعين بها في عمله، فازداد بطش كلاهما، وتغيرت نظراتهما، يُرفرف الحب فوق سمائهم ...

يضربه الشرير بسوطه، فقطع حديثه، وتأوه من شدة الأنين، على الرغم من مفارقه روحه لجسده، إلا أن للروح قسمتها من العذاب أيضًا، لا يكف عن ذلك حتى أنهك كل قواه، وانتهى الحوار عند تلك النقطة، وما زال الكثير من الأمور مبهمة بالنسبة إلى سلمى.

* * * *

في إحدى المستشفيات الخاصة..

نقل الدكتور محمد ابنه إلى هناك، حيث يكون الاهتمام عظيمًا، ويرعاه الأطباء قدر استطاعتهم، ولكن النتيجة ظلت كما هي، فسأل أحد الأطباء في أسى:

ـ هل ترى حاله سيكون أفضل إن نقلناه للخارج؟ طالما هنا لا يُمكننا تغيير شيء، قد يُحسن وضعه تطور الأجهزة والتقنيات بالخارج.

ـ ولكن ابنك حالته مبهمة بالنسبة إلينا، فجميع المؤشرات الحيوية بحالة جيدة، لا نعرف حقًا سببًا لتلك الغيبوبة، وكأنه كالأميرة النائمة، هناك من ألقى عليه بتعويذة، وننتظر جميعًا تلك المعجزة.

ـ كيف تقول ذلك يا دكتور إسلام؟ هل تمزح معي؟

ـ والله يا دكتور محمد، لا أقصد أي مما تبادر إلى ذهنك، ولكنها الحقيقة التي لا يُمكن إنكارها، كريم لم يعد إلى وعيه قط، وفي كثير من الأحيان أشعر وكأنه واعٍ، ولكن لا يقدر على التعبير، وأشعر بأنينه أيضًا، وكأن هناك من يُعذب روحه في مكان ما.

وقع الكلمات كان قاسيًا على قلبه، دارت به الغرفة، وقد أغلقت كل منافذ الأمل إلى حياته، سقط أرضًا، لا تقوى قدماه على حمله، فناداه إسلام في قلق، وردد بخوف:

ـ دكتور محمد، هل أنت بخير؟

أحضر له كوبًا من الماء، وساعده على النهوض ثم أجلسه على أحد الكراسي، فوضع الدكتور محمد وجهه بين كفوفه، وفي استنكار ينقل شعوره:

ـ قل لي يا إسلام كيف السبيل لإنقاذ ابني، فقد احترت والله في أمري، ولم أعد أعرف ماذا أفعل؟

ـ عد إلى عملك، قم بواجبك في مساعدة المرضى والتخفيف عن آلامهم، لعل ذلك يكون منفذ الأمل الوحيد إلينا.

صوت من الخلف يأتيه، لم يكن بحال جيد لتمييز صاحبه، حتى وقفت قبالته، وأكملت في ثبات:

ـ كما نبكي الآن على ما حدث مع أبنائنا، هناك آباء وأمهات آخريين يتجرعون من الكأس نفسه حزنًا على فلذات أكبادهم، وقد حباك الله بتلك المهنة وذلك التخصص، لا يجب عليك التراجع الآن، قف كالصخر في مكانه.

نظر في غير استيعاب، ووجه لها الحديث:

ـ كيف تُريدين مني فعل ذلك؟ وابني هنا على شفا طرف بين الحياة والموت.

ـ لا خيار أمامك صدقني.

أجابته في يقين، ثم نظرت إلى الأعلى وكأنما تُخاطب السماء، وأردفت:

ـ وكذلك الدعاء، تصدق بعملك يا دكتور محمد، فليست كل الصدقات تكون بالمال، عسى الله أن يقر أعيننا، ونشهد الإجابة على مقربة منا.

تغيرت نظرته، وجدت منه التيه، ثم هز رأسه في إيجاب، هي محقة، وشهد الأنين بقولها، فألمها على كريم وعمر لا حد له ولا انتهاء، وما أسوأه من حال يقف فيه الآباء عاجزين أمام معاناة أبنائهم!

ـ اذهب يا دكتور محمد، ولا تخف، كريم هنا في أيد أمينة، ولعل البشرى تكون قريبًا، أعانك الله وسددك يا رب.

تشبث الدكتور محمد بكلماتها، استمد منها الأمل، أخذ يعمل دون كلل أو ملل كالشمعة المتقدة لا تنطفئ أو يخف بريقها، يسأل الدعوات من المرضى أينما ذهب، يُساندهم ويخفف آلامهم، ويسرق بعض اللحظات كي ينفرد بهاتفه، يتصل بالدكتور إسلام كي يطمئن على ابنه، فتأتيه الإجابة نفسها، يزفر في ألم، ويُلهج لسانه بالدعاء:

ـ اللهم اشف كريم يا رب، اعف عنه وعافه، هو نبض قلبي يا رب، ولا قوة لي على العيش من دونه، قر عيني يا رب برؤيته سليمًا.

ـ سيكون بخير يا بني إن شاء الله.

سيدة عجوز تأتيه، تربت على قلبه بكلماتها، لا يعلم من أين تعرفه، فأفصحت عن نفسها:

ـ أنا الست دليدا، يكون لي الشرف إن اعتبرتني في مقام والدتك، فقد أكون بمثل عمرها، آتي إلى هنا لسنوات كي أخذ جلسات الكيماوي، وأشهد كيف تساعد الجميع دون استثناء؟ وتهون عليهم مصابهم بابتسامتك المرحة وخفة روحك الطيبة، فأحسن الظن يا بني، الله كريم، ولن يخذلك.

ترقرقت العبرات في عيني الدكتور محمد، أسرته الذكرى، وفتك به الأنين، تفوح من كلماته قلة الحيلة:

ـ سبحان الله الذي أكرمني بذلك الفضل، وتلك المهنة التي من خلالها أساعد الجميع، وأعجز عن مداواة آلام ابني، فلا أعلم حقًا كيف أُخفف عنه؟

ـ إن عجز الأطباء يا بني، فرب الدواء موجود، سبحانه وتعالى لم يخلق داءً إلا وأنزل معه دوائه.

ـ ولكن حالة ابني تختلف كثيرًا، ما زال ذلك المرض مجهولًا بالنسبة لنا، فلا نعرف أين يكمن علاجه؟

ـ وحد الله يا بني، واصطبر على ما أصابك، لا تدري لعل الله يُحدث بعد ذلك أمرًا.

ـ ونعم بالله العلي العظيم، أسأل الله أن تنقشع تلك الغمة قريبًا يا رب.

ـ إن شاء الله يا بني سأدعو لك، وسأرى ما باستطاعتي لتقديمه، لكني أرجوك ألا تنساني، واسأل عني كلما تذكرتني.

حل السلام بحضورها، وسكنت ملامحه، فما كاد يشكرها حتى اختفت من أمام ناظريه، ظن بأنها ذهبت بينما كان شاردًا، وما أن جاءت الممرضة سألها عنها، لتأتي إجابتها صادمة بالنسبة إليه:

ـ لقد ماتت يا دكتور العام الماضي، تمكن السرطان منها، ولم تعد تُجدي أي من محاولات الأطباء معها حتى ذكرت اسمك، وهي تزفر أنفاسها الأخيرة، كنت أنت الوحيد الذي لم تتخل عن الأمل، وظللت تساعدها أقصى استطاعتك، فرحلت عن العالم، وشعور الامتنان عظيم بداخلها، غير معقول بأنك تتذكرها الآن، لم يسبق أن سمعتك تتحدث عنها.

ـ لأنني لم أكن أذكرها حقًا قبل تلك اللحظة، يتعامل الطبيب مع آلاف المرضى مع اختلاف الحالات والأسماء، فأنى له أن يعرفهم جميعًا؟ وقدجاءتني اليوم فقط.

شرد بعيدًا، وهو يُجيب الممرضة بتيه، فسألته في استنكار:

ـ كيف جاءتك اليوم؟ وهي لم يعد لها من وجود بعالمنا.

صُعق الدكتور محمد بقولها، لا يقوى على تفسيره، ولكنه تأكد حينها بأن الأمر أكبر منهم، فقد جاءته من العالم الآخر، قد تكون إحداهن السبب فيما لحق بابنه، إذن تفوه عمر بالحقيقة، عقد عزمه على الذهاب إليه، هناك العديد من الأمور يحتاج إلى فهمها منه، طار بسيارته إلى حيث يوجد عمر، واستطاع الدخول إليه بسهولة، فهو طبيب مثلهم، وإن اختلفت المجالات، ارتمى عمر في أحضانه كالطفل الصغير، ما لبث أن عاد إلى أمه بعد تيه، بكي كثيرًا حتى أوصلوه إليها، ليعترف في ندم:

ـ والله يا عمي أنا أقول الحقيقة، فصدقني أرجوك.

أجابه في ثبات:

ـ أخبرني يا عمر بكل ما حدث، ولا تُخفي عني شيئًا.

صدمته الكلمات، تسقط عليه الأخبار السيئة في تدافع، وكأنما تتسابق لتفتك بقلبه، بدا الأمر صادمًا بالنسبة إليه، لم يتخيل قط بأن الشرور قد تتمكن من القلوب، فتطيح الأهواء بالبشر بهذه الطريقة المفجعة، يسأله في استنكار:

ـ أي قلب نبض بين جنبات تلك الفتاة؟ وكيف استطاعت أن تعرف مثل هذه الأمور؟ وما الدافع وراء ذلك؟

رد في عفوية:

ـ لأجل كريم.

ـ كريم ابني..

تفوه بها في غير تصديق، هز عمر رأسه في إيجاب، وأكمل:

ـ لقد هامت رضوى عشقًا بكريم، ولكن قلبه كان مشغولًا بأخرى.

ـ ومَنَ تكون؟

علامات الاستغراب تحتل معالم وجهه، القصة أغرب مما تصور، ونبض قلب ابنه لأجل فتاة، ولا يعلم الخبر.

ـ سلمى يا عمي.

بدا على عمر التأثر، وهو ينطقها، فأدرك الدكتور محمد بأن كريم لم يكن وحده الذي أحبها، ربت على كتفه يُواسيه، ثم غادر المستشفى بعد أن أعطاه وعدًا، الفرج سيكون قريبًا إن شا ء الله، صعد سيارته، وأخذ يذكرها، فتمثلت أمامه حاضرة، وكأنما جاءته من العدم.

ـ أنا هنا يا سيادة الدكتور، لقد أخبرتك ألا تنساني، وها قد جئت إليك.

حافظ الدكتور محمد على تماسكه، وقال في هدوء:

ـ من فضلك ساعديني أرجوكِ، هناك روح شريرة تحوم حول ابني، وتسببت في دخول ابن أخي المصحة النفسية، ويكاد المرض أن يفتك بأبيه، نُحافظ على وجوده بمساعدة الأجهزة، وقد يصل إلينا الخبر المشئوم بأي لحظة، ليفجعنا برحيله، لم يحتمل مصاب فلذة كبده.

ـ ليست الروح التي تحوم حولهم هي التي دفعت لهم بالضرر، ذلك الشرير الذي تحت سطوته هو من جلب الهلاك بقدومه.

انطلق الخوف من نظراته، وهو يسألها في يأس:

ـ وكيف نتخلص منه إذن؟

ـ أنا أعرف روح سلمى، فتاة طيبة والله لم تستحق ما نزل بها، ولكن الغيرة قاتلة، كالشر المستطير يبيد كل ما يجده بطريقه، فلا يسلم منه أحدٌ.

ـ وابني أيضًا شاب لطيف، و...

ـ لكنه شارك في الأمر.

قاطعته في ثقة، إلا أنه ما لبث أن دافع عنه:

ـ حدث الأمر رغمًا عنه، فقد كان تحت تأثير تعويذة.

ـ إذن لهذا السبب قد سامحته، وأرادت الرحيل، إلا أنه يتحكم بروحها، يُحركها بإشارة من يديه، ويُرغمها على الكثير من الأشياء التي لا ترتضيها.

ـ ماذا نحن بفاعلين إذن؟

ـ سيحتاج الأمر إلى تضحية يا دكتور محمد، اطمئن، فقد بدأ التحرك لنجدتهم من قبل أرواح أخرى، وسأحاول مساعدتهم.

ـ ومَنَ تكون تلك الأرواح إذن؟

ـ اسأل الدكتورة كريمة، سوف أرحل الآن، ولا تنسى أن تذكرني كلما احتاجتني، فقد أستطيع الظهور حتى القيام بتلك التضحية.

ـ مَنَ أين تعرفين كريمة؟ وماذا قد تكون تلك التضحية؟

لم يلبث أن يُكمل سؤاله حتى باغتته باختفائها، لم يعد لها من أثر داخل السيارة، وكأنما تبخرت من خلال مبردها، أو نفذت عبر إحدى نوافذها المغلقة بإحكام، فالروح تتنقل في خفة حيثما أرادت الذهاب.

(إذن فإجابة تلك التساؤلات عندك يا كريمة، ما علاقتك بالأمر؟ وما صلتك أنتِ الأخرى؟)

أخذ ذلك الهاجس يدور بخلده، فما لبث أن اتصل بها، طلب رؤيتها على الفور، تلجلجت، وارتبكت في الحديث قبل أن تُخبره بمكانها، ثم ذهب للقياها حيث أخبرته، وتسللت إليه الريبة عند وصوله، فسألها في استنكار:

ـ ماذا هناك يا كريمة؟ وأين نحن؟

ـ القصة طويلة يا أخي، وأنت لا تعلم أي من أحداثها، فلا يسعني الوقت لإخبارك.

ـ أنا أعلم يا كريمة.

أفزعها بقوله، فكيف وصل الأمر إليه؟ وأبطال القصة ساءت أحوالهم، لم يعد أي منهم بخير، ثم ما لبثت أن استنتجت الأمر:

ـ إذن فقد ذهبت إلى عمر.

ـ نعم، وقد قص عليَّ كل شيء، وما زالت غير مستوعبًا، كيف بالحب أن يدفع الفتاة إلى فعل ذلك؟

ـ ليس بحب يا أخي، إنها الغيرة، كفاك الله شرها يا أخي.

ـ كلنا حصدنا نتيجتها يا أختي، كيف للشر ألا يأتيني؟ وأبنائنا يتألمون على مرأى ومسمع منا.

طلب منهم ذلك الشيخ الدخول، وأخذ يُردد ترانيم مختلفة، أحضر إحدى البلورات السحرية، وتغير المنظر من أمامهم، نقلهم حيث توجد روح سلمى أسيرة تحت سطوة ذلك الشرير، عاد بهم المشهد حيث ترجوه، وهذه المرة سمح للساحر ضرغام أن يُكمل حديثه:

ـ لم يكن هناك من هو في مثل قوتك يا مدكور، ولكنك وقعت في شر أعمالك بحب مرجانة، تلك الإنسية التي قتلت والديها على مرأى من عينيها، شهدت توسلاتهم أمامها، فلم ترحمهم، وأكلت

قلوبهم أحياءً بعد ما نزعتها في وحشية من داخلهم، فامتلأ فؤادها بالحقد والغضب، عزمت قرارها على الانتقام منك، وترددت إليك بمختلف الطرق كي تتمكن من كشف نقاط ضعفك و..

ضربه بالسوط ثانية، يُقاطعه في غضب:

ـ لا تذكر أمامي اسم تلك الماجنة، وقد نالت مني ما تستحقه.

ـ كيف طاوعك قلبك لقتلها يا مدكور؟

يسأله الساحر ضرغام في استنكار، ليُجيبه الآخر:

ـ لقد أحببتها حبًا عظيمًا، فكنت كالعبد تحت قدميها، يهابني الجميع، بينما أنا ضعيفٌ للغاية أمامها، وجدت عندها الحنان الذي افتقدته، حيث كبرت وحدي، ولم يراعاني أحدٌ بعد ما أحرق أمي بنو جنسها، ونفوا أبي في غياهب الظلمات، لحق بي البغض والكره كلما وقعت عليَّ الأعين، ما كان أمامي من سبيل حينها سوى الاختباء حتى وجدني والد مرجانة، عاملني بحب ودلال كابن من نسله، وأفضت عليَّ زوجته من حبها وحنانها، إلى أن أحببت مرجانة، رفضوني، ولم يقبلوا بي زوجًا لابنتهم، فانتصر الشر داخلي على ما غرسوه من خير، وغلب عليَّ أصلي، فلاقوا مني ذلك المصير، وجعلت مرجانة في عهدتي، ألبي لها كل احتياجاتها، إلا أنها خدعتني، فكم هم جاحدون البشر!

ـ أنت من غدرت بها منذ البداية، كيف تُريد منها أن تأمن لك؟ وقد حرمتها من عائلتها.

ينهره الساحر ضرغام في غضب، لم يكد يخشى سطوته، وقد حدثه الشعور داخله بأن الغيمة ستنقشع قريبًا، لتعود الأرواح إلى مكانها الأول في الجنة، على الرغم من سوء عمله، إلا أنه تاب، وحاول مساعدتهم بتلك الطلاسم التي توصلهم لتلك البوابة، وتُساعدهم في غلقها إلى الأبد.

ـ هل تُجادلني؟ كيف تجرؤ على الحديث معي بتلك الطريقة أيها الماكر؟ ألا يكفيك ما فعلته بك؟

ـ وماذا قد تفعل بي أكثر من ذلك؟ دعني الآن لأكمل الحكاية، وتعرف مني كيف أوصلتك إلى ذلك المكان؟

انتفخت أوداج الشرير، وقذف ألسنة اللهب من ثغره، فحرق روح الساحر المتمثلة، ثم تشكلت من جديد أمامه، فهي لم تجد بعد خلاصها، وهل يؤلم السلخ الشاه بعد زهق روحها؟

ـ هههه.. يبدو وكأنك استلذذت العذاب، فإن أردت أكثر أعطيتك ما تشاء.

يُحاول الثبات أمامه، وردد في ثقة:

ـ دعني أكمل فقط، لعل تلك الفتاة تعرف النهاية.

شعرت بأن هناك أمل، قد تجد من قوله بعض الخيوط التي قد تسير خلفها، فتوصلها إلى حيث النهاية، نظرت له باهتمام، وبأذان صاغية أخذت تستمع إليه، مختلف الخواطر تضطرب داخلها،

تساؤلات عدة تأتيها، ولا تجد إجابة تُرضيها، من هاجس إلى آخر أخذت تنتقل، ولا قدرة لها على استيعاب بعض من حديثه.

ـ أنصتي إليَّ يا سلمى جيدًا.

يسترعى انتباهها ثانية، وقد أدرك حيرتها، فغير طريقته، بدأ يختار من الكلمات أسهلها إليها في الفهم، وأكمل:

ـ لقد عَلمَت مرجانة بأن نقاط قوتك تكمن في تلك القلادة، التي أهداها إليك والداك، وضعوا كل قوتهم فيها ثم وضعوها حول رقبتك، وألقوا بك في مكان بعيد عن أنظار المتربصين بهم، فلم يجدونك معهم، ولقى كل منه المصير وحده، ولعل تلك القلادة كمن بها السر في نجاتك وسط كل تلك الأهوال والمخاطر التي أحاطت بك قبل أن يجدك والد مرجانة.

ـ أين هي تلك القلادة أخبرني؟

اقترب منه حد الالتصاق حتى كاد ينفذ من خلال روحه، التي أزهقها دون أن يرتد له طرفًا، أنزل به سوء العقاب، انهال عليه بالضربات دون رحمة، ويستفزه الساحر ضرغام بضحكاته، يتمنى منه أن يُلقيه بعيدًا، يدفع به إلى حيث لا يعود لنفس مكانه.

ـ لن أُخبرك مهما حدث، فماذا قد يحدث لي أكثر من ذلك؟ احرقني إن شئت، لعل روحي تحصل على حريتها.

ضحك منه الآخر في سخرية، وردد باستخفاف:

ـ سأدعك تُكمل إذن، حتى أعرف حقًا ما يمكنني فعله بك؟

ـ سرقت منك مرجانة تلك القلادة، استطاعت أن تخدعك بسحرها، توهمك بعشقها الشديد لك، وقد عَرفَت بعض الحيل منك، وما أن لجأت إليَّ، حيث اتفق بنو الإنسان على محوك، ووافقهم على ذلك أهل الجن.

يضربه الشرير مدكور من جديد، ويسأله في حدة:

ـ وماذا بعد؟ هيا قل لي بمَّ نصحتها؟

أخذ الساحر ضرغام يلهث لالتقاط أنفاسه، وقد أنهكه التعذيب، ثم تفوه في امتعاض:

ـ أيها الماجن والله لقد استحققت ذلك المصير المنكوب.

ـ أيها الفظ .. التزم حدودك معي، لا تنس بأنك هنا تحت سلطتي، فأخبرني بما أريد الآن.

أُنهكت قوى ضرغام، ولكن ما كان هناك من خيار آخر أمامه سوى الانصياع لما يقول الشرير، وبدأ يُكمل سرد الحكاية:

ـ جاءتني مرجانة بعد ما استطاعت معرفة الطريقة التي يُمكننا بها التغلب عليك، دست المنقوع الذي أعددته ببعض الأعشاب السحرية والنباتات في شرابك، ففقدت اتزانك وسقطت بين يديها فاقدًا الوعي لدقائق معدودة، فدلفت إليَّ خلالها عبر تلك التعويذة التي تجعلها تنتقل لأي مكان، وقد بلغ السخط والحنق عليك مبلغًا عظيمًا، مشهد القتل لا يكف عن الظهور أمام عينيها.

بدأت ذاكرة الشرير في استحضار ذلك الموقف الذي يحكيه، اقتربت الأحداث أكثر فأكثر حتى ظهر كواقع يعيشه، مرجانة في أحضانه، ويسألها في ثقة عن مقدار حبها له، فتُجيبه في دلال:

-لم أحب سواك يا مولاي السلطان، أنا أتنفس من نبض قلبك، وأعيش في حماك.

ضحك من قولها، وقال في امتهان:

-وهل تظنين بأن لي قلبٌ يا مرجانة؟

هزت رأسها في إيجاب، واصطنعت البراءة عند الإجابة:

-وهل يوجد هناك قلبًا كقلبك؟ أنت السلطان مدكور الشجاع، وأنا جاريتك ومملوكتك مرجانة، كل شيء يسير تحت طوعك، يخشاك بنو جنسي، ويهباك الجان.

تبختر في جلسته بينما يسمعها، كالطائر ينفش ريشه عند المديح، فنظرت إليه في مكر، وناولته كأس الشراب، لم يرتاب أو يتأكد مما فيه كما كان يفعل من قبل، نفخته بتلك الكلمات، فأغشت عيناه عند الشعور بالعظمة، وما أن رفعه إلى فيهِ، تبسمت في تشفٍ، فهي على مقربة من نيل مبتغاها، سحبت القلادة من رقبته عند سماع صوت الكأس، ثم رددت التعويذة، واختفت من أمامه.

صرخ الشرير بأعلى صوت، يكاد يخلع القلوب من مكانها، وقد تذكر خيانتها، وصاح في غضب:

-يا لكِ من ماكرة يا مُرجانة، وقد استحققت تلك النهاية.

-وماذا فعلت بها يا مدكور؟

يسأله الساحر ضرغام، وعلامات الحيرة بادية على وجهه، فما أن كسر القلادة، وتفتت الزجاج داخلها إلى شذرات، عادت للتشكل من جديد، وتبخرت مرجانة من أمام ناظريه، لم يبال بالأمر حينها، جل ما كان يشغله كيف يتخلص من القلادة؟ التي تعطي القوة لذلك الشر المستطير الذي يُدعى مدكور، وطالما هي معه يصعب عليهم هزيمته، حينها ألقى العديد من التعاويذ المسطورة بكتاب السحر حتى استطاعت إحداهن التأثير على القلادة، وفتحت بها إحدى البوابات التي أذهبت بالشرير إلى أسفل الأرض، حبسته داخل اللامكان، فلا معالم ولا آثار تُعرفه أين يوجد؟ يسير داخل متاهة، فلا ينتهي الطريق، ولا يعرف وسيلة للخروج منها، كالمنفي وحده خارج بلاده، تجتاحه الغربة مع كل شبر يخطوه على تراب غير وطنه، ولم يكن لمدكور من وطن منذ البداية، إلا أن العقاب كان قاسيًا، وهو بعيدٌ للغاية عن السماء، ودفن في أسفل بقاع الأرض، لا اسم لها ولا دلالة.

-أين هي مرجانة يا مدكور؟

أعاد عليه السؤال مرة أخرى، وقد بلغ منه الفضول مبلغه، فضحك الآخر يسخر منه، واخترق صدى صوته أرجاء المكان، كاد أن يهتز، وهو يُجيبه:

-عند كسر القلادة للمرة الأولى تمثل أمامي والداي المغدورين، وأخبروني بفعل مرجانة، وكم أن القلادة تمثل خطرًا عظيمًا عليَّ ما لم تكن بقبضتي، وإن انفلتت من يداي سيكون الأمر وبالًا عليَّ ما لم أُحصن نفسي بتلك التعويذة، بدأت في ترديدها على عجل، وأوشكت على الانتهاء، لم يتبق لي سوى كلمات معدودة، إلا أنك سبقتني، ولم أستطع إكمالها، ففعلت بي ما شئت، وتم نفيي للامكان حتى ذلك اليوم، الذي جاءني بعد طول انتظار..

اقتضب حديثه فجأة، يوجه نظراتك نحو سلمى، وتبسم لها ابتسامة المنتصر، ثم أكمل:

-كنت أعلم بأن أفعالك المزرية ستودي بك في النهاية يا ضرغام، وقد عَظَم حب تلك السيدة في قلبك، ولهت بها عشقًا بعد أن مكنتك من نفسها، أرادت الأمر أن يتكرر، إلا أنها خيبت ظنونك ما أن نالت مبتغاها، فانتظرت حتى كبرت الصغيرة، نسخة طبق الأصل منها في شرورها، قلبت حينها التعويذة على المرآة كي تُرشدها إلى مكانك، وقتها كنت أُراقبك من خلال إحدى شذرات زجاج قلادتي، أحضرتها إليَّ التعويذة، ولأن المرآة من زجاج، اتحدت الشذرات معًا، عبرت من خلالها، وحضرت جزئيًا إلى المكان، فسيطرت عليك وجعلتها تفتح لي البوابة التي أغلقتها على اتساعها، فحبست روح سلمى في المرآة، بينما أنا تحررت خارجًا و..

-إذن المرآة كانت هي السبب في حبس روحي، لكم تألمت في حياتي خوفًا منها، وعند مماتي لم ألبث أن أذق الهوان بسببها.

قاطعته سلمى في أسى، ليُكمل الشرير في زهو:

-لا تقولي ذلك عنها، على الرغم من كوني لا أعترف بالفضل لأحد، إلا أنها كانت الوسيلة التي من خلالها نلت حريتي، وحررتني من ذلك الأسر..

-لتقوم أنت بحبسي، وقد جربت مدى قسوة الشعور..

-ولكنني لا شعور لدي..

-ما الذي تُريده مني إذن؟

يقاطع كلا منهما الآخر، فلا يصل الحديث لنهايته، ويغزوها شعور الندم، انتقمت منها المرآة شر انتقام، حصدت غرس تشويه عمتها، ثم زهق روحها بفعل شذرات المرآة، حتى وإن لم يكن الفعل الأخير على يديها، إلا أن البداية حدثت بسببها، فهتفت باسمها في ألم:

-عمتي نور ... أما آن لكِ أن تُسامحيني؟ يعلم الله كم أحببتك، ولم أرد لكِ تلك النهاية المأساوية.

صدى صوتها يتردد في الأنحاء، وقد خالطته ضحكات الشرير الاستهزائية، إلا أنها استطاعت تمييز تلك النبرة المتألمة التي لطالما توسلتها، ولكن الغضب كان يُعمي عينيها، فلم تكن لتسامحها،

تُرافقها كظلها، وتدب الرعب في نفسها، لا يكفيها الندم الذي أرق حياتها منذ فقدانها، تمادت في بطشها حتى أوشكت أن تدفعها إلى حافة الجنون، أما الآن وقد خُسف بعمرها، حصدت الغدر والخيانة رغم صدقها، لا بد لها من فعل شيئًا لأجلها.

-اصمتي لا أريد سماع صوتك، وإلا فعلت بكِ كمرجانة...

-وماذا فعلت بها؟

قاطعه الساحر ضرغام هذه المرة، فزفر في ضيق، وبحنق أرضى فضوله:

-لقد كانت تلك الملعونة السبب في ضياع الوقت مني، انشغلت في الانتقام منها على ترديد باقي التعويذة، التي طلب مني والداي الاحتماء خلفها، ما كان مني إلا الاستجابة لاشتعال الغضب داخلي، أحضرتها أمامي، نزعت ذلك القلب الذي خانني، ولكن بعد تشويه الوجه الجميل الذي خدعني، حولتها مسخًا دميمًا، ثم أحرقتها حية، والتهمت فؤادها، خسفت برمادها الأرض، ما أن انتهيت لم تمهلني أنت لأُكمل ما تبقى، والآن أصبحت تعلم القصة كاملة.

طأطأ برأسه إلى الأسفل في ندم، وشعور الخزي يعتمل داخل صدره، لقد وعد مرجانة بالحماية، لن يمسها مكروهًا وهي معه، طوق الأراضي والأنحاء المجاورة بحثًا عنها بعد ما محق مدكور، لم يتخيل قط بأنه كان أسرع منه، وصل إليها وتلذذ بانتقامه، ثم عاد إلى الوجود ثانية بمساعدته، فيا له من عار لحق به!

* * * *

-٩-

التضحية الكبرى

كل حركة لها حسابها، وأصوات معهودة تجدها هناك، ولكل منها معنى محدود، البعض منها يُبشرنا بالخير، أما الآخر يدب الذعر داخل النفوس، قطرات المحلول تنزل برفق عبر ذلك الأنبوب، وتلك الأسلاك الموصولة منه تقرأ لنا المؤشرات الحيوية، وتنقل لنا ذلك النبض الذي تردد صوته يُخبرنا عن وجوده معنا بالحياة، لم تُفارق روحه الجسد بعد، أخذت الذكرى تشتعل في عقله، صراخ ابنه وسوء معاملته له منذ الصغر، كان شديدًا في تربيته، فأخفى عنه عمر معاناته، ولم يُشركه في الأمر حتى استبد به الأنين، تكالبت عليه الأحداث المؤلمة، أخذ ينتفض تحت الأجهزة، ويزوم كأن هناك ما يُقيده، لا يجدي معه نفعًا أي من محاولاتهم، كانت تلك سكرات الموت، وجاءهم ذلك الصفير من الجهاز الذي أوحى لهم بانقضاء الأجل، فاقت الصدمة احتماله، فغادر وقد ندم على كل أفعاله، أصبح الآن بين يدي الله، وحده من يعلم مصيره إلى جنة أم نار، فاستجدته الروح لا تُريد الرحيل عن الأرض حتى تساعد عمر، وتقف جواره لأول وآخر مرة، لم يعد هناك من رجوع.

-البقاء لله يا دكتور محمد، أخذ الله أمانته، لقد فعلنا والله ما باستطاعتنا.

يربت أحد الأطباء على كتفه، وقد أثقله الهم، تأتيه الأحزان متتالية، لا تمهله لالتقاط أنفاسه أو أخذ جولة استراحة، يستعيد بها نشاطه، فكان عذابه مُضاعفًا، وتعجب من قول ذلك الشيخ الذي فرح بالأمر وبشره، كان هو من نقل إليهم الخبر في ثبات:

-لقد مات أخوكم، اذهب مع الدكتورة كريمة كي تُكملوا إجراءات دفنه، وتقفوا جوار العائلة ثم عودوا إليَّ عند الانتهاء، هناك بارقة أمل، وستأخذ القصة منحى آخر، أما عائلة سلمى ستظل في ضيافتي، لا بد وأن تشهد اللحظة الأخيرة.

انهارت كريمة بين يديه، تهدج صوتها وأخذت شهقات البكاء تزداد، فشعرت بالاختناق، وكأن جدران الغرفة قد أطبقت فوق صدرها، فجاءها صوت الشيخ مرزوق محذرًا:

-لا تنوحي يا امرأة، واذهبي في الحال، ثم تعالي إليَّ بعد ثلاث ليال، أحضري معكِ شيئًا من أغراضه، كي تكتمل الحلقة.

ساند الدكتور محمد أخته، وقبل أن يصلا للباب، أمرهم بالتوقف، وما لبث أن نقلهم بإحدى التعاويذ للمكان المنشود، حيث وجدوا أنفسهم بين أروقة المستشفى، تعلو الأصوات ويزداد النحيب، تقف زوجته ثابتة، يبدو عليها التيه، وكأنها تنظر داخل الفراغ، سيطرت عليها الصدمة، فلم تقو على البقاء في المكان، سارت على غير هدى، وأخذت تُهذي بمختلف الكلمات، يصعب على سامعيها الفهم، وما بين طرفة عين وانتباهتها، ساقتها قدمها إلى دور الأيتام، ما أن رآها أحد الصغار ناداها باسمها:

-ماما شيرين .. ماما شيرين عادت ..

هرولت نحوه، وهي تفرد ذراعيها على اتساعها، وتُردد في غير وعي:

-عمر .. عمر يا حبيبي، وأخيرًا عدت يا أغلى الناس.

أخذت تبكي دون انقطاع، وعَلَا صراخها، فارتعب الأطفال، وقد استوعبت رحيل زوجها، وأخذت تُنادي باسمه بكل قوتها:

-لمَّ يا حسام؟ لمَّ؟ لمَّ تركتني؟ وبوسط التيار ألقيتني، ما هذه القسوة منك؟ لم تحنو علي حيًا أم ميتًا، فكان العذاب من نصيبي مقابل الحب العظيم الذي أكننته لك.

عادت بها الذاكرة إلى الوراء، ترى مشاهد من زمن ماضٍ، كان الشباب ما زال في ريعانه، وكحلم الكثير من الفتيات تتمنى أن تتزوج ضابطٌ، التقت به في أحد المولات بالقرب من منزلها صدفة، ذهب وقد حرك شيئًا بداخلها، ونبض القلب بحبه، أما هو فلم يعرف الحب يومًا، جاءت قصتهم غريبة؛ بل أمر كان شبه مستحيلًا، ومع شدة إصرارها حدث، وكم سعيت من محاولات لأجله.

-أمي .. أمي .. سوف أذهب إلى بيت الدكتورة سميحة في آخر الشارع، كي أسألها عن أمر ما.

والدتها في استنكار:

-ومَن تكون الدكتورة سميحة تلك؟ ومنذ متى نذهب إلى بيوت الغرباء يا ابنتي؟

-لن أتأخر والله يا أمي، فلا تخافي يا حبيبة.

-لن تضحكي عليا بكلماتك المعسولة يا شيرين، فكما تعلمين من واجب الأم أن تعرف أين تذهب ابنتها وتجيء، وأنتِ لا تُخبرينَّي بشيء.

ارتبكت شيرين، وتلجلجت في الحديث، لم يسبق لها الكذب على والدتها، خاصةً وهي تعتبرها صديقتها المقربة؛ بل الوحيدة، شهدت معها مختلف المشاعر أمًا وأبًا، أختًا وصديقةً بعد رحيل والدها، فعاشوا سويًا الحياة بحلوها ومرها حتى سرق أحدهم قلب ابنتها.

-لا تخافي يا أمي .. لن أتأخر إن شاء الله.

أجابتها في تردد، فأعادت عليها السيدة مديحة السؤال بطريقة أخرى:

-هل الآن كبرتِ يا شيرين؟ وتُخفين عن والدتك الحقيقة.

احتضنتها شيرين، وتركت قبلة على خدها بشفتيها، تمسح عنها الحزن الذي احتل وجهها، وانعكس بنظراتها، واختارت الكلمات بعناية كي تُطمأنها:

-كيف لي أن أكذب على صديقتي وحبيبتي وخليلة روحي؟

صمتت للحظات كأنما تُفكر في حيلة، حتى لمعت عيناها، وهي تُكمل:

-بالأمس حين ذهبت لشراء بعض الأشياء لكِ بالمول، اصطدمت بابنها بغتة، وكدت أن أسقط مغشيًا عليَّ من شدة الضربة، فعرض علي أن يأخذني لوالدته، دكتورة صيدلانية ماهرة، ولديها صيدلية بالمجان، تُوفر بها الأدوية باهظة الثمن.

لاحظت السيدة مديحة تبدل انفعالات ابنتها، وخاصةً عند ذكر اسمه، واستطاعت اشتمام كذبها، الذي يفوح من بين كلماتها، فحاسة الأم تلتقط الأشياء، وتكشف لها المستور خلفها، إلا أنها جارَتَها في الحديث، لم تُرد الضغط عليها، لعلها تعرف السبب الذي دفع شيرين للكذب عليها لأول مرة، فجاء الرد منها غير متوقعًا بالنسبة لشيرين:

-اذهبي يا شيرين ولا تتأخري، ولكن ألا يُمكنك مشاركتي الحديث عن تلك التساؤلات التي تُريدين طرحها على تلك الصيدلانية؟

شردت شيرين بعيدًا، تبحث هنا وهناك عن سؤال مقنع، وتفتش بإمعان في عقلها، لتصيح في عفوية:

-تعلمين بأن الخالة سعاد مريضة سكر، والأنسولين المستورد لم يعد متوفرًا بكثرة، ففكرت في اللجوء إليها، لعل يكون هناك بعضًا منه داخل صيدليتها، وأيضًا إن كان بإمكانها أن تُوفره لنا دومًا، فالأنسولين المتداول في الأسواق، لا يُجدي نفعًا مع خالتي.

-إذن فأنتِ يعينكِ كثيرًا أمر خالتك.

هزت رأسها في إيجاب، وأردفت:

-بالطبع يا أمي، ألمَّ تقم برعايتي معكِ؟ ليس عندي أغلى منكما.

وعند ذكر آخر جملة تذكرته، فقد أصبح هو الآخر غاليًا عليها، على الرغم من أنها لم تعرفه بعد، وليس الشعور نفسه بداخله، إلا أنها توددت للدكتورة سميحة، اقتربت منها واستطاعت الأخرى الفهم منذ الوهلة الأولى بأن هذه الفتاة مُغرمة بابنها، ولكونها أحبتها ما أن رأتها، سألت بخصوصها، فتحدثت إحداهن عنها:

-شيرين طالبة في كلية التربية للطفولة المبكرة، جل عملها مع الصغار، حنونة للغاية، يشهد لها أهل الحي بأكمله بحسن خلقها وتربيتها، لا يخرج العيب من ثغرها قط، تساعد الصغير وتحترم الكبير، لا تتأخر عن مد يد العون، ورثت ذلك الفعل من والدتها، جاءت نسخة طبق الأصل عنها، ترملت عليها، وأفنت شبابها في رعايتها والاهتمام بها، وكذلك خالتها سعاد التي جاءت تطلب منكِ الأنسولين لأجلها.

اقتضبت السيدة حديثها، ثم سألتها في اهتمام:

-ولكن ما سبب كل ذلك البحث حولها، هل تفعلين ذلك مع كل القادمين إلى بيتك؟

بدت مدام رحاب مُنفعلة حين تفوهت بأخر كلماتها، لتُلطف الدكتورة سميحة الأجواء، وهي تُجيبها:

-ما من شيء مما تُفكرين به، فقد تكون هناك أفراح قادمة، ويتدفق عليها الخير من كل جانب.

-إذن تُريدينها عروسًا لابنك.

نظرت لها الدكتورة سميحة في استغراب، وهتفت في استنكار:

-من أين عرفتي؟ أنا لم أخبر أحدًا.

ضحكت السيدة رحاب، وفي زهو نقلت لها خبرتها:

-هذه ليست المرة الأولى التي تمر عليَّ حتى أدركت جيدًا بأنه كلما استجوبتني إحداهن، وطلب مني ذكر الأخبار عن فتاة ما، فهي حتما تُريدها لابنها، ولكن لأي من أولادك تُريدينها؟

-حسام طبعًا.. هي تح...

أجابتها دون تردد، فقاطعت حديثها:

-ولمَّ لا يكون الدكتور محمد؟ أراه أقرب إليها في الشبه من خفة روحه وطيب قلبه، فتقع الطيور على أشكالها كما يقولون.

زفرت الدكتورة سميحة في ضيق، وصاحت في حنق:

-لقد اختار الدكتور محمد نصيبه على الرغم من عدم رضاي عنها، إلا أنه لا يُمكنني قول شيء طالما هو يُحبها.

تنهدت قليلًا، ثم أكملت في تأثر:

-وأنتِ تعلمين جيدًا الحب وأموره، لا سلطان لأي منا على قلبه، فإن حدثت الشرارة لا تنطفئ قط.

عقدت الدكتورة سميحة عزمها جيدًا، وقررت التقدم إليها، أصبحت الآن تعرف شيرين جيدًا، وهي تتردد على بيتها منذ شهور، وتقربت هي الأخرى من والدتها، جمعتهم صداقة حميمة، وتناقلت الأخبار بينهم، حتى جاء اليوم المنتظر، كانت شيرين في أبهى حلة، فتاة شقراء اللون ذات وجه ماسي، برزت فيه الوجنتين وعظام الخدين، تكسوهما حمرة الخجل التي تشربت بهما، وسواد العينين السرمدي الذي بدا كالكحل يُزين عينيها، فجاء جمالها رباني، تراها على طبيعتها، لم تستعن بأي من مساحيق التجميل، وكم أحبت الدكتورة سميحة هذا الشيء فيها، على العكس من الفتيات المصطنعات اللواتي لا يوجد بهن أمرٌ واحدٌ من طبيعتهم، زيفوا الكثير وتلونوا كي يبدوا ملفتين للأنظار.

-هل أنت سعيد يا بني؟

يسأله والده (الأستاذ فريد) فما لبث أن رد في حدة:

-وكيف يكون ذلك؟ أنتم من اخترتم العروس لي، ولم تتركوا أمامي من فرصة للرفض.

صاح الأستاذ فريد في استنكار:

-غير معقول، وهل فتاة مثل شيرين تُرفض يا حسام؟ والله أنها من زينة الفتيات، ونعم الأخلاق الحميدة، الجميع يُشيد بها.

-ولكني لا أحبها يا أبي، فوجئت بأن والدتي وأنت تقدمتم لخطبتها، وها هو الزواج بعد أيام، تتم الاستعدادات على قدم وساق، ولطالما تمنيت أن أبني عشي السعيد لبنة لبنة مع شريكة العمر، التي يختارها قلبي.

نظر إليه والده في استغراب، وردد بغير تصديق:

-وهل يوجد أحدًا بحياتك؟

هز حسام رأسه في نفي، وأجاب في حدة:

-كيف تقول ذلك يا أبي؟ تعلم بأنني لا أُفكر بمثل هذه الأمور، ولكنني كنت أتحدث مجازًا كما يحدث بحياة الآخرين، لكنكم أجبرتموني عليها يا أبي، لطالما أردت أن تسير الأمور بالتدريج.

تبسم له والده، وقال في مزح:

- كيف تأتي الأمور بتلقائية، وأنت تغلق باب قلبك بإحكام، توصده أمام كل فتاة تُقابلك، لا تعطي الفرصة لنفسك أو تسمح لإحداهن بالاقتراب منك، فكيف يأتي الحب إليك يا بني؟

أغلق عليه والده كل المنافذ، ولم يجد من الكلمات ما يُجيبه به، فما بين طرفة عين وانتباهتها، أصبحت شيرين زوجةً له، وفي أجمل ليلة من ليال العمر، تلفظ بالحقيقة في وجهها، وجاءت صادمة بالنسبة إليها:

-لم أر قط فتاة مثلك تهين نفسها كي تصطاد عريسًا بذلك الشكل.

ترقرقت العبرات من مقلتيها كالشلال دون توقف، ونظرت إليه بغير فهم، هيئ إليها وكأنه يتحدث مع فتاة أخرى، ليؤكد لها بأنها المقصودة بذلك الحديث الفظ، يُلقي بها على مسامعها، كلمات قاسية للغاية، لا تقوى على احتمالها، فسألته في استنكار:

-ماذا هذا الذي تقوله يا حسام؟ هل أنت واعيًا؟

ضربها بقسوة على وجهها، حيث صفق بالقلم النازل بحرارة، وطُبعت كفوفه على وجنتيها، ثم نهرها في غضب:

-أتحدث عنكِ أنتِ، لقد كنت أراكِ تتسللين إلى غرفتي، تشتمين ملابسي وتفتشين بأغراضي، ثم تورددتِ إلى أمي كي يصل بكِ الحال إلى هنا جوار حضرة الضابط حسام العدل.

سقطت أرضًا من هول الموقف، لم تقو قدماها على حملها، تمزق فستانها، وساءت أحوالها كثيرًا، كتمت صرخاتها بيديها كي لا يصل إلى والديه صوتها، أفسد عليها أحلى الليالي، وعلى الرغم من

انهيارها انقض عليها كالنمر الجريح، ينهش في فريسته، لا يرحمها قط أو يمهلها لالتقاط أنفاسها، نزع عنها براءتها بمنتهى الوحشية، فحُفر ذلك اليوم بذاكرتها، وغلَب الحب داخلها على سوء فعلته، لم تستطع أن تكرهه، ولا تدري لمَّ تمثلت تلك الذكرى الشنيعة في ذهنها بعد ما ذهبت روحه للقاء ربها؟ هل يأتي ذلك كي يهون عليها مصابها؟ فلا تحزن عليه أم لتغفر له، وهو لا يجوز عليه سوى الرحمة الآن، اضطربت المشاعر داخلها ما بين الحب والحنق، لم يُبادلها الشعور قط، وباغتها برحيله المفاجئ.

في المستشفى..

أخذت الدكتورة سميحة تبكي بحرقة، لقد خطف الموت أحد أحبابها، فَرَد الفقد شباكه على العائلة، تخسرهم واحد تلو الآخر، بدأ الأمر بكريم، ثم وصل عمر إلى الجنون، وها هو ذا والده يغادر الحياة دون استئذان، لا تمهلهم النكبات للبحث عن مصدر قوة لهم، والأركان تهوى وتكاد تسقط فوق رؤوسهم، فيتدمر البيت السعيد، وهل يعرف المرء الراحة بعد فراق الأحبة؟، تُغادره السكينة، ولا يرى قط الطمأنينة بعد ما أهال الثرى على غالٍ، ضمه القبر، وأصبح تحت التراب؛ ليبقى العذاب والألم من نصيب الأحياء.

-رحمة الله عليك يا حبيبي... في أمان الله يا قطعة من روحي حتى يأذن الله لنا باللقاء دون فراق، لقد هد أبوك رحيلك، وما لنا إلا أن نقول إنا لله وإنا إليه لراجعون.

يربت على كتفه الدكتور محمد من الخلف، يسانده ليقف، فلا يسقط في التراب، فجعه ما حدث مع أخيه، ولا يحتمل ضربة جديدة، ادعى الثبات أمام والده، يُحاول أن يهون عليه، وقد أثقلهم الهم جميعًا، وربض فوق قلوبهم، فردد في هدوء:

-هون عليك يا أبي، كلنا لله، وإنا لله وإنا إلينا لراجعون.

لم يستطع الأستاذ فريد الاحتمال، على الرغم من خفة النعش وطيرانه أمامه كتعبير مجازي، إلا أنه كان ثقيلًا للغاية على الفؤاد، أصر أن يحمل معهم، وما أن سبقوه لحق بهم، ساعدهم على وضعه حيث مثواه الأخير، كانت تلك النظرة الأخيرة، ثم عاد إلى المستشفى مسرعًا حيث لم تقو زوجته (الدكتورة سميحة) على المغادرة، أخرستها الصدمة، وشُلت في مكانها، لم يعد يسمع لها صوتًا حتى الدموع تنزل في صمت رثاءً على ابنها، وقد ألمها سوء الأوضاع، تنزل فوق رؤوسهم بلا شفقة.

ـ حبيبتي يا سميحة.. لا تتركيني أنتِ الأخرى يا حبيبة، قلبي لن يقوى على فراقكِ، وقد أقسمنا أن نكون سويًا حتى آخر الطريق، نتجاوز كل الصعاب، فلا تُفلتي يدي الآن، كم أنا ضعيف من دونك!

يحتضن بنانها الرقيقة بين كفوفه، يرفعها إلى ثغره في ألم، والحزن يفوح من بين كلماته، تدمر شمل العائلة، رحل الابن وضاع الأجداد، ثم شُلت الزوجة، وبقي الأب عاجزًا، بينما يحاول باقي أبنائه إزالة اللعنة التي حلت فوق رؤوسهم، ولم ترحم أي من كان.

*** * * ***

ـ أهلًا ومرحبًا بكم، لقد جئتم في الموعد المناسب، مرت الثلاثة أيام، فهل أحضرتم المطلوب معكم؟، سنبدأ على الفور ما أن يحل الظلام، ويغيب شعاع الشمس، حينها سيكون أذن الوقت.

لم يتفوها بشيء، أطبق فوق أفواههم الصمت، وأطرقوا برأسهم إلى الأسفل في حزن، لم تكد روح أخيها تغادر الجسد حتى استدعوها قبل أن تصعد إلى السماء، وكذلك ظهرت روحها عند ذكر اسمها، فخاطبهم الساحر مرزوق، وقد غيروا لقبه بعد معرفة حقيقته:

ـ الست داليدا أهلا بكِ، لم أتوقع حقًا مجيئكِ، ولكننا نحتاجك، أهلا بسيادة اللواء حسام أم تُريد مني نسيان الألقاب، وقد تساوت الروؤس الآن بعد ما دفن الجسد تحت التراب، فهل لديك ما تُريد قوله؟

نظر إلى أخواته في شوق مُغلف بالندم، لم يُحسن معاملتهم قط، ولطالما كان مغرورًا، لا مجال للعواطف لديه، وتغيرت تلك النظرة بعد فوات الأوان، تحوم روحه حول أجسادهم كأنما تُريد ضمهم، ولا تستطيع، فيا ليته فعل ذلك من قبل بينما هو موجودٌ جوارهم، إلا أنه الآن وقد منحه القدر فرصة لتصليح ما كان، لن يؤل جهدًا للمساعدة.

ـ أخي حسام.. لا تعلم حقًا كم أفجعنا فراقك يا أخي!

تفوهت كريمة بتلك الكلمات في ألم، فتبسم إليها، هو أيضًا اشتاقها، ولطالما خشي من الرحيل، فلا يحزن عليه أحدٌ، إلا أن جنازته كانت مُهيبة، وحضرها الكثيرون على الرغم من بطشه جاء كل من بمركز الشرطة للعزاء فيه من أصغرهم رتبة حتى روؤسائهم، وحزنت عليه زوجته بشدة، التي لم تر منه الحب قط، فأدرك بأن الحب الصادق لا علاقة له بمعاملة الشخص الآخر في كثير من الأحيان.

أخذ الساحر مرزوق يستعين بأعوانه، ثم عَلَى صوته بأحد الترانيم التي استحضر بها روح نور وإيناس، وألقى تعويذة كي يُخفي روح سلمى على أنظار الشرير لدقائق معدودة، ينقلها فيها إلى حيث يوجد، وشعر الساحر ضرغام بالأمر فردد هو الآخر إحدى التعاويذ التي ساعدت على تمام الأمر، حملهم الدخان الكثيف معًا بينما الشرير لا يدري، وما أن انتهت الدقائق عادت إليه رؤية المشهد، وعَرَف مكانهم، صاح في غضب، وفي ثوانٍ كان أمامهم، قذفهم بألسنة اللهب، وأراد السيطرة على الأرواح الموجودة، إلا أنها كانت متحدة، وعلمت كل منها دورها جيدًا.

ـ لا تُحاول يا مدكور.. فقد جئت إليَّ بنفسك حيث ستكون نهايتك.

ـ هههه.. لا أُصدق ما أراه بعيني، أنت من يُنادونه بالشيخ مرزوق.. كيف يقولون ذلك وأنت لا تُجيد سوى الحيل والتعاويذ، فهل تظن بأن مُساعديكِ أقوى مني؟

ـ لن يتم الأمر بواسطتهم.. أنت تعلم جيدًا كم يهابونك!

ضحك من قوله، وأكمل في سخرية:

ـ إذن فأنت تعرف بأن المعركة خاسرة.

ـ كان ذلك قبل قدوم تلك الأرواح إلى هنا.

ارتاب الشرير، وأخذ يجول ببصره في أرجاء المكان، حتى وقعت عيناه على روح سلمى وبجانبها روح الساحر ضرغام، فضحك في زهو، وفي استخفاف وجه لهم الحديث:

ـ لقد استطعتم الهروب مني للحظات، أما الآن سوف أعيدكم بنفسي إلى ذلك الأسر، وأعدك يا ضرغام بأنني لن أرحمك هذه المرة، وقد تجرأت على خيانتي ثانية.

حرك يديه في الهواء كي يسحبهم إلا أنه لم يستطع لأول مرة، هناك شيء يحول دون ذلك، حتى ألقى الساحر مرزوق التعويذة التي تكشف كل الحضور، فرأى أربع أرواح أخرى متمثلة في الغرفة، أرواح طيبة لا تسعى للانتقام كسَلمى من قبل، وإن كانت اثنتنان منهم لم تصعد نحو السماء لأجل ذلك، إلا أنها الآن لم تعد تُريد سوى التضحية لأجل تحرير روح سلمى.

ذعر الشرير مدكور، وردد في استنكار:

ـ أنا لا أريد روح أي منكم، فدعوني قبل أن أؤذيكم، لن أرحمكم من بطشي.

ساعد الساحر مرزوق ضرغام على فك قيد تلك السلاسل التي تطوقه من كل جانب، فنزل إليه، وألقى بشيء كان في رقبته بين يديه، أشار إليه بما يفعل بها، ورسم أمامه بعض الرموز والطلاسم، فاستطاع الساحر مرزوق معرفة أي تعويذة يجب عليه إلقائها، وإن كانت البوابة خلفها ستجلب لهم المهالك والشرور ما لم يحسنوا غلقها، ولكن لا بد من إعادة مدكور إلى حيث جاء، صرخ الشرير حين رأها بيديه:

ـ غير معقول، هذه قلادتي، إذن فقد كانت معك يا لعين، وحجبت عني رؤيتها، يا ويلك مني يا ضرغام، حين ينزل بك عقابي الأخير.

ـ لن تستطيع فعل شيء يا مدكور.. فاستسلم لقدرك الآن.

شكلت الأرواح الموجودة دائرة، ورددت جميعها ترانيم تلك التعويذة، أخذ كل ما بداخل الغرفة يطير، البوابة تنفتح رويدًا رويدًا، ومع كل انفراجة تطيح ببعض أجزاء الغرفة، وأرواح عدة تقف قبالة المرآة، طرقت كل منها طرقة خفيفة عليها التي استطاع الشرير الحضور من خلالها، اجتمعوا حولها وفاقت قدراتهم مدى تأثيره عليها، يُحاول الشرير أن يوقفهم:

ـ لا .. لا تفعلوا.. إياكم والتفكير في ذلك.. إن ذهبتم معي.. لن أرحمكم، وسيكون الهلاك مصيركم..

ضحك منه الساحر ضرغام، وقال في استخفاف:

ـ ما هذا الذي أراه؟ مدكور ابن نيران الحموم ومذعون يرتجف من الخوف.

أخذ الشرير مدكور يُحرك يديه، ولكن ما من شيء يستجيب له بالغرفة، حيث اتحدت شذرات مرآة سلمى مع زجاج قلادة مدكور، فتشكلت المرآة من جديد، واهتزت القلادة، كأنما المرآة سحبت بعض من قواها، أصبح وجودها أمامه كعدمها، غير معقول بأن تضحية والديه ذهبت سدى، فحاول من

جديد، والغضب يعصف به، لتتحرر القلادة شيئًا فشيئًا بينما هو يسحبها، وأوشكت فتحات البوابة على الانغلاق.

ـ هيا أسرعوا .. الوقت ينفد منا.. لا تسمحوا له بغلقها، فوالله لن يُمكننا فتحها ثانية، أسرعوا..

يصرخ بهم الشيخ مرزوق، ونظرات الرعب تطل من عيني ضرغام، وقد انقلبت عليهم الطاولة، لن يسلموا قط من شرور مدكور، فوقف هو قبالته كي يلهيه، ألقى بنفسه في البداية، فتم سحبه إلى أحد الفتحات، وحال دون التقاء أجزائها.

انفعل مدكور من فعله، وصرخ باسمه، ليستمد الشيخ مرزوق الأمل من ذلك، ويُوجههم قائلًا:

ـ هيا .. من التالي؟ دعوا نفسكم أمام المرآة، ولن تشعروا بشيء بعدها.

كانت روح السيدة داليدا هي المبادرة بعد ضرغام، ألقت بنفسها داخل المرآة، وقبل أن تفعل ذلك همست للدكتور محمد في أذنيه:

ـ سأفعل ذلك لأجلك عزيزي الطبيب، فكم ساندتني ووقفت جواري، ولكني لن أستطيع الظهور ثانية ما أن تذكرني، فأرجوك لا تنساني.

ثم لحقت بها روح إيناس، وقبل ذلك حركت الهواء بيديها، وألقت في يد الساحر مرزوق رسالة، يجب عليه إيصالها إلى الشخص المقصود، فبدأت قوى المرآة تخور، أخذت تهتز بهم، فأمر الساحر مرزوق البقية أن يُكملوا على عجل، وهو مستمر في ترديد الترانيم، ثم جاء دور نور، فدارت حول أخيها وعائلته، اعتذرت منهم في ندم، وما أن ألقت بنفسها احتضنتها، ودفعتها هي خارجًا، قد سامحتها، لا تحتمل المرآة كل تلك الأرواح داخلها، خارت قوى الشرير والبوابة توشك على أن تنفتح على اتساعها، وبدأت تسحبهم، فتبقت روح اللواء حسام ليتم حسم الأمر، تردد في البداية، أراد توديع ابنه، إلا أن الوقت كان ينفذ أمامهم، فلم يمهله كما جاء الرحيل، أخذت المرآة تهتز بقوة، والقلادة تقترب منها، دفعتهم البوابة سويًا، وما أن أوشكوا على العبور خلالها أوقفهم مدكور، وكادت أن تضيع تضحيتهم سدى حتى تدخلت شخصية غير متوقعة.

فسألها الشيخ مرزوق في ريبة:

ـ مَن أنت؟ وماذا تريدين منا؟

أجابته في ثبات:

ـ جئت للمساعدة، فما زال هناك شذرة زجاج ناقصة من تلك المرآة، وجدتها الممرضة سهير في غرفة رضوى، وما أن أحضرتها إلي، علمت بأنكم ستحتاجونها، وجئت لأحضرها لكم الآن.

ما أن ناولتها له، كسرت القلادة المرآة، لم يعد لها من شذرات، وقد تفتتت عن بكرة أبيها، فسُحبت القلادة إلى ذلك العالم المجهول، ونُثرت بأماكن متفرقة، لم يعد بإمكانها أن تجتمع ثانية، وقد ضحت

كل تلك الأرواح بنفسها، وبدمار القلادة انتهت قوى الشر، وأغلقت كل المنافذ أمام مدكور للعودة، لتظل روحه منفية في أقصى بقاع الأرض.

ـ هل الأمر انتهى؟

تسأله الدكتورة كريمة في عدم استيعاب، فما شاهدته الليلة يصعب على أي امرؤ تصديقه، فتبسم إليها في ضعف، وقد أنهكه فتح مثل تلك البوابة، ولولا وجود الساحر ضرغام، لما تم الأمر، تلك القوى الشريرة يصعب السيطرة عليها، وهناك بعض الأبواب يكون في غلقها حكمة عظيمة، يجب علينا عدم البحث خلفها، يدفعنا الفضول فنتدخل فيما لا يعيننا، نجلب المهالك إلى حياتنا بالسعي وراء ما نجهله.

ـ تظنون بأن الاستعانة بالسحر أمرٌ سهلٌ، لا والله فهي قوى شر إن استدعيتموها لن تروا السلامة قط، ساحرًا كنت أم مغدورًا، تسعى للانتقام ممن تراه في نظرك أفضل منك، وما ذلك إلا غيرةً وغرورًا، تفتح عليك بابًا أنت في غنى عنه، وتخسر آخرتك قبل دنياك، يصبح كلاهما وبالًا عليك، وتأتيك النهاية المحتومة.

كانت تلك آخر كلمات الساحر ضرغام قبل أن يُلقي بنفسه داخل البوابة، يشهد المصير ذاته مع الشرير مدكور، فهو من تسبب بكل تلك الويلات حين سار خلف أهوائه، وقرر التضحية بروح بريئة، لا ذنب لها في كل ما شهدته، ولكن الآثام تأتي بأخرى، فيستعظم حينها الشر.

* * * *

- ١٠ -

بداية جديدة

رفع المؤذن آذان الفجر، فتوارى الظلام خلف الغمام، وبدأ نور الشمس يتسلل تدريجيًا على أرجاء الغرفة في استحياء، فتح كريم عينيه بغتة، فصُدمت الممرضة عند رؤياه، وذهبت لاستدعاء الدكتور إسلام، ما كان منه إلا أن شُده بدوره بينما هو يفحصه، ويقرأ المؤشرات الحيوية، بدا على كريم الانفعال، وسأل في ذعر عن عمر، نظر الطبيب إلى الممرضة في ارتياب، لم يعرف بمَّ يُجيبه؟ وقد عاد فقط إلى وعيه الآن، احتاروا كثيرًا فيمَّ أصابه؟، ويخشى الطبيب أن تسوء حالته ثانية، فطلب منه أن يستريح حتى يأتي والده، وحده يعلم الإجابة.

ـ كريم .. كريم ابني.. هل أنت بخير يا حبيبي؟ تحدث معي أرجوك.

على جناح السرعة وصل إليه الدكتور محمد، حين زُف إليه الخبر السعيد، وجاءت السيدة فادية بدورها، وكذلك عمته كريمة، وقفت العائلة حوله، بينما غاب الجد والجدة عن المشهد، وكذلك عمر ووالداه، ليُطمأنه الدكتور محمد:

ـ طالما أنت بخير، سيكون عمر كذلك يا بني، وقد انقشعت الغمة الآن.

نظر إليه كريم في استفهام، لا يفهم عليه شيئًا، لتضمه العمة كريمة إلى أحضانها، وهي تشكر الله في امتنان:

ـ الحمد لله على سلامتك يا حبيبي، أسأل الله أن يحفظك دومًا، ويقر أعيننا برؤية عمر.

ـ وأين هو عمر؟

سألها في ارتياب، فلم تلبث أن أجابته بصوت خافت:

ـ ستعرف كل شيء يا كريم، فلا تتعجل يا حبيبي.

أراد مواصلة الحديث، إلا أن والدته أحالت دون ذلك، ألقت بنفسها عليه، وهي منهارة في البكاء، يفوح من بين شفتيها كلمات الندم:

ـ سامحني يا بني أرجوك، اغفر لي ما مضى، فقد أدركت خطؤي الآن، سامحني يا كريم يا حبيبي، لم أكن أعلم أنني أحبك بهذا الشكل حتى كدت أن أفقدك، فاسودت أيامي، وإني لأرجو الله أن تعطيني فرصة كي تكون هناك بداية جديدة.

لا يُصدق كريم ما يسمعه بأذنيه، هذه السيدة تُشبه أمه، ولكن شتان بينها وبين من عرفها من قبل، فاستسلم بين أحضانها، وشعر بحنانها لأول مرة، الذي لطالما افتقده، فتذكر من كانت تُغدق عليه بفيض حنانها، ليسأل عنها في قلق:

ـ أين هي أمي شيرين؟

مسحت السيدة فادية العبرات عن وجهها، ثم حاولت بهدوء أن تُخبره بمكانها، فكم تدين لها بالفضل بدورها، قدمت الكثير لابنها، والامتنان هو الشعور الوحيد نحوها الآن، اختفت الغيرة، وتبخرت الضغينة كأن لا وجود لها، غيرتها تلك الشدة بشكل جذري، ورأت الحياة على حقيقتها.

ـ اهدأ يا كريم يا حبيبي، لقد ذهب الشر بعيدًا يا بني.

نظر لها في استنكار، منذ متى وهو بتلك الغيبوبة، حيث فقد الاتصال بالحياة، ولم يشهد الكثير من أحداثها، ليُجيبه الدكتور محمد، والابتسامة تعلو ثغره:

ـ لقد قام أبوك بدوره يا حبيبي، والآن جاء دورك، فهيا تعال معي لفعل الصواب.

طالت المسافة، ولا يعرف كريم أين يأخذه أبيه؟ حتى فرغ فاهه في غير تصديق حين قرأ ذلك العنوان أمامه، وقد توقف والده، فردد في حيرة:

ـ هل تعرف رضوى يا أبي؟

هز الدكتور محمد رأسه في إيجاب، وأشدهه بقوله:

ـ نعم يا بني، وعمر هنا أيضًا.

ترجل من السيارة على عجل، أخذ يُسابق الرياح إلى غرفة صديقه، وقد سمح لهم الطبيب، والممرضة أمامهم تُرشدهم، فما أن انفتح الباب، صرخ باسمه:

ـ كريم حبيبي.. لقد عدت يا أخي.. كم اشتقت إليك! وأظلمت الحياة من بعدك.

ارتمى الأخوان في أحضان بعضهم، الكثير من التساؤلات بداخل كل منهم، وقبل أن يأخذ الحديث مجراه بينهما، إذ بالدكتور محمد يتدخل:

ـ هيا بنا يا أولاد، فهناك مشوار هام يجب علينا قصده، ولا يحتمل التأخير.

صمت للحظات، ثم أردف:

ـ لا تخف يا عمر، فقد أخذت إذنًا من الطبيب المختص، وكتبت تعهدًا على نفسي، أنت ستكون على مسئوليتي، فهيا يجب علينا التحرك الآن.

صعد ثلاثتهم في السيارة، فما لبثت أن انطلقت بهم مسرعة، يقود الدكتور محمد على أقصى سرعة، يُريد أن يصل بهم إلى المكان المنشود بأقرب وقت، مرت أكثر من خمس ساعات حتى بلغوا ما يُريدون، وكان الأستاذ منير في استقبالهم، وضع يده في يد كريم، يُرحب به، فاحتضنه، وقد عرف من يكون، ثم تنهد في ألم:

ـ لطالما تمنيت يا عمي أن أضع يدي في يدك، ولكن بظروف أخرى، لم أتخيل أن نلتقي وقد غاب الأمل عنا.

ـ هل تُريد زيارتها يا بني؟

هز رأسه في إيجاب، وانطلقت اللهفة من عينيه، أخذه حيث يوجد قبرها، وقف قبالتها، وانسلت العبرات من عينيه بلا هوادة، غشيت أمامه الرؤية، فاعتذر منها في ندم شديد، وانهار حتى سقط أرضًا:

ـ سامحيني يا سلمى.. أرجوكِ، فوالله لو كنت بوعيي لما سمحت لأي منهم على إيذائك أو الاقتراب منكِ.

أخذ يتوسلها، يطلب منها أن تُسامحه، ولكنها فاجئته بظهورها، شعر بلمساتها التي تأتيه من الفراغ، ودورانها حوله كأنما تضمه، ثم همست بحب في أذنه:

-لقد سامحتك يا كريم.. سامحتك يا حبيبي.. ولكونك عدت الآن سأرحل إلى الأبد، فقد أسر الشرير روحك حين حاولت الدفاع عني، وألقى بها في الظلمات، ليسكن جسدك في مكانه، ولم تقو على الحراك، حاولوا إسعافك بشتى الطرق، ولكن فاق الأمر مقدرة البشر، فحاولت أنا جاهدة كي أُنقذك، ظللت أتعذب والخوف يجتاحني عليك من كل جانب، وما أن نلت خلاصي بفضل مساعدتهم، تحررت أنت، ونهضت يا كريم كأن شيئًا لم يكن.

أخذت تفضي إليه للمرة الأخيرة، ولم تنس عمر، هو أيضًا بحاجة أن يستريح، ألقت عليه نظرة باسمة، تؤكد له بأنها لم تعد تحمل له الكراهية، ليحيا بسلام الباقي من عمره، ويعملا على تحقيق حلمها سويًا، كان ذلك عامهم الأخير في الجامعة، فعاد عمر إلى سابق أوانه، نهم في المذاكرة، يسمونه بالدحيح، فهو ولهٌ بدراسته، وفي حفلة التخرج جاء ذكرها، تم تكريمها، فقد كانت من الطلبة النابغين في الجامعة، وتحدث كل منهم بدوره عنها، جاءت البداية من عند عمر، وهو يقول:

-الكثير منا يعرف مَنَ تكون شيرين أبو عاقلة؟ لا يُنكر أحدٌ عِظم دورها، ولقد تمنت سلمى أن تكون مثلها، تنقل الحدث كما هو، لا تتلون أو تُزيف الحقيقة، وتقف في وسط النيران بين إخواننا، تُشهد العالم على بطش الصهاينة وظلمهم، حيث يسير الغدر مجرى الدم في شريانهم، نقضوا العقود، ولم يوفوا بالمواثيق، هتكوا الأعراض، ونزعوا عن الصغار براءتهم، يتموا الأطفال، وغلبوا ذوات الأربع في السير خلف شهواتهم، وإن كانت الحيوانات لا تتعدى على غير بني جنسهم، وقد يكون هناك بعض الرحمة داخلهم.

نظر له كريم في امتنان، وأكمل في فخر:

-لم أر قط فتاة مثل سلمى، وقد أحبت الجميع، كانت تُيسر علينا الدراسة، وتسهر ليلًا كي تلخص لنا المواد، وإن رسب أحد منا، كانت تقطع أجازتها كي تُذاكر له بنفسها، فتفرح لفرح الناجح، وتشاطر المحزون آلامه؛ بل وتخففها عنهم، ولا أظن بأنه قد يوجد يومًا في الحياة شبيهةً لها.

صمتت للحظات، ثم أردف:

ـ ولعل الجامعة تقبل مني هذه الهدية؛ كي لا ينقطع ذكر سلمى، ويظل الجميع يذكرها كأي بطل ما زلنا حتى الآن نُشيد بذكره.

ناوله عمر لوحة كبيرة، بدت أطول منه، فهو قصير الجسد، عريض البنية، يضع النظارات فوق عينيه، حيث لا يُمكنه الرؤية بشكل جيد دونها، فعلقها كريم على أحد جدران الكلية، وسطر تحت صورتها بالفحم حكايتها، ليعرفها القادم والأتي، ولا ينسى اسمها من شهدها.

*** * * ***

في المصحة النفسية ...

اختفت السيدة نوران وابنتها من غرفهم، طوقوا الأرجاء بحثًا عنهم في كل ركن من أركان المستشفى، لا اثر لهم ولا حضور، غابتا عن المشهد في ريبة، فاندهش الجميع، وكل الأبواب والنوافذ موصدة، لا يعرف الطبيب ماذا يقول؟ إلا أنه طلب منهم التكتيم على الخبر كي لا تحدث جلبة، وتثار الأجواء من بعدهم، بينما وجدت رضوى نفسها مع والدتها في مكان غامض، من حولهم النيران بكل جانب، ثم ظهر أمامهم شخص ما، كأنما حضر من المجهول، لم يلحظوا وجوده، فعَرَف عن نفسه:

-أنا الشيخ مرزوق.. وهذا هو وكري، يأتيني الكثيرون إلى هنا طلبًا للمساعدة، وقد جئت بكم إلى هنا لأوصل تلك الرسالة.

-رسالة؟ أي رسالة؟

تسأله رضوى في استنكار، بينما تسللت الريبة إلى قلب السيدة نوران، فهل هذا عقابٌ جديدٌ؟

-لا تخافوا، فأنا لست بعدوٍ، ولكن أرجو منكم الثبات حتى سماعها.

فتح الرسالة، وببعض حيله، تشكلت الرسالة كما أرادت صاحبتها أن توصلها، فرأوها أمامهم، تُحدثهم في حزن:

-ابنتي رضوى يا أغلى الأشخاص على قلبي، أعلم بأنكِ تعذبت كثيرًا الفترة الماضية، ولكنك يا عزيزتي كنتِ مُخطئة للغاية، لا يحق أخذ ما هو ليس لنا، ولا يمكننا امتلاك كل الأشياء، علينا أن نقبل بالخسارة في الجولات التي لا يقف فيها الحظ حليفًا لنا، ولا ننظر للأذى باستخفاف، فنطيح في بني البشر دون رحمة، كأننا نعيش في غابة البقاء فيها للأقوى.

نظرت لها رضوى بشرود، لا تعرف من تكون؟ ولا تتبين ملامحها، إلا أن الأخرى أكملت:

ـ أطفئي نيران الغيرة يا ابنتي كلما اتقدت، ولا تسمحي للشرور أن تقودك، ثم إياكِ واللجوء للسحر ثانية، هو كفر يا ابنتي، فكيف تبيعين دينك بثمن بخس؟ الله يكون دومًا معنا، حتى نتجرأ بذلك الفعل، فنستحق عذابه، يبغضنا أهل السماء والأرض، وقد رأيتِ يا ابنتي ما يكفي من ويلاته، وكنتِ ستلقين

وجه الله على الكفر، فتوبي يا ابنتي عن ذنوبك، السحر كبيرة من الكبائر، أسأل الله أن ينظر إليكِ بعين رحمته، يقبلك مع المستغفرين، ويعفو عنكِ.

لامست كلماتها رضوى، وسقطت أرضًا منهارة، تردد من بين دموعها:

-أنا لم أقصد قتلها والله، لقد أردت فقط إبعادها من أمام طريقي، ولم أتخيل بأن قوى الشر ستفتك بها هكذا، فلا تتوقف روحها عن اللحاق بي بكل مكان.

تمثلت أمامها في محاولة بائسة لضمها إلى أحضانها؛ كي تُشعرها بحبها وحنانها، وقد حرمتها السيدة التي ربتها من أمها الحقيقية، ولعلمها بمدى شدة الأمر على قلبها، لن تقوى على احتماله، وهي تخسر الأحبة واحدًا تلو الأخرى، فدفنت السر داخلها، ووجهت حديثها للسيدة نوران:

-أما أنتِ يا نوران، فقد عفوت عنك، لن يفيدني إيذائك في شيء طالما سترعين ابنتي، ولعل ما حدث معكِ يجعلك تتغيرين، كم كان الدرس قاسيًا!

كانت أوصالها ترتعش، والعرق يتصبب بغزارة من جبينها خشيةً من افتضاح أمرها، فيكون هلاكها الأبدي وقد أحبت رضوى بشدة، ولن تطيق فراقها أو انعكاس نظرة الكره في عينها، تنهدت في ارتياح بعد سماع قولها، تبدل الحال وكذلك رضوى بعد ما علمت بمسامحة سلمى لها، ونالت روحها الخلاص بمساعدة والدتها الحقيقية.

بعد مرور شهر ..

-هل أنتِ سعيدة يا رضوى؟

هزت رأسها في إيجاب، وعلامات الرضا بادية على وجهها، لقد منحتها الحياة بداية جديدة، حيث سافرت مع والدتها إلى الخارج، ابتعدا عن الماضي بكل قسوته، وغيرت اسمها كي لا تلحق بها شبهات الماضي، ولا يتم فتح القضية التي حفظت في السجلات ضد مجهول، ولكن لم تنس التكفير عن ذنبها، تبرعت بمبلغ كبير من المال، وتم بناء مستشفى لمساعدة مرضى السرطان بالمجان، صدقة جارية على روح سلمى، وقد وهبتها اسمها، حذوت السيدة نوران بفعلها، وتبرعت بمبلغ كبير من المال، وطلبت منهم الدعاء للسيدة إيناس، فكم أحبت الصغار، وظلت حتى النهاية في براءتهم، وقد أسدت لها معروفًا لا يُنسى.

تمت

عن الكاتبة:

سارة عبد المنعم، مواليد محافظة الدقهلية، حاصلة على ماجستير الاقتصاد المنزلي (تخصص التغذية العلاجية) صدر لها عدة روايات بالعناوين التالية؛ أنا راحلة، وصال، دائرة الوهم، على أوتار العازف، قرية بوغيرا.

كما أنها فازت بمسابقة القصة القصيرة مع دار كاريزما للنشر والتوزيع لعامين على التوالي وكذلك مع دار حكاية صناع السعادة للنشر والتوزيع، بالإضافة إلى مسابقة الرعب للقصة القصيرة مع دار المعادي للنشر والتوزيع، فازت بمسابقة الرواية مع دار الشمس للنشر والترجمة والتوزيع، ومسابقة الرواية مع مبادرة حلم الشباب بالتعاون مع الدار المصرية السودانية الإماراتية للنشر والتوزيع.

لمتابعة الكاتبة على الفيسبوك: سارة عبد المنعم

https://www.facebook.com/profile.php?id=100063743236328

لمتابعة دار أكاديمية الكاتب على الفيس بوك:

دار أكاديمية الكاتب للنشر الإلكتروني

لمتابعة أكاديمية الكاتب على التليجرام وحضور المحاضرات الشهرية المجانية:

أكاديمية الكاتب للتدريب والاستشارات

اللينك:

https://t.me/AlKatebAcademyforTraining2023